



جامعة النجاح الوطنية  
كلية الدراسات العليا

السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها دراسة في  
تفسير المنار

إعداد

محمد يحيى دهامشة

إشراف

أ. د. عودة عبد الله

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في أصول الدين (عام)، من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين.

2024


# السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها دراسة في تفسير المنار

إعداد

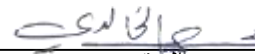
محمد يحيى دهامشة

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2024/10/01، وأجيزت.

  
التوقيع

  
التوقيع

  
التوقيع

  
التوقيع

أ. د. عودة عبد الله

المشرف الرئيسي

د. أحمد الرقب

الممتحن الخارجي

د. ناصر الدين الشاعر

الممتحن الداخلي الأول

أ. د. محسن الخالدي

الممتحن الداخلي الثاني



جامعة النجاح الوطنية  
كلية الدراسات العليا

## السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها دراسة في تفسير المنار

إعداد

محمد يحيى دهامشة

إشراف

أ. د. عودة عبد الله

بناء على تعليمات منح درجة الدكتوراة الصادرة عن مجلس عمداء جامعة النجاح فقد تم نشر البحث

التالي المستل من الأطروحة

دهامشة، محمد، وعبد الله، عودة. (2024). الجانب السياسي في السنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم:

دراسة في تفسير المنار. مجلة جامعة فلسطين الأهلية للبحوث والدراسات، العدد4، المجلد 1.

## إهداء

إلى روح والدتي ذات النسب العمري، من بيت العلم والعلماء، وإلى روح والدي الذي صاحب العلماء وأحبهم ودفعتني إلى تعلم العلم الشرعي دفعا -رحمهما الله تعالى-.

إلى زوجتي التي هيأت لي كل ما يعينني على مواصلة العلم والبحث فكانت نعم الزوجة والصاحبة.

إلى أبنائي وبناتي مهجة الروح والنفس ليعلموا أن طلب العلم ليس له حد يقفون عنده.

إلى الدعاة العاملين في ميادين الإصلاح والتغيير الحريصين على استعادة الأمة موقعها في الشهود الحضاري الذي ارتضاه الله تعالى لها.

إلى قادة الأمة ورعاتها في مختلف المواقع والمسؤوليات الملتزمين سبل النهضة والعزة والازدهار.

## شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فقد هداني لأفضل العلوم وأنفعها وفتح لي باب الولوج فيها لأنهل من معينها ما ينفعني وينفع المؤمنين، والصلاة والسلام على النبي الأمين معلم الناس الخير والمبعوث رحمة للعالمين.

أتقدم بالشكر والتقدير لمشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور عودة عبد الله الذي كان نعم المرشد والموجه والناصح، فكان له الفضل الكبير بملاحظاته الدقيقة وإشاراتهِ النيرة، حتى خرجت هذه الدراسة على هذا الوجه.

ثم إنني أتقدم بجزيل الشكر إلى السادة العلماء أصحاب الفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الرقب، والأستاذ الدكتور ناصر الدين الشاعر والأستاذ الدكتور محسن الخالدي على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الأطروحة، وعلى ما جادوا به من النصح، والتصحيح والتقويم والإرشاد.

كما لا أنسى إخوة زملاء كانوا نعم الأصحاب والرفاق في طلب العلم، فلم يبخلوا بنصيحة أو معلومة أو مساعدة خلال مسيرتنا التعليمية.

## الإقرار

أنا الموقع أدناه، مقدم الأطروحة التي تحمل العنوان:

# السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها دراسة في تفسير المنار

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الأطروحة، إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الأطروحة ككل، أو أي جزء منها، لم يقدم من قبل لنيل أية درجة علمية، أو لقب علمي أو بحثي، لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: محمد يحيى دهامشة

التوقيع: محمد دهامشة

التاريخ: 2024/10/01

## فهرس المحتويات

إهداء.....	د.....
شكر وتقدير.....	ه.....
الإقرار.....	و.....
فهرس المحتويات.....	ز.....
فهرس الملاحق.....	ك.....
المُلَخَّص.....	ل.....
مقدمة.....	1.....
الفصل الأول: التعريف بتفسير المنار وصاحبه.....	11.....
المبحث الأول: التعريف بصاحب المنار محمد رشيد رضا وعلاقته بمحمد عبده.....	11.....
المطلب الأول: التعريف بصاحب المنار محمد رشيد رضا.....	11.....
المطلب الثاني: علاقته بالإمام محمد عبده.....	18.....
المبحث الثاني: التعريف بتفسير المنار وبيان خصائصه.....	21.....
المطلب الأول: فكرة إصدار التفسير.....	21.....
المطلب الثاني: صدور التفسير.....	23.....
المطلب الثالث: خصائص وميزات تفسير المنار.....	24.....
الفصل الثاني: عناية تفسير المنار بالسنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها.....	27.....
المبحث الأول: التعريف بالسنن الإلهية.....	27.....
المبحث الثاني: تأثير حال الأمة على عناية تفسير المنار بالسنن الإلهية.....	31.....
المطلب الأول: الحالة السياسية.....	32.....
المطلب الثاني: الحالة الدينية.....	38.....

41	المطلب الثالث: الحالة الفكرية.....
46	المبحث الثالث: تأكيد تفسير المنار على أهمية العلم بالسنن الإلهية.....
46	المطلب الأول: عناية الإمام محمد عبده بالسنن الإلهية.....
50	المطلب الثاني: عناية الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار بالسنن الإلهية.....
60	الفصل الثالث: السنن الإلهية في بناء الأمم ونهضتها في تفسير المنار.....
61	المبحث الأول: السنن العقائدية في نهضة الأمم في تفسير المنار.....
62	المطلب الأول: الإيمان من سنن النصر المعنوية.....
67	المطلب الثاني: ذكر الله تصديقاً واعتقاداً من سنن النصر.....
70	المطلب الثالث: النصر حليف أولياء الله.....
73	المطلب الرابع: توحيد الله وتقواه قاعدة انطلاق الأمة وتحليقها.....
77	المبحث الثاني: السنن الأخلاقية في نهضة الأمم في تفسير المنار.....
80	المطلب الأول: حاجة الأمة إلى الأخلاق كحاجتها إلى العقيدة.....
83	المطلب الثاني: الأخلاق روح الأمة وعمادها.....
85	المطلب الثالث: أمثلة لبعض الأخلاق الحميدة وكونها من السنن الإلهية في نهضة الأمة.....
89	المبحث الثالث: السنن السياسية في نهضة الأمم في تفسير المنار.....
91	المطلب الأول: الحاكم الصالح وأثره في نهضة الأمم.....
98	المطلب الثاني: أهل الحل والعقد وأثرهم في نهضة الأمم.....
104	المطلب الثالث: الشورى وأثرها في نهضة الأمم.....
116	المطلب الرابع: الأمانة والعدل وأثرهما في نهضة الأمم.....
125	المبحث الرابع: السنن الاقتصادية في نهضة الأمم في تفسير المنار.....
126	المطلب الأول: العناية بالمال وتنميته وأثر ذلك في نهضة الأمم.....

- المطلب الثاني: أثر الزكاة في الإصلاح المالي ونهضة الأمم.....132
- المبحث الخامس: السنن العسكرية في نهضة الأمم في تفسير المنار.....137
- المطلب الأول: التأكيد على ضرورة فهم السنن الإلهية لتحقيق النصر.....138
- المطلب الثاني: القوى المعنوية في السنن العسكرية.....141
- المطلب الثالث: القوى المادية في السنن العسكرية.....151
- الفصل الرابع: السنن في سقوط الأمم في تفسير المنار.....163
- المبحث الأول: السنن في الانحراف العقائدي وسقوط الأمم في تفسير المنار.....164
- المطلب الأول: عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وأثره في نفوس المشركين.....164
- المطلب الثاني: الخرافات واتخاذ الأولياء من دون الله سبب في الضعف والتخلف.....167
- المبحث الثاني: السنن في الفساد الأخلاقي وسقوط الأمم في تفسير المنار.....174
- المطلب الأول: ما أصاب بني إسرائيل بظلمهم وفسادهم وسوء أخلاقهم.....174
- المطلب الثاني: ما أصاب المسلمين بسوء أخلاقهم، فلم تحاييهم سنن الله.....177
- المطلب الثالث: أثر فساد الأخلاق في الأمم عامة.....181
- المبحث الثالث: السنن في الظلم والاستبداد السياسي وسقوط الأمم في تفسير المنار.....186
- المطلب الأول: الظلم ذل للشعوب وفساد للعمران.....187
- المطلب الثاني: أثر استبداد الحاكم وسوء سياسته في الرعية.....193
- المطلب الثالث: أثر التزاوج بين سلطة العلماء وسلطة الحكام.....201
- المبحث الرابع: السنن في الفساد المالي وسقوط الأمم في تفسير المنار.....209
- المطلب الأول: فساد المال من حيث أخذه بالباطل وأثر ذلك على الأمة.....210
- المطلب الثاني: فساد المال من حيث إنفاقه في الباطل وأثر ذلك على الأمة.....218
- المبحث الخامس: السنن في الضعف العسكري وسقوط الأمم في تفسير المنار.....225

226.....	المطلب الأول: التنازع سبب في الضعف الفشل
228.....	المطلب الثاني: الغرور والوهن ودورهما في الضعف والفشل
234.....	المطلب الثالث: الخلل بين القيادة والجيش سبب في الضعف والفشل
238.....	الخاتمة
262.....	الملاحق
B .....	Abstract

## فهرس الملاحق

ملحق (أ): شهادة قبول نشر البحث المستل من الأطروحة ..... 262

# السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها دراسة في تفسير المنار

إعداد

الطالب محمد يحيى دهامشة

إشراف

أ. د. عودة عبد الله

## المُلخَص

تناولت هذه الدراسة السنن الإلهية المتعلقة بنهضة الأمم وسقوطها في تفسير المنار، حيث يعد هذا التفسير مدرسة في الإصلاح الاجتماعي، والبناء والعمران، والهداية والإرشاد إلى سعادي الدنيا والآخرة، فتخصصت هذه الدراسة في بيان واستكشاف السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها من خلال تفسير المنار.

وافتحت الدراسة بالتعريف بتفسير المنار وصاحبه محمد رشيد رضا وعلاقته بالإمام محمد عبده، ثم عرّجت الدراسة على بيان مفهوم السنن الإلهية، وإلى تأثير واقع وحال الأمة على عناية تفسير المنار بهذه السنن، وإلى تأكيد تفسير المنار على أهمية العلم بها.

ولما كان تفسير المنار، هو أكثر التفاسير بيانا وتعرضا للسنن الإلهية في الاجتماع والعمران فقد عملت الدراسة على بيان هذه السنن المتعلقة بالأمم صعودا وهبوطا، وعزة وذلة، وازدهارا وانحطاطا من خلاله.

وحيث إن الأمة يقوم بناؤها على أركان صلبة متينة لا غنى عنها، فقد حددها الباحث بخمسة أركان هي العقائدية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، وعمل على بيان السنن الإلهية في هذه الجوانب صحة وانحرافاً، صلاحاً وفساداً، قوة وضعفاً، وأثر ذلك على نهضة الأمة وسقوطها، وكل ذلك من خلال بيان وتحليل ما جاء في تفسير المنار عن هذه الجوانب.

وخلص الباحث إلى أن العلم والعمل بالسنن الإلهية هو من مقاصد الشريعة الغراء في حفظ الأمم وصيانتها، وأن الحفاظ على بناء الأمة من خلال صيانة أركانها الخمسة، هو من ضرورات الأمة التي لا يجوز المساس بها.

وقد بين القرآن الكريم بشكل صريح أن تغيير ما في الأمم صعودا أو هبوطا لا يكون إلا بتغيير ما نفوس

أبنائها فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]

الكلمات المفتاحية: التفسير، السنن الإلهية، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، محمد عبده.

## مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تعم البركات، الحمد لله أولاً وآخراً، وفي الحياة وعند الممات، الذي بيده ملكوت الأرض والسموات، يدبر الأمور بعلمه وحكمته ويجريها بقدرته وسنته الماضية في الكون والأمم والمجتمعات، أنزل القرآن هدايةً للناس وموعظةً وشفاءً ورحمةً، ومنهجاً ودستوراً لإصلاح الأمم ونهضتها، ودفع الفساد والسقوط عنها والملمات، والصلاة والسلام على، معلم الناس الخير الداعي إلى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال وخالص العبادات والطاعات، وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد.

فكانت أمة العرب قبائل متناحرة ومتناثرة في أرجاء جزيرة العرب، لا دين يوحدهم ولا منهج يجمعهم، ولا غاية كبرى يتوجهون إليها، كانوا يخبطون في غياهب الظلمات، ويضربون في متاهات الفياقي والقفار، ويقنعون بما تيسر لهم من ملذات الحياة، وإذا هاجت في قبيلة مشاعر الغضب والاستعلاء والفخر والخيلاء، أفرغتها في قبيلة أخرى مجاورة أو غير مجاورة، فالغزو وسعار الحرب والكر والفر فيما بينهم عادة لا تكاد تفارقهم.

فأنزل الله تعالى القرآن الكريم، فكأنه اليد الحانية التي تنتشلهم من وهدة الظلام، وكأنه الشعلة المتوهجة التي تضيء لهم الطريق. فكان لهم كتاب هداية وارشاد ومنهج بناء وإمداد، ودستور عزة وإعداد، فشقوا طريقهم بين الأمم وأخذوا دورهم في الحضارة الإنسانية، بل واستلموا زمامها، وفرضوا أنفسهم على التاريخ فصنعوا أحداثه ودخلوه من أوسع أبوابه، وذلك لأنهم فهموا القرآن فهماً سليماً وعملوا بمقتضيات ما فهموا، ولم يتركوه آيات تتلى ويتبرك بها، ولم ينتظروا أحداث التاريخ لتأتيهم من عالم الغيب علّها تصادف أحلامهم وأمنياتهم دون علم وعمل.

إن أحداث التاريخ لا تجري عبثاً وإن حركته لا تخبط خبط عشواء، فإذا كان الإنسان وهو باني المجتمعات وصانع الأحداث لم يخلق عبثاً، فإن حركة التاريخ ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً صعوداً وهبوطاً، وصلاًحاً وفساداً،

فقد قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكِرُوا إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115]، وقال تعالى:

﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنُتُمْ لَأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ وَرَحْمَتِي

يُغَيِّرُ وَمَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ولما كان الله عز وجل قد علم القرآن وخلق الإنسان، فإنه جعل القرآن للإنسان كتاب هداية ورشاد، ومنهج استقامة وسداد، فإذا كان كل صانع يرفق مع صنعته التعليمات التي من خلالها تؤدي الصنعة وظيفتها ويكون بها حفظها وإصلاحها وصيانتها، فكذلك أنزل الله القرآن للإنسان ليحفظ من خلاله ويصان، وليؤدي وظيفته في الاجتماع وال عمران، فيكون نعم الخليفة على الأرض كما أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى حين خلقه فقال: ﴿إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

لقد جاء القرآن آخر كتاب سماوي وضمّنه الله تعالى علم أحوال البشر، وبين فيه أحوال الخلق وطبائعهم، وبين من خلاله السنن والقواعد التي يكون بها فلاح الناس وسعادتهم في الدارين، فإذا ما نظر العاقل المتدبر في سير البشر وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وصعود وهبوط، ثم تدبر ما جاء في القرآن من آيات تتحدث عن الأمم والمجتمعات، وما يلزم أحوالها من تقلبات وتغيرات، علم أن كل هذه التقلبات لا تأتي صدفة ولا عبثاً، وإنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسنن والقواعد التي وضعها الله تعالى، فلا تقوى أمة ولا تضعف ولا تعز ولا تذلل، ولا تنهض ولا تسقط، إلا بناء على السنن التي تسير عليها والقواعد التي تنطلق منها، فقد جعل الله تعالى للقوة والعزة والنهوض سنناً، وكذلك جعل للذل والضعف والسقوط سنناً، وما علينا إلا قراءة القرآن الكريم بتدبر وتمعن لاستكشاف هذه السنن وفهمها.

لقد اهتم بعض علماء المسلمين الأوائل ببيان السنن الإلهية في الأمم وال عمران والمجتمعات، وذكرها بعضهم كشذرات في كتبه، وكان لابن خلدون إسهام واضح في هذا الباب في مقدمته عندما تحدث عن حركة التاريخ وعلم العمران البشري، إلى أن جاء زعماء مدرسة الإصلاح والتجديد وعلى رأسهم محمد عبده ومحمد رشيد

رضا، فكان الاهتمام بالسنن الإلهية في الأمم والمجتمعات على رأس سلم أولوياتهما، ذلك أنهما عاشا واقعاً يستدعي منهما النظر في أسباب التردّي والسقوط، والبحث عن أسباب العزة والنهوض.

وإن مما دفعني أن أجعل هذه الدراسة في السنن الإلهية في صعود الأمم وسقوطها حاجة المسلمين في هذا العصر إلى إعادة النظر في أسباب ضعفهم والبحث عن أسباب قوتهم وفهم عوامل السقوط وعوامل الصعود، ولقد جعلت جهدي في هذا الموضوع عسى أن يسهم ذلك في تخليص الأمة من إحباطها وتقوقعها وظنها أن الإسلام مجرد طقوس دينية لا علاقة له بالنهضة والتقدم والرقى، وفي تخليصها من غزو الأفكار التغريبية التي تدّعي أن المعاصرة واللحاق بركب الحضارة لا يكون إلا بعيداً عن القرآن والإسلام، واخترت أن أجعل تفسير المنار محلاً لهذه الأطروحة كونه قد عني عناية فائقة بهذه السنن وجلاها وأبرزها خير إبراز، ولقناعتي أن صاحب التفسير قد عاش ظروفًا مشابهة لما نعيشه اليوم، وكان خير من بيّن هذه السنن في العصر الحديث، وقد اجتهد في وضع الحلول لما تعانيه الأمة ومنطلقه كتاب الله عز وجل.

لقد جاء تفسير المنار بمثابة دراسةٍ شاملةٍ للسنن الإلهية في الاجتماع والعمران، وما فتى هذا التفسير يذكر هذه السنن ويتعرض لبيانها كلما ساحت له الفرصة، حتى وجدت الحديث عن السنن الإلهية وذكرها قد تكرر فيه مئات المرات، فكانت عنايته بهذه السنن بمستوى لم يصل إليه أي تفسير سابق وحتى أي تفسير لاحق على الرغم من زيادة عناية المفسرين بهذه السنن في العصر الحديث، حتى صار هذا التفسير بمثابة الباعث والمؤسس لهذا العلم، وهو الذي فتح الباب لكل من جاء بعده لدارسة السنن الإلهية واستكشافها.

ومن هذا الباب جاءت هذه الأطروحة بشكل خاص في تفسير المنار للنظر في السنن الإلهية في الأمم والمجتمعات، وبيان عناية واهتمام هذا التفسير بهذه السنن، وبيان الواقع الذي عاشه صاحب التفسير والأسباب والدوافع لمثل هذه العناية والاهتمام البالغ، ثم عملت على استكشاف واستخراج هذه السنن وتنظيمها وترتيبها بشكل يجعل القارئ يدرك بشكل واضح أن النجاحات في شتى جوانب الحياة لا تأتي صدفة ولا تأتي انتقاء ومحاباة لقوم دون قوم، وليست نوعاً من الحظ الذي يتكئ عليه الضعفاء والكسالى، وحتى يدرك أيضاً أن

الفضل والإخفاق في أي جانب من جوانب الحياة، ليس لعنة تلازم قوما بعينهم، ولا سوء حظ أصاب قوما وأخطأ آخرين، وإنما يكون ذلك كله وفق أسباب ومقدمات، ووفق سنن وضعها الله تعالى فانبتت عليها الأحداث والنتائج، وكل ذلك على قاعدة الشرط وجواب الشرط، مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

ولما كانت دراستي عن السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها، ولأن الأمم لا تقوم إلا بعقائدها وأخلاقها ونظامها السياسي واقتصادها وجيشها، وهذه الأمور بمثابة الأركان الخمسة التي تقوم عليها كل أمة، فقد عملت على دراسة السنن في هذه الجوانب والأركان، ذلك أن الأمة لا تنهض إلا بعقائدها الصحيحة وأخلاقها القويمة وسياستها العادلة واقتصادها المتين وجيشها القوي، ولا تسقط إلا حين يدخل الخلل والانحراف والفساد والضعف في هذه الجوانب والأركان، وقد عملت على بيان سنن النهضة المتعلقة بكل ركن وجانب من أركان الأمة، ثم بيان سنن ضعف وسقوط هذه الأركان المؤدية إلى سقوط الأمة وانحطاطها، وكل ذلك من خلال دراسة تفسير المنار.

وربما يقول قائل إننا إذا عرفنا السنن الإلهية في نهضة الأمم، فإن ذلك يغنينا عن البحث في سنن السقوط، ذلك أن الشيء يعرف بضده، فإذا تحدثنا عن الاستقامة كسنة في النهضة فمن الطبيعي أن يكون الانحراف سنة في السقوط، وكذلك بالنسبة للصالح والعدل وبقية السنن، وأنه ربما يقع الباحث في التكرار ويعود في مباحث السقوط على ما ذكره في مباحث النهضة، وللحقيقة أقول إن مثل هذا التساؤل قد راودني في البداية، ولكن عند تعمقي في البحث وجدت أن الشيخ كان أكثر عمقاً وأبعد نظراً من أن يتوقف عند سنن النهوض ويكتفي بها من باب أن الشيء يعرف بضده، فقد وجدت الشيخ يذكر سنن النهوض في مواضع معينة وفق سياق الآيات وطبيعة البحث والتفسير، ويذكر سنن السقوط في مواضع أخرى وفق سياق الآيات وطبيعة البحث والتفسير، وذلك تأكيداً منه أنه كما يجب العناية بسنن النهضة والرقى، فلا بد أن لا تغفل عن سنن

السقوط والانحطاط، وعليه فقد قمت بالفصل بين السنن الإلهية في نهضة الأمم والسنن في سقوطها كما جاء ذلك في تفسير المنار من غير تكرار أو إعادة، قدر الإمكان.

#### أهمية الدراسة:

راودني كثيرا كما راود غيري السؤال عن أسباب واقع الضعف والتردي والتبعية الذي يعيشه المسلمون، وعن السبيل للخروج من هذا النفق المظلم والوصول إلى مستقبل مشرق مزهر، ولماذا لا يستجيب الله دعوة الداعين، واستغاثة المستغيثين، رغم كثرتهم وكونهم مسلمين؟ وهنا تكمن أهمية الدراسة وهي أنها:

1- تجيب على الأسئلة آنفة الذكر، وتبين لكل المسلمين من خاصة وعامة، ولكل الأجيال القادمة أن النهضة والعزة والانتصار لا يكون بغير اتباع السنن التي وضعها الله تعالى لها، ولا يكون تحقيقها إلا بها.

2- تنبيه الدارسين والباحثين في أسباب تردي الأمة وضعفها ونكوصها عن ركب الحضارة إلى أن القرآن الكريم قد وضع سننا وقواعد إلهية ربانية لا تتخلف عن أداء مفعولها في نهضة الأمم وسقوطها، وفي تهذيب المجتمع وصلاحه أو انحرافه وفساده، وأن تفسير المنار كان خير مبين لهذه السنن وخير شارح لها.

#### أهداف الدراسة:

- 1- فهم سنن النهوض والسقوط من خلال تفسير المنار.
- 2- استنهاض الهمم للأخذ بسنن النهوض بالأمة خاصة في هذا الزمن الصعب الذي تكالبت فيه أراذل الشعوب على بلاد المسلمين فسلبوهم مجدهم وعزتهم.
- 3- تجنب السنن والأسباب التي أسقطتنا في هذا الواقع الذي لا يسر صديقا.
- 4- البحث والدراسة في تفسير هو من خيرة التفاسير، حيث نبه الأمة إلى مكنم الداء والألم، واستخرج لها خير علاج وشفاء من خلال القرآن الكريم.

## مشكلة الدراسة:

تتمثل مشكلة الدراسة في الإجابة على السؤال الرئيس الآتي:

هل اهتم تفسير المنار بقضية السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها؟ ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

1- كيف بين تفسير المنار السنن الإلهية المتعلقة بالأمم والمجتمعات؟ وكيف ميز بينها وبين السنن الكونية المتعلقة بالكون والطبيعة والكائنات الحية؟

2- هل صرح الشيخ دائماً بالسنن الإلهية عند ذكرها أم كان يذكرها أحياناً بالأسباب الفاعلة في الأمم والمجتمعات أو بصيغة الأسس والقواعد والشروط لنهضة الأمم وسقوطها؟

3- هل توسع تفسير المنار في بيان السنن الإلهية وتعميمها على كل أركان بناء الأمم، ولم يخصصها في جانب أو ركن واحد.

4- هل كان تفسير المنار متميزاً في بيان السنن الإلهية؟ وما الأسباب التي دفعت صاحبه إلى هذه العناية البالغة بها؟

## حدود الدراسة:

استوعب تفسير المنار مجموع أفكار الشيخ محمد رشيد رضا، وغالب أفكار أستاذه الإمام محمد عبده وعلى الرغم من أن لهما مؤلفات أخرى كثيرة، إلا أن تفسير المنار هو المعبر عن المدرسة الإصلاحية الاجتماعية في التفسير التي بدأها الإمام ثم استلم زمامها الشيخ محمد رشيد رضا فعرف بها وعرفت به، وعليه فقد اقتصرت دراستي على هذا التفسير الذي حوى تفسير الإمام محمد عبده من الفاتحة وحتى الآية 126 من سورة النساء واستمر فيه الشيخ محمد رشيد رضا حتى الآية 52 من سورة يوسف.

## منهج الدراسة:

إن مادة الدراسة وموضوعها هي التي تفرض على الباحث منهج البحث، ولما كانت الدراسة في نصوص تفسير المنار كان من الطبيعي أن أعمل في هذه الأطروحة من خلال:

1- المنهج الاستقرائي لاستخراج ما هو متعلق بالسنن الإلهية، حيث قمت باستقراء ما جاء في التفسير من كلام عن السنن الإلهية وكل ما هو متعلق بها،

2- المنهج التحليلي، لتحليل النصوص المتعلقة بهذه السنن الإلهية، واستخراج المعاني ذات العلاقة، ثم ترتيب هذه السنن وفق الإطار الذي يناسبها بحسب خطة البحث، حيث قمت بتقسيم هذه السنن إلى جوانب عديدة في النهضة والسقوط.

## الدراسات السابقة:

علم السنن الإلهية يعد علماً حديثاً إذا ما قسناه بالعلوم القرآنية الأخرى، فربما كان منشوراً في الكتب والتفاسير القديمة من غير تأطير له كعلم واضح مستقل، وتعد مقدمة ابن خلدون من أهم ما كتب في هذا الباب حيث استخدم العلوم الاجتماعية والسياسية وغيرها في تفسير حركة التاريخ، ومن أهم ما يلامس ما يتم بحثه في هذه الأطروحة الفصل الذي وضعه تحت عنوان (الظلم مؤذن بخراب العمران)، وكانت كتابات مالك بن نبي في العصر الحديث من أهم ما وضع في السنن الإلهية وإن لم تحمل هذا المصطلح ولكنه تحدث عن واقع الأمة وأسباب انحطاطها وكيفية نهوضها وتحليتها في حضارة إنسانية كريمة، وكان كتابه شروط النهضة من أهم ما كتب في هذا الباب.

ومع أواخر القرن الماضي بدأت الكتابات في السنن الإلهية تظهر تدريجياً، منها ما يتحدث عن السنن بشكل عام ومنها ما هو متعلق بمفكر أو مفسر خاص كالشيخ محمد رشيد رضا، وسوف أعرض أهم ما اطلعت عليه من هذه الدراسات على النحو الآتي:

1. مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا نموذجاً، حازم زكريا، دار النوادر، الطبعة الأولى 1428هـ-2007م. وقد تعرض في هذا الكتاب إلى مفهوم السنن الإلهية عند العلماء السابقين ومفهومها عند محمد رشيد رضا، كما تعرض لسنن الله في شؤون الأفراد والأمم بشكل عام وذكر بعض القضايا العقدية كسنة الله في اختلاف البشر والهداية والضلال، وتعرض في مبحثين مقتضيين لسنن في قيام الله ونهوضها وسنن في سقوط الأمم، ولم يتوسع في ذلك ولم يكن له تفصيل وترتيب وتنسيق واضح لهذه السنن.

2. سنة الله في إهلاك الأمم وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال قراءة في تفسير المنار، الدكتور رمضان خميس زكي الغريب، الطبعة الأولى 1435هـ-2014م. وهذا الكتاب أيضاً عبارة عن بحث علمي ولكنه توسع في التعريفات وفي سنن إهلاك الأمم بشكل عام ولم يدخل في دراسة السنن عند صاحب المنار إلا في مبحثين مقتضيين آخر البحث حول أسباب هلاك الأمم وأسباب بقائها.

3. السنن الاجتماعية في تفسير المنار، خليفة خليفة، وهو عبارة عن دراسة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية من كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة 2014-2015م/1435-1436هـ. وقد ركز صاحب هذه الدراسة على مفهوم السنن الاجتماعية عند صاحب المنار، وكيفية تطبيق هذا المفهوم على الآيات القرآنية.

4. السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 1431هـ-1993م. وهذا الكتاب وإن كان من أول ما كتب بشكل موضوعي منهجي في السنن الإلهية، إلا أنه لم يتعرض لسنن النهوض والسقوط وسنة الله في البقاء والفناء للأمم بشكل واضح.

5. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الأولى 1417هـ-1996م. وهذا الكتاب في أصل عبارة عن دراسة قدمها الباحث لنيل شهادة الماجستير من كلية الآداب في جامعة عين شمس، وقد توسع في التعريفات وبيان مفهوم السنن ومعنى الحضارة، وخصص فصلين لسنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها تحدث في سنن القيام عن دور

العقيدة والسلوك وفي سنن السقوط تحدث عن الظلم والفساد الاجتماعي، وكان الحديث أكثر عمومية منه تحديداً وتفصيلاً، وهو في سنن القرآن عامة دون التخصص في تفسير معين.

6. السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها في ضوء نصوص الكتاب وفقه التاريخ، يونس ملال، وهو عبارة عن بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية كلية أصول الدين جامعة الجزائر السنة الدراسية 2000-2001، وهذه دراسة في سنن النهوض والنكوص من خلال القرآن وفقه التاريخ وهي غير متخصصة في تفسير معين، وليس فيها التفصيل والتوسع في ترتيب السنن وتحديدها.

7. من سنن الله في عباده وهو من آخر ما كتبه الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى 2011م. ومن عنوانه نفهم انه تعرض لبعض السنن التي اختارها، أخذ الله عباده بالرخاء والشدة ومثل من يعمل سوءاً يجز به، ولم يؤطر هذه السنن في إطار السقوط أو النهوض للأمم.

8. فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، عادل بن بوزيد عيساوي، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولى 2012م. وقد ركز فيه الباحث على أهمية فقه السنن الإلهية وفهمها وبين معناها وكيف تتطرق القرآن لها ولكنه لم يتحدث عن سنن النهوض والسقوط للأمم بشكل منهجي.

هذه الدراسات وما اطلعت عليه من غيرها من الدراسات وجدتها تتحدث عن السنن بشكل عام وكيف ورد الحديث عنها في القرآن الكريم أو السنة الشريفة، وما جاء فيها من حديث عن السنن الإلهية في النهضة والسقوط للأمم جاء إما مقتضب وإما عاماً دوناً تأطير ولم اجد فيها ما جمع الحديث عن السنن الإلهية بشكل دقيق مفصل في صعود الأمم وسقوطها ناهيك عن كون ذلك من خلال تفسير المنار الذي يعد الجامع الأوفى لهذه السنن في تفسير القرآن الكريم، ومعظم الدراسات التي تحدثت عن فكر الشيخ رشيد في السنن الإلهية كانت في العموميات وبعضها اقتصر على جانب الإهلاك والسقوط وأغفل جانب النهضة والصعود.

وما يميز هذه الدراسة فهو أنها ترسم طريقاً للنهضة واضح المعالم ومتعدد الجوانب وشامل النواحي، وتحذر من دواعي السقوط والانحطاط بشكل واسع التفصيل في العوامل المؤدية إلى ذلك من خلال تفسير المنار، وتحاول هذه الدراسة استقصاء كل ما في هذا التفسير بخصوص السنن الإلهية في العمران والاجتماع والأمم بطريقة لم يعرض لها أحد من قبل -حتى الذين تحدثوا وكتبوا في السنن بشكل عام- حيث قمت بنسبة كل سنة من السنن الإلهية في تفسير المنار إلى الإطار الذي يناسبها من أركان بناء الأمة، حيث وضعت السنن في خمسة أطر، فمنها ما هو في إطار السنن العقائدية ومنها ما هو في إطار السنن الأخلاقية ومنها ما هو متعلق بالمال والاقتصاد ومنها ما هو متعلق بالسياسة ونظام الحكم، ومنها ما هو متعلق بالقوة والجانب العسكري. وقمت بالفصل بين سنن النهضة وسنن السقوط، فكما ان هناك سنناً إلهية في النهوض تأتي تكريماً للمؤمنين المحسنين كذلك هناك سنن إلهية في السقوط تأتي عقاباً وتأديباً للكافرين والعاصين لأمر الله، وقد أخذت ذلك كله من تفسير المنار.

## الفصل الأول

### التعريف بتفسير المنار وصاحبه

المبحث الأول: التعريف بصاحب المنار محمد رشيد رضا وعلاقته بمحمد عبده

المطلب الأول: التعريف بصاحب المنار محمد رشيد رضا

ليس من السهل في مطلب كهذا أن أحيط بكل جوانب حياة الشيخ محمد رشيد رضا، وهو المصلح الكبير الذي ملأ سمع الدنيا وبصرها، وقد كُتبت عنه الكتب والمؤلفات والرسائل التي فاقت ما كتب عن شيخه وأستاذه الإمام محمد عبده، ومن أهم ما كتب عنه كتاب صاحبه ورفيق دربه شكيب أرسلان<sup>1</sup> (السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما)، وسأتحدث عنه هنا من خلال بيان أهم المحطات والنقاط البارزة في حياته وذلك على النحو الآتي:

أولاً: الاسم والنسب

هو السيد محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب<sup>2</sup>.

نزحت أسرته إلى لبنان من بغداد فهو بغدادي الأصل، ولقب السيد الذي اشتهر به، حمله لأن أسرته شريفة يرتفع نسبها إلي الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>3</sup>، فهو من أسرة كريمة اشتهرت علماً وصلاً ونسباً<sup>4</sup>، وكثيراً ما كان يعتز الشيخ بهذا النسب الشريف ويذكره في مناسبات مختلفة، فينقل عنه شكيب أرسلان قوله: "وأهل بيتنا ممتازون بأنهم أهل العلم والإرشاد والرياسة، يلقبون بالمشايخ للتميز، وجدي الثالث

<sup>1</sup> هو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، ادیب، كاتب، شاعر، مؤرخ، سياسي ولد في الشويفات بلبنان عام 1869م، من أكابر الكتاب، ينعت بأمير البيان. من أعضاء المجمع العلمي العربي تولى الكثير من المناصب والأعمال الحكومية، وقام بسياحات كثيرة في أوروبا وأميركا، وهو في حله وترحاله لا يدع فرصة إلا كتب بها مقالا أو بحثا، له مؤلفات كثيرة من أشهرها (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم)، توفي عام 1946م بعد حياة حافلة بالعباء والكفاح. الزركلي، الأعلام، 173/3. كحالة، معجم المؤلفين، 304/4

<sup>2</sup> الزركلي، الأعلام، 126/6

<sup>3</sup> عمارة، الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية، ص5

<sup>4</sup> عيَّاس، التفسير والمفسرون، 89/2

هو الذي بنى لهم المسجد المعروف الآن بجانب بيتنا القديم الذي ولدت فيه ... وقد أنعم عليه السلطان العثماني ببراءة<sup>1</sup> سلطانية حبس عليه فيها سبعة قراريط من أربعة وعشرين قيراطا من أموال الدولة الأميرية، وبراءات أخرى بالإمامة والخطابة في المسجد، وقد تسلسلت هذه البراءات من السلاطين في ذريته حتى آلت إليّ<sup>2</sup>.

لقد شكك البعض في انتساب الشيخ إلى الحسين بن علي رضي الله عنه، فقد نقل فهد الرومي تحقيقا للدكتور حسيب السامرائي ذكر فيه أنه لم يجد اسما لجد الشيخ القادم من العراق في كتب الأشراف وكتب الأنساب ما يثبت انتسابه إلى الحسين بن علي، ثم ذكر الرومي تعقبا على ذلك أن من أهداف هذا الانتساب هو الخطوة لدى العامة والحصانة عند الخاصة<sup>3</sup>، ولكن في المقابل كان شكيب أرسلان قد بحث وحقق نسب آل الرضا في القلمون وأكد صحة انتسابهم للأشراف في ملحق خاص لكتابه عن السيد رشيد رضا<sup>4</sup>، وكان حريا بالرومي أن لا يقتصر على ما ذكره السامرائي وإنما يعود إلى ما استقصاه مسبقا شكيب أرسلان، والقاعدة تقول الإثبات مقدم على النفي إلا إن صحب النفي دليل نفيه<sup>5</sup>، وأنى لعالم مثل الشيخ رشيد رضا أن يدعي ما ليس فيه أو يتظاهر بغير حقيقة أمره، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "الْمُتَشَبِّهُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبِي زُور"<sup>6</sup>. ورغم التشكيك فإن ذلك لا ينقص من مكانة الشيخ العلمية والاجتماعية، أما اجتماعياً فعامية من ترجموا له ذكروا انتسابه إلى الأشراف، وقد ذكر هو بنفسه هذا الانتساب في العديد من المناسبات، فيقول: "ولدت ونشأت في قرية تسمى القلمون.. وكان جميع أهل هذه القرية من السادة الأشراف متواتري النسب"<sup>7</sup>، وأما علمياً فأثاره وما كتبه وما كتب عنه يدل على طول باع الشيخ في ذلك.

<sup>1</sup> هي نوع من الفرمانات الصادرة عن السلطان، فعندما يتعلق الفرمان بتعيين عطية شهرية أو رتبة أو امتياز معين أو حق استخدام شيء يسمى براءة سلطانية.

<sup>2</sup> أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما، ص 133

<sup>3</sup> الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص 171-172.

<sup>4</sup> أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما، ص 809،

<sup>5</sup> ينظر تحقيق تامر محمد متولي في كتاب منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، ص 60،

<sup>6</sup> البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المتشبه بما لم ينل، وما ينهى من افتخار الضرة، ح 5219، 7/ 35

<sup>7</sup> رضا، المنار والأهر، ص 133

## ثانياً: المولد والنشأة

ولد الشيخ محمد رشيد رضا في 27 جمادي الأولى 1282هـ 28 تشرين الثاني 1865م في بلدة القلمون الساحلية من أعمال طرابلس في لبنان<sup>1</sup>.

نشأ الشيخ نشأة دينية في بيت علم وفضل، توارث فيه الأبناء عن الآباء المجد والسيادة والإمامة في الدين، حتى صاروا يعرفون باسم (المشايع) تمييزاً وتكريماً لهم عن بني بلدتهم، فكانوا المثل الأعلى في الانقطاع للعبادة وتكريم العلماء والترحيب بأولي الفضل، وقد آلت رئاسة هذا البيت في القلمون إلى الشيخ علي رضا والد محمد رشيد الذي تأثر بأبيه تأثراً عظيماً وورث عنه الكثير من الخصال الخلقية والعلمية<sup>2</sup>.

توجه الطفل محمد رشيد للدراسة تحت إشراف والده الذي عُنِيَ به عناية بالغة فعمل على تحفيظه القرآن وتعليمه مبادئ العلوم الأساسية<sup>3</sup>، ثم تعلم في المدرسة الرشيدية في طرابلس البلاغة والنحو، وبعض العلوم الطبيعية، واستمر في تعليمه هناك سنة واحدة، وبعد ذلك انتقل إلى مدرسة أعلى مستوى من سابقتها هي المدرسة الوطنية، ويقوم على إدارتها الشيخ حسين الجسر، وقد جمع فيها بين التعليم الشرعي والعلوم الدنيوية<sup>4</sup>، إلا أن هذه المدرسة قد ألغيت فالتحق بعض طلابها بمدارس بيروت والبعض الآخر ومنهم الشيخ محمد رشيد بالمدارس الدينية في طرابلس، وتابع الشيخ قراءته ومطالعاته الذاتية وكان أكثر ما أثر فيه كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، فقد كانت نشأة الشيخ في صغره نشأة صوفية والتزم الطريقة النقشبندية<sup>5</sup>، وقرأ كتب التصوف<sup>6</sup>، إلا أن كتاب الإحياء كان ملازماً له، وتأثر به كان واضحاً فأخذ منه الكثير النافع، وتخلّى عما فيه من قليل ضار<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> أبو حمدان، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، ص12

<sup>2</sup> العدوي، رشيد رضا الإمام المجاهد، ص19-21

<sup>3</sup> سكر، من أعلام الإسلام، ص108

<sup>4</sup> رضا، المنار والأزهر، ص139

<sup>5</sup> هي إحدى الطرق الصوفية وتنتهي إلى الشيخ العارف بالله خواجه بهاء الدين النقشبندي، من أعيان الصوفية في القرن الثامن الهجري، ولد سنة 728 وتوفي سنة 791هـ. طاشكيزي زادة، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص154. الباباني، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 173/2

<sup>6</sup> رضا، المنار والأزهر ص148

<sup>7</sup> رضا، المنار والأزهر ص140

لازم الشيخ رشيد رضا شيخه حسين الجسر وأخذ عنه الكثير من العلوم العربية والشرعية والعقلية، كما أخذ فقه الشافعية عن الشيخ محمود نشابه، وجالس العلماء أمثال الشيخ عبد الغني الرافعي، والشيخ محمد القاوقجي، والشيخ محمد الحسيني وأخذ عنهم الكثير<sup>1</sup>.

وكان للشيخ دور في تعليم الناس وإرشادهم، وقد أقبل على قراءة كتب ابن تيمية وابن القيم بعد أن كان عازفا عنها بسبب تربيته الصوفية في الصغر، وكانت له إضافة إلى الوعظ والإرشاد كتابات شرعية، ومشاركات أدبية حتى عرف في بلاد الشام بالعالم الجريء صاحب الفكر الحر والكتابات النافعة<sup>2</sup>.

### ثالثا: دوره في الإصلاح

لم يكن الشيخ مكتفيا بالعمل الفكري والإنتاج العلمي والميدان الصحافي، ولكن توجه الى ميادين عملية أخرى يبتغي من خلالها توسيع عمله في إصلاح ما آلت اليه الأمة من ضعف وتأخر، فقد رأى حاجة الأمة إلى دعاء أكفاء على قدر كبير من الوعي في مواجهة الإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي، فأنشأ مدرسة تخريج الدعاة عام 1912م فكانت تؤهل طلابها للدعوة والإرشاد للمسلمين ولغير المسلمين، وأنشأ الشيخ مطبعة المنار لتسهم في طباعة الكتب والمواد الإسلامية إضافة إلى مجلة المنار<sup>3</sup>.

ثم إن الشيخ قد ضاق ذرعا باستبداد العثمانيين، وقد اطلع على أفكار عبد الرحمن الكواكبي<sup>4</sup> الداعية إلى وقف الاستبداد، ونشر منهج الشورى والعدل في الأمة، وأسهم في نشر كتبه عبر مجلة المنار، وكان الإمام محمد عبده الذي تتلمذ الشيخ محمد رشيد على يديه كابجا لتلميذه عن خوض غمار السياسة، ولكن الشيخ محمد رشيد بعد وفاة أستاذه محمد عبده لم يجد بدأ من الانطلاق في ميدان السياسة ومحاولة الإصلاح من خلالها، يقول: "وبعد وفاة الأستاذ الإمام صرفنا وقت الفراغ والراحة الذي كنا نجالس فيه إلى مجالسة إخواننا

<sup>1</sup> رضا، المنار والأهر ص 141-143

<sup>2</sup> عباس، التفسير والمفسرون 93/2

<sup>3</sup> الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص 179

<sup>4</sup> هو عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي: رحالة، من الكتاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح الإسلامي. ولد 1849م في حلب ونشأ وتعلم فيها، وساح في بلاد العرب وشرقي إفريقيا وبعض بلاد الهند. واستقر في القاهرة إلى أن توفي عام 1902، من أشهر مؤلفاته (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) وكان لصدرهما دي هائل. الزركلي، الأعلام، 298/3

العثمانيين المقيمين في القاهرة، فزددنا علما بسوء الحال وخطر المال"<sup>1</sup>. فأنشأ مع من يخضعون لحكم الدولة العثمانية في مصر (جمعية الشورى العثمانية) وتولى رئاستها، وبدأت هذه الجمعية ترسل منشوراتها السرية إلى سائر أرجاء البلاد العثمانية<sup>2</sup>.

ثم شارك الشيخ في أحزاب وجمعيات أخرى حاول من خلالها دفع عجلة الإصلاح السياسي في الأمة، فشارك في حزب الاتحاد السوري الذي تأسس عام 1918م وكان نائبا لرئيسه، ثم في جمعية الشبان المسلمين والتي تأسست عام 1927م في مصر، وكان الشيخ عضواً نشيطاً فيها، والتي من خلالها تعرف على الشيخ حسن البنا، وحصلت بينهما مراسلات عدة تدور حول مسائل علمية، وتبحث في أحوال المسلمين<sup>3</sup>.

لمح الشيخ خطر الصهيونية وسعيها للاستيلاء على فلسطين فشارك في المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف عام 1921م، واختير ليكون نائبا لرئيس المؤتمر، وكتب سلسلة من المقالات عن ثورة فلسطين وبيان حال اليهود والإنجليز والعرب<sup>4</sup>.

ثم اتجه الشيخ نحو فكرة أخرى تقضي بأن يقوم هو نفسه برحلات إلى بعض البلدان العربية والإسلامية مطلعاً على أوضاعها، ومخاطباً أبناءها، ومطالباً بوحدة إسلامية تقف في وجه الخطر الداهم. فكانت له رحلات إلى العراق والحجاز والهند وأوروبا، وكان له لقاءات ومحاضرات ودعوات من أجل الإصلاح في العالم الإسلامي ثم عاد إلى مصر واستقر فيها<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> مجلة المنار 1/12

<sup>2</sup> العدوي، رشيد رضا الإمام المجاهد، ص223

<sup>3</sup> المطرفي، آراء محمد رشيد رضا العقائدية في أشراف الساعة الكبرى وأثارها الفكرية، ص78

<sup>4</sup> الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص180

<sup>5</sup> سكر، من أعلام الإسلام، ص110. أبو حمدان، رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، ص54

خامسا: وفاته

لم يضع الشيخ رشيد فرصة برغم مرضه لمقابلة زعماء العرب والتحدث معهم في الشؤون العربية وتزويدهم بنصائحه وارشاداته وكان يعتمد إلى إطالة البقاء معهم ما استطاع ليفرغ ما في جعبته الحافلة بالتجارب القيّمة، حتى وافته المنية بعد سفر شاق في مرافقة الأمير سعود بن عبد العزيز ولي العهد السعودي حينها<sup>1</sup>. يتحدث السيد عبد الرحمن عاصم<sup>2</sup> في كتاب نعي ابن عمه محمد رشيد الذي أرسله إلى الأمير شكيب أرسلان عن وفاة الشيخ المفاجئة أثناء عودته من توديع الأمير سعود في السويس في السيارة قبل وصوله إلى مصر الجديدة في منتصف الساعة الثانية بعد ظهر الخميس 22 أغسطس 1935م فيقول: "وقد أتعب ذهنه وجسمه. أتعب ذهنه باجتهاده بالنصائح والوصايا لولي العهد -شأنه مع كل من يتوسم فيه خيرا- وأتعب جسمه بركوب السيارة إلى السويس ذهابا وإيابا وطريقها ليست سهلة وسهر أكثر الليل يفكر ويراجع، وأبى رحمه الله ورضي عنه أن ينتظر في السويس إلى المساء يستريح، وقال لمن رجاه ذلك لا! سأستريح في بيتي! وقد حدث رفاقه في السيارة بأن السيد انصرف على قراءة القرآن الكريم وما زال يقرأ حتى أصابه دوار من ارتجاج السيارة كعادته -وتقياً- ثم عاد إلى القرآن يقرأه واتكأ على ظهره ولم يشعر رفاقه إلا وقد فاضت روحه الزكية الطاهرة إلى ربها راضية مرضية.. وحدثني من رآه في تلك الساعات الكثيرة التي مرت قبل دفنه أنه كان كالنائم المستريح في نومه العادي يعلو وجهه نور ووضاءة ولم يفارقه لونه الطبيعي ولا ابتسامته اللطيفة إلا قليلا ولم يصفر اصفرار الأموات.. ودفن في قرافة المجاورين في قبر جديد بجوار الأستاذ الإمام رحمهما الله تعالى"<sup>3</sup>.

لقد كانت مشيئة الله تعالى أن يموت الشيخ على الحالة التي تمناها ودعا الله لأجلها فاستجاب الله له إذ كان آخر ما فسره من القرآن الكريم قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ

<sup>1</sup> العدوي، رشيد رضا الامام المجاهد، ص 281

<sup>2</sup> هو السيد عبد الرحمن عاصم ابن عم السيد الإمام وزوج أخته وشريكه وتلميذه ورفيقه في أكثر حياته- بنظر هامش كتاب السيد رشيد رضا أو إزاء أربعين عاما ص 799

<sup>3</sup> أرسلان، السيد رشيد رضا، ص 799

تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

﴿يوسف: 101﴾، فمات وهو يقرأ القرآن على الحالة التي وصفها مرافقوه وارتقت روحه إلى بارئها راضية

مرضية<sup>1</sup>.

سادسا: مؤلفاته

لقد كان الشيخ صاحب فكر متوقد، وقلم سيال، وجلد منقطع النظير على الكتابة والتأليف، فيقول صديقه شكيب أرسلان: "ولم أكن أرى في عصرنا هذا أصبر على الكتابة وأجلد على الشغل وأسيل قلما وأسرع خاطرا من الشيخ رشيد فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط بنانه في حياته على خمسين كتابا لأصاب كلا منهم قسط يجدر بأن يجعله في صف المؤلفين العاملين"<sup>2</sup>.

لقد كانت مجلة المنار بمثابة المؤلف الأساسي للشيخ فكان إذا أراد ان يكتب في موضوع ما، كتبه ونشره على حلقات في مجلة المنار، ثم يتم جمعه في مؤلف خاص، بما في ذلك تفسير المنار الذي هو قمة أعمال الشيخ رحمه الله<sup>3</sup>. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا كتاب واحد كتبه الشيخ قبل تأسيس المنار وهو كتاب (الحكمة الشرعية).

وأكتفي هنا بذكر المؤلفات التي أحصاها الدكتور فضل عباس وقد بلغت ستة وعشرين مؤلفا للشيخ وهي على النحو الآتي:

1 - تفسير القرآن الكريم، الشهير (بتفسير المنار)، فسر فيه إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ

وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي

بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]، 2 - التفسير المختصر المفيد، وهو كالمتمن لتفسير المنار. 3 - مجلة

<sup>1</sup> العدوي، رشيد رضا الامام المجاهد، ص 283

<sup>2</sup> أرسلان، السيد رشيد رضا ص 162

<sup>3</sup> ينظر متولي، منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ص 93

- المنار. 4 - تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده. 5 - نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في الإسلام). 6 - الوحي المحمدي. 7 - المنار والأزهر. 8 - ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد. 9 - ذكرى المولد النبوي. 10 - مختصر ذكرى المولد النبوي. 11 - الوحدة الإسلامية. 12 - يسر الإسلام وأصول التشريع العام. 13 - الخلافة أو الإمامة العظمى. 14 - الوهابيون والحجاز. 15 - السنة والشيعنة أو الوهابية والرافضة. 16 - خطاب عام فيما يجب على المسلمين لببيت الله الحرام وحرمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - 17. - مناسك الحج وأحكامه وحكمه. 18 - المسلمون والقبط. 19 - تفسير الفاتحة والكوثر والكافرون والإخلاص والمعوذتين في مجموعة. 20 - رسالة في الصلب والفداء. 21 - شبهات النصارى وحجج الإسلام. 22 - محاورات المصلح والمقلد. 23 - خلاصة السيرة المحمدية وحقيقة الدعوة الإسلامية وكليات الدين وحكمه. 24 - الربا والمعاملات في الإسلام. 25 - المسلمون والقبط والمؤتمر المصري. 26 - إبطال حكومة الترك لشريعة الإسلام.<sup>1</sup>

### المطلب الثاني: علاقته بالإمام محمد عبده

أولاً: اتصاله بالإمام محمد عبده وانتقاله إلى مصر

كانت بداية تعرف الشيخ على الإمام محمد عبده من خلال مقالات الأخير في مجلة العروة الوثقى، حيث عثر على نسخ منها في مكتبة والده عندما كان يبحث فيها عن الجرائد المطوية، فأخذ يقرأها وتعل في نفسه فعلها فتهدم وتبني وتعد وتمني، فكانت أستاذه الثاني بعد إحياء علوم الدين كما عبر عن ذلك بنفسه<sup>2</sup>، وبدأ الشيخ يبحث عن بقية أعداد المجلة فوجد أغلبها عند أستاذه الشيخ حسين الجسر<sup>3</sup>، فيقول: "فكان كل عدد منها كسلك الكهرباء، يحدث في نفسي هزة من الانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال"<sup>4</sup>، ولقد فعلت الجريدة في نفسه فعل السحر فيقول: "فانتقلت بذلك إلى طريق جديد في

<sup>1</sup> عباس، التفسير والمفسرون، 92/2

<sup>2</sup> العدوي، رشيد رضا الإمام المجاهد ص70

<sup>3</sup> يشير الدكتور إبراهيم العدوي على احتمالية ان يكون والد الشيخ محمد رشيد وكذلك الشيخ حسين الجسر من أعضاء جمعية العروة الوثقى التي كانت تعمل سرا على نشر المجلة ودعمها ونشر أفكار الأفغاني وعبده. ينظر رشيد رضا الإمام المجاهد ص69

<sup>4</sup> الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية ص8

فهم الدين الإسلامي، وهو أنه ليس روحانياً أخروبياً فقط، بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل<sup>1</sup>.

منذ ذلك الحين تآقت نفسه لإقامة الصلة بينه وبين محمد عبده، وسنحت له الفرصة بلقائه في طرابلس عندما جاء لزيارة المدرسة الخاتونية، وأخرى عندما جاء بصحبة أحمد فتحي باشا زغلول، وقد عبر الشيخ محمد رشيد للإمام محمد عبده عن إعجابه بأفكاره الإصلاحية ورغبته بمصاحبته<sup>2</sup>.

عزم الشيخ على السفر إلى مصر خاصة بعد وفاة الأفغاني فكانت وجهته القاهرة ليلتحق بالإمام محمد عبده ليكون منه كما كان محمد عبده من الأفغاني، ولبث أفكاره الإصلاحية هناك لما يجد فيها من حرية الفكر ما لا يجده في الشام، فيقول: "وعزمت على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل، واللسان والقلم، ومن مناهل العلم العذبة الموارد، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة، وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأن أعمل معه وإرشاده في هذا الجو الحر"<sup>3</sup>، ووصل الشيخ القاهرة يوم السبت 23 رجب 1315 هـ 18 ديسمبر 1897م ليذهب في اليوم التالي إلى زيارة الإمام محمد عبده<sup>4</sup> فيقول: "وقد اتصلت بالأستاذ الإمام من أول يوم طلعت علي فيه شمس القاهرة"<sup>5</sup>.

كان اللقاء الأول بين الشيخ والأستاذ كريماً حاراً حيث طفق الإمام يسأل ضيفه عن أصدقائه في طرابلس ومنهم الشيخ حسين الجسر، ثم بين الشيخ محمد رشيد للإمام غرضه من الهجرة إلى مصر وهو تلقي الحكمة عنه لاعتقاده أن في الإمام بقية رجاء المسلمين بعد جمال الدين، واكتشف الإمام أن حب رشيد له ليس كحب عامة المحبين، وأنه لا يماثله إلا حب الإمام لجمال الدين، ولمس فيه النبوغ والطموح والرغبة الصادقة

<sup>1</sup> رضا، محمد رشيد، تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، ص 84

<sup>2</sup> الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية ص 10

<sup>3</sup> المنار والأزهر ص 191

<sup>4</sup> الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية ص 11

<sup>5</sup> المنار والأزهر ص 193

في الإصلاح وأدرك الإمام أن رشيد رضا يفهم كل المقاصد التي هدف إليها هو نفسه بجهاده في سبيل عزة الإسلام والمسلمين<sup>1</sup>.

ثانياً: عرضه على الإمام تفسير القرآن

كان أول ما عرضه الشيخ رشيد على أستاذه الإمام هو كتابة تفسير عصري للقرآن الكريم فيقول: "اتصلت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله إلى القاهرة فكان اتصالي به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الأخص بملزومه، وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا روحها ونورها في مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة"<sup>2</sup>.

لم يتحمس الإمام للفكرة، وكان جوابه أن الناس لا تحفل بالمكتوب وأن التفاسير المكتوبة كثيرة، وأن الكتب لا تقيد القلوب العمي، ولا ينتفع بها إلا من صدقت نواياهم وكانت قلوبهم يقظة تعلم حاجتها لهذه الكتب، فطالبه الشيخ أن يجعل تفسيره فيما يحتاجه الناس في زمانهم، وأن يتحاشى ما هو مكرر في التفاسير السابقة، وأن يعمل على بيان ما لم يتطرقوا لذكره، ولقد ألقى الشيخ على أستاذه الإمام إلحاحاً مفرداً أن يكتب تفسيراً عصرياً للقرآن الكريم، واستمر في إلحاحه إلى أن وافق الشيخ على أن يبدأ بتقديم تفسيره للقرآن الكريم على هيئة دروس في المسجد الأزهر، وقد بدأ بذلك فعلاً في غرة المحرم 1317هـ من أول القرآن، ودام على ذلك ستة سنين حتى منتصف محرم سنة 1323هـ حيث وصل إلى قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: 126]، فكان تفسيره ما يقارب ستة أجزاء في ستة أعوام، حيث جاءه الأجل وفجأه الموت

والتحق بربه في الثامن من جمادى الأولى<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> رشيد رضا الإمام المجاهد ص 127

<sup>2</sup> رضا، تاريخ الأستاذ الإمام ص 765

<sup>3</sup> رضا، تاريخ الأستاذ الإمام ص 766-768

## المبحث الثاني: التعريف بتفسير المنار وبيان خصائصه

يعد تفسير المنار بداية لمرحلة جديدة في تفسير القرآن الكريم، فتحت الباب للخروج من دائرة التفسير التقليدي القديم المقتصر على ما ينقله اللاحق عن السابق سواء في اللغة أو الآثار أو الفقه وحتى العلوم الكونية. فجاء تفسير المنار ليفتح باب الاجتهاد لمن بعده لاكتشاف كنوز القرآن الكريم في شتى المجالات وعلى الأخص في كشف الحلول الاجتماعية للإصلاح وبناء مجتمع فاضل وأمة قوية مزدهرة، وفي هذا المبحث سأحدث عن تفسير المنار في ثلاث نقاط، وهي فكرة إصدار التفسير، ثم صدور التفسير على ما هو عليه اليوم، ثم أهم خصائص التفسير ومميزاته.

### المطلب الأول: فكرة إصدار التفسير

لقد أيقن الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- أن لا صلاح لهذه الأمة إلا بفهم القرآن، وهذا لا يتأتى إلا بتفسير يلائم أوضاع العصر، وظروف الحياة، فقد كانت تسيطر عليه النزعة الإصلاحية، ولقد نمت تلك النزعة حينما اطلع في بلده على بعض أعداد من مجلة العروة الوثقى، التي كان يقرأ فيها تفسيراً لآيات من الكتاب العزيز، تتجلى فيها هداية القرآن، بما لم يره في تفسير من قبل<sup>1</sup>.

لقد بين الشيخ محمد رشيد ما جاءت مجلة العروة الوثقى من أجله، في أمور ثلاثة، وذلك على النحو الآتي<sup>2</sup>:

1. إظهار سننه تعالى في خلقه وفي حياة الأمم نهضة وسقوطاً، وتبيين أسباب القوة والضعف، والرقى

والانحطاط.

2. إظهار دين الإسلام على أنه ليس مجرد عبادات وطقوس فحسب، وإنما هو دين ودنيا ونظام حياة قد

حوى في داخله خيرى الدنيا والآخرة.

<sup>1</sup> انظر عباس، التفسير والمفسرون 97 / 2

<sup>2</sup> تفسير المنار 11/1

3. بيان أخوة الإسلام، وأن أتباعه لا تفرقهم اللغات ولا الحكومات ولا الأنساب، وأن جنسيتهم وربطتهم واحدة، وهي الإسلام الذي يجب أن يجتمعوا ويلتقوا حوله.

فراودته الفكرة في وضع تفسير جديد يلائم روح العصر، فقد علم أن صلاح الأمة يكون بفهم القرآن الكريم فهما يوافق فهم السلف الأول وانطلاقهم من خلاله لبناء أمة عزيزة قوية شاهدة على الأمم كما أرادها الله تعالى.

يعدّ الشيخ محمد رشيد رضا هو مؤلف وصاحب تفسير المنار، ولكن بداية فكرة التفسير كانت من خلال تجميع الدروس التي ألقاها الإمام محمد عبده في الجامع الأزهر ثم نشرها، وقد ذكرت ذلك أنفا عند الحديث عن بداية اتصال الشيخ بالإمام حيث ألحّ عليه أن يفسر القرآن إلا أنه اكتفى بإلقاء دروس في التفسير في الجامع الأزهر.

ولكن إذا كان الإمام قد اكتفى بدروس التفسير فإن الشيخ رشيد قد تلقف تلك الدروس بقلبه وبنانه، فكان يدون أهم ما يسمع، وكان يكتب في مذكرات خاصة خلال إلقاء الدرس أهم ما يراه من أقوال الإمام، وكان يحفظ ذلك من أجل تبييضه في أوقات فراغه مع إضافة ما يتذكره<sup>1</sup>.

ثم نَقَّح الشيخ تلك الدروس وأعاد صياغتها ونشرها في مجلة المنار بعد مصادقة الإمام عليها، وكان يضيف عليها من عنده ما يقتضيه الحال مع الإشارة إلى ما هو من عنده فعندما يشرع بكلام له يقول (أقول)<sup>2</sup>، فقد أفرغ الشيخ رشيد دروس الإمام في تفسير المنار، ولكنه لم يقتصر عليها، بل زاد وأضاف وحقق حسب ما يقتضيه البحث والمقام.

<sup>1</sup> تاريخ الأستاذ الإمام ص768

<sup>2</sup> تاريخ الأستاذ الإمام ص768

## المطلب الثاني: صدور التفسير

بعد وفاة الإمام شعر الشيخ رشيد رضا بثقل المسؤولية في إتمام التفسير الذي بدأ إصداره في حياة الإمام كي يخرج للناس بأبهى صورة ، وكان عليه وحده تبعة تأليف تفسير مستقل يودعه ما تلقاه من أستاذه مشرق البصيرة العالم الكبير، ثم إنه فيما أكمله من تفسير المنار لم يلتزم ذات المنهج الذي انتهجه الإمام محمد عبده، بل كان له نهج آخر، فتحدث بنفسه عن ذلك في مقدمة تفسيره فبين أنه عندما استقل بالعمل بعد وفاة الإمام لم يستمر على منهجه، وخالفه بأن توسع في إيراد الأحاديث الصحيحة المتعلقة بتفسير الآيات، وتوسع في التحقيقات اللغوية، وفي تحقيق مسائل الخلاف بين العلماء، وأكثر من الشواهد القرآنية من مختلف السور، وكانت له استطرادات مهمة في كثير من المواضع، وبين الشيخ السبب في هذه الاستطرادات، وهو كما قال: "تحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعاها حلها بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس"<sup>1</sup>.

ولا شك أن القارئ لتفسير المنار يلحظ الفارق بين تفسير الإمام وتفسير الشيخ رشيد، يقول الدكتور محمد رجب بيومي: "وبمقارنة ما وصل إلينا من تفسير الأستاذ الإمام بما كتبه من بعده الأستاذ محمد رشيد، نجد أن صاحب المنار قد وفق أكثر من أستاذه، لأن الشيخ محمد عبده كان ذا عقل مستتير وذهن مفكر، وروح شفاف، ولكنه مع ذلك لم يتبحر تبخر السيد رشيد في دراسة الحديث النبوي وكتب الفقه والتشريع، فجاؤ تفسيره مرآة لعقله اللامع وذوقه البصير وأسلوبه الرائع، وجاء تفسير رشيد بحرا خضما يموج بمختلف الحقائق الإسلامية، ويستند إلى شتى النصوص الدينية"<sup>2</sup>.

يقول الدكتور فهد الرومي: "صدر هذا التفسير في اثني عشر مجلداً متوسطة الحجم، وقد وصل فيه التفسير إلى نهاية الآية 52 من سورة يوسف، وكان السيد رشيد رضا قد تُوفي عند تفسير الآية 101 من السورة

<sup>1</sup> تفسير المنار 16/1.

<sup>2</sup> بيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين 248/1

نفسها، وجاء من بعده الأستاذ محمد بهجت البيطار، فضم تفسير السورة بعضه إلى بعض وأكمل تفسيرها، وأصدر ذلك كله في كتيب واحد باسم السيد محمد رشيد رضا وعنوانه: "تفسير سورة يوسف عليه السلام"، وصدرت طبعته الأولى سنة 1355هـ، وتبلغ صفحاته 157 صفحة<sup>1</sup>، والذي يبدو من هذا الكلام أن ما تم طبعه وإصداره من تفسير المنار كان حتى الآية 52 من سورة يوسف، وهذا ما يبدو واضحا من تفسير المنار، وكان الشيخ قد أكمل التفسير بخط يده حتى الآية 101 من السورة، ولم يتيسر إلحاقها بالتفسير المطبوع، وجاء الشيخ البيطار وضمها إلى ما ورد في المنار من تفسير سورة يوسف وأصدرها في كتاب خاص في تفسير السورة.

### المطلب الثالث: خصائص وميزات تفسير المنار

بين الشيخ في مقدمة تفسيره مراده من تفسير القرآن الكريم، فهو لا يريد إضافة تفسير إلى التفاسير التي تملأ المكتبات الإسلامية، وإنما يريد تفسيراً بروح هداية القرآن وإرشاده إلى سعادة الدارين، فيقول: "والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له وأداة أو وسيلة لتحصيله"<sup>2</sup>.

ولقد امتاز تفسير المنار بتوسعه في القضايا التي يجب أن يحررها المفسر ليصل إلى ما فيه الهداية والصلاح للناس، ولتحقيق المرتبة العليا في التفسير وهي لا تتم إلا بأمر خمسة حددها الشيخ وهي: 1- فهم حقائق الألفاظ التي أُودِعَها القرآن الكريم 2- فهم أساليب اللغة وفنونها 3- علم أحوال البشر وهنا يفصل الشيخ بانه من الضروري للمفسر أن يكون على فهم ودراية بالسنن الإلهية في الأمم والمجتمعات واطلاع على فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه. 4- العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن. 5- العلم بسيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة رضوان الله عليهم<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، 807/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 17/1

<sup>3</sup> تفسير المنار 19/1

فهذه الأمور الخمسة عدها الشيخ شروطاً للمفسر الذي ينبغي من تفسيره تحقيق الهداية للناس والصلاح للأمة، وبين أن التفسير الذي يبغيه، هو الذي يحتاجه الناس في زمانهم، وهو بمثابة فرض كفاية عليهم لتحقيق الخير لهم، وأن لا يتوقف المفسر عند ظاهر النص، ولكن يذهب إلى المراد من الكلام، وأن يبين الحكم من التشريعات والعقائد والأحكام بما يجذب إليه النفوس ويدفعها إلى تطبيق ما أودعه الله في كلامه، وبذلك يتحقق وصف الله تعالى للقرآن بأنه هدى ورحمة وغير ذلك من الصفات، وليتبين أن المقصد الرئيس من التفسير هو تحقيق هداية القرآن<sup>1</sup>.

ولقد حدد الدكتور فضل عباس خصائص تفسير المنار في تسعة خصائص دلل عليها بأمثلة عديدة من خلال التفسير وأكتفي هنا بذكرها وهي: 1- العناية بالتحقيقات اللغوية. 2- بيانه لحكمة التشريع. 3- استشاده بأراء المتكلمين في آيات العقيدة ومناقشتهم. 4- ابتعاده عن الخرافات والإسرائيليات. 5- استقلال الشخصية. 6- بيانه لسنن الله في العمران والاجتماع. 7 - دفاعه عن الإسلام. 8 - عنفه على مخالفيه في الرأي. 9 - كثرة التفريعات والاستطرادات.<sup>2</sup>

وتحدث الدكتور فضل عن طريقة الشيخ رشيد في تفسيره المنار، فقال: "ليس في طريقة الشيخ ما يلفت الانتباه، فهو مثل كثير من المفسرين، بعد أن يذكر عن السورة ما يخصها من بعض الوجوه، كمكيثها أو مدينتها، وعدد آياتها ومناسبتها لما قبلها، يأخذ الآية أو الآيات ويفسرها على حدة، وهكذا إلى نهاية السورة. ولكن الجديد في طريقة الشيخ، أنه يأتي بخلاصة للسورة في آخرها، عدا سورة البقرة فقد أوردتها في أولها، وهذه الخلاصة ربما تنتظم أبواباً وفصولاً"<sup>3</sup>.

وهكذا جاء تفسير المنار موسوعة ثقافية حوت زبدة القديم وأضافت إليه كل جديد ومفيد لحياة عصرية صالحة، فيقول الشيخ الغزالي رحمه الله: "أتردد على تفسير المنار بين الحين والحين لأتعلم منه ما لم أكن

<sup>1</sup> تفسير المنار 22/1

<sup>2</sup> عباس، التفسير والمفسرون 101/2

<sup>3</sup> عباس، التفسير والمفسرون، 100/2

أعلم، وهو في نظري موسوعة ثقافية مؤارة بالأبحاث التي تشمل الدين كله... فقد استوعب مذاهب المفسرين من تفسير... إلى ما جد في العالم الإسلامي بعد احتكاكه بالمجتمعات الحديثة<sup>1</sup>.

ويقول الشيخ مناع القطان: "وهو تفسير غني بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة التابعين، وبأساليب اللغة العربية، وبسُنن الله الاجتماعية، يشرح الآيات بأسلوب رائع، ويكشف عن المعاني بعبارة سهلة، ويوضح كثيراً من المشكلات، ويرد على ما أثير حول الإسلام من شبهات خصومه، ويعالج أمراض المجتمع بهُدي القرآن"<sup>2</sup>

ويتحدث الإمام البشير الإبراهيمي عن تفسير المنار وعن الشيخ محمد عبده فيصفه بأنه إمام المفسرين بلا منازع، وأنه أبلغ من تكلم في التفسير بياناً لهديه وفهما لأسراره وتوفيقاً بين آيات الله في القرآن وآياته في الأكوان، فيوجود هذا الإمام تم علم التفسير، ثم ذكر الشيخ محمد رشيد رضا الذي خلف الإمام محمد عبده وكان ترجمان أفكاره ومستودع أسراره وقد مات قبل ان يتم التفسير، ثم يذكر مجلساً جمعه مع الشيخ عبد الحميد بن باديس<sup>3</sup> رحمه الله بعد وفاة الشيخ محمد رشيد رضا بأسبوع، وقد ذكرا تفسير المنار وأسفهم لانقطاعه بوفاة الشيخ وقد اقترح البشير الإبراهيمي على الشيخ عبد الحميد إكمال تفسير المنار يقول: "قللت له: ليس لإكماله إلا أنت، فقال لي ليس لإكماله إلا أنت، فقللت له: حتى يكون لي علم رشيد وسعة رشيد ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 86-90.

<sup>2</sup> القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 384.

<sup>3</sup> عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس. رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ولد عام 1887م في قسنطينة، وأتم دراسته في جامع الزيتونة بتونس، وصادر

مجلة الشهاب، واشتغل بالسياسة وصارع الاستعمار الفرنسي، واضطهد وأوذى، وتوفي بقسنطينة عام 1940م له تفسير القرآن الكريم، الأعلام للزركلي 105/5

<sup>4</sup> الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 2 ص 252

## الفصل الثاني

### عناية تفسير المنار بالسنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها

#### المبحث الأول: التعريف بالسنن الإلهية

تصدى كثير من العلماء والمفسرين لتعريف وبيان المراد بالسنن الإلهية، ولتحديد مدلول هذا المصطلح، سوف أذكر هنا بعضاً من هذه التعريفات والأقوال في معنى السنن الإلهية، وأبدأ من كلام الشيخ رشيد رضا في بيان معنى السنن الإلهية حيث يقول في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيَسِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]: "أي إن أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك قد جرى على طرق قديمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام وليس الأمر أنفاً كما يزعم القدرية، ولا تحكما واستبدادا كما يتوهم الحشوية<sup>1</sup>،<sup>2</sup> والمعنى من ذلك أن أمور الاجتماع والعمران لا تأتي بشكل عفوي ولا بشكل جبري، وإنما يجري ذلك كله وفق سنن وقواعد وضعها الله تعالى.

وقد استمد الشيخ هذا المعنى من استاذه الإمام محمد عبده الذي كان له تعريف وبيان للسنن الإلهية، وقد عبر عنها بمصطلحات مترادفة، حيث لا مشاحة في الإصلاح، فهي طرائق أو قوانين أو شرائع أو نواميس أو نظام للأمم والاجتماع البشري فقال: "والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين، ما لنا ولاختلاف العبارات والذي ينادي به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل"<sup>3</sup> ثم دعا الإمام من

<sup>1</sup> يطلق مصطلح الحشوية على طائفة من الحنابلة وجماعة من الشيعة، تمسكوا بحرفية النصوص، وحملوها على ظاهرها حملاً انتهى بهم إلى القول بالتشبيه والتجسيم؛ الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة، ج 1 ص 147، وقال الشهرستاني: "إن جماعة من الشيعة الغالبة وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه.. قالوا: إن معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاد إما روحانية أو جسمية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن " الشهرستاني، الملل والنحل، 105/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 115/4

<sup>3</sup> محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص 56، ومجلة المنار، 441/5

يطلبون الرقي والسعادة للمجتمع البشري أن يلتزموا سنن الله في ذلك وأن يردوا إليها أعمالهم وبنوا عليها سيرتهم، وبين أن من يغفل عن هذا النظام وهذه السنن ليس له إلا الشقاء وإن كان ينتسب إلى الصالحين والعباد، إلى أن قال: "فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه"<sup>1</sup>.

وقد تعرض سيد قطب إلى بيان السنن الإلهية وكان يطلق عليها السنن الكونية فقال: "إن لهذا الوجود الذي نعيش فيه، والذي نحن قطعة منه سننا أصيلة يقوم عليها، هذه السنن هي القوانين التي أودعها الله هذا الكون ليسير على وفقها، ويتحرك بموجبها ويعمل بمقتضاها"<sup>2</sup> وقال في موضع آخر عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137] "وهي هي التي تحكم الحياة، وهي هي التي قررتها المشيئة الطليقة، فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله -بمشيئة الله- في زمانكم، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم"<sup>3</sup> وبين في موضع آخر أن نهضة الأمة ونصرها إنما يكون وفق السنن التي وضعها الله تعالى فيقول: "لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه، حملة رايته، وأصحاب عقيدته، ولكنه علق النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيم سلوكهم، وباستكمال العدة التي طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم، فهذه سنة الله، وسنة الله لا تحابي أحدا.. فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير، فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس وإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن، ويصطلحون بفطرتهم مع الناموس"<sup>4</sup>

أما الدكتور عبد الكريم زيدان الذي يعد من أوائل الذين كتبوا في السنن الإلهية بشكل منهجي متخصص، فوضع كتابه (السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية) فيقول: "سنة الله هي

<sup>1</sup> المرجع السابق ص56

<sup>2</sup> سيد قطب في ظلال القرآن، 277/1

<sup>3</sup> المرجع السابق، 479/1

<sup>4</sup> المرجع السابق، 513 / 1

الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر، بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة<sup>1</sup>.

والأستاذ محمد قطب يبين أن السنن الإلهية هي نظام وقانون يجري على الجميع من غير محاباة، فمن التزمها وعمل بها ساد، ومن تجاهلها وأهملها باد<sup>2</sup>.

ولا يبتعد الدكتور محمد هيشور عن هذا المعنى، إلا أنه يوسع دائرة هذه السنن لتكون شاملة لكل ما يجري في هذا الكون بكل كائناته، فإن لكل شيء سننا إلهية يسير بحسبها<sup>3</sup>.

وهذه التعريفات العديدة في مفهوم السنن الإلهية تدل على أهمية هذا المصطلح وعناية الدارسين والباحثين به، وإن الاختلاف بينهم هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وإنها جميعا تكمل بعضها وتصب في توضيح المفهوم وبيان دلالاته وميزاته وخصائصه، فتعطينا صورة مكتملة عن السنن الإلهية ومفهومها في القرآن الكريم.

ويمكن القول من خلال ما تقدم: إن أهم ما يميز السنن الإلهية:

أولاً: الثبات. فهي قواعد ثابتة لا تتغير ولا تتحول ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:

43]، فهي أشبه ما تكون بالقوانين الفيزيائية والمعادلات الرياضية، فمن يفعل كذا يكون جزاؤه كذا، فهي تنتظم حركة التاريخ ونواميسه بشكل دقيق.

ثانياً: العموم. فهي قواعد وقوانين تسري على الجميع من غير أن تحابي أحداً أو تجامل أحداً: ﴿لَيْسَ

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

<sup>1</sup> زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص13

<sup>2</sup> محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح ص10

<sup>3</sup> هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص28

نَصِيرًا ﴿١٣٣﴾ [النساء: 123]، ولا تتخلف عن دورها مع أحد، فكل من أخذ بهذه السنن طائعا كان أو عاصيا نال جزاء ما عمل سواء أكانت سنن هبوط أم سنن صعود.

ومن أجمل ما قاله الشيخ محمد الغزالي في هذا المقام معبرا عن عدم محاباة السنن الإلهية لأحد، فكل من لا يحسن الخلافة على الأرض إصلاحا وإعمارا فلا بد أن ينحيمهم الله عن قيادة الحياة، ولا ينتظرون الخوارق والمعجزات حتى يحفظ الله عليهم مجدهم، فيقول: "ولكن الله لم يرفع جبال (البرانس) فوق عرب الأندلس حتى يدعوا مجونهم وفجورهم، فإنه ترك بين المسلمين قرآنا يقول: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرِبْهُ﴾ [النساء: 123]، فلا جرم أن يطردوا من ديار لم يحسنوا الخلافة عن الله ورسوله فيها!"<sup>1</sup>.

ثالثا: الاطراد. فهي سنن مطردة تتكرر كلما وجدت الظروف المشابهة والمناسبة مكانا وزمانا وأشخاصا، ﴿قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

وقد أجمل الشيخ محمد رشيد -رحمه الله تعالى- هذه الخصائص الثلاث المميزة للسنن الإلهية عند حديثه عن سنة الله في جعل العقاب للمتقين، كونها الأساس الأعظم لسنن الاجتماع، وهو يدعو الأمة إلى تحري ما يصلحها بهدي الكتاب والسنة ثم قال: "وكون هذه السنن مطردة في جميع الشؤون العامة من منزلية ومدنية ومالية وحربية وسياسية، لا تبديل لها ولا تحويل، ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل"<sup>2</sup>.

وما أجمل أن أختم هذا المبحث بكلام للمفكر الكبير مالك بن نبي دعا فيه إلى اتساع الفكر في فهم الأحداث الإنسانية وتجارب الأمم، وإلى فهم العوامل والسنن في بناء وهدم الحضارات، فيقول: "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث

<sup>1</sup> الغزالي محمد حصاد الغرور ص 201

<sup>2</sup> تفسير لمنار 201/12

الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها... وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلية، إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن<sup>1</sup>.

## المبحث الثاني: تأثير حال الأمة على عناية تفسير المنار بالسنن الإلهية

مما لا شك فيه أن الأفكار هي نتاج للواقع الذي تنمو فيه، وللبيئة التي تحيط بها، وإن المفكر لا يعيش بمعزل عن الظروف والأحداث التي يمر بها، وغالبا ما تكون المواقف التي يتبناها المفكر، والتفسير الذي يقدمه للقضايا التي يعايشها، والمسائل التي يواجهها نابعة من تأملاته في الواقع الذي يحياه، ورضاه عنه أو رفضه له.

ثم إن مادة التفكير التي يغذي بها المفكر عقله لها أثر كبير على نتاجه الفكري، فشتان بين من يغذي عقله بالأشياء المادية حول قدميه، وبين من يرفع بصره نحو السماء، يقول مالك بن نبي متحدثا عن طريقة الإنسان في ملء فراغ أفكاره وعقله في كتابه (مشكلة الأفكار): "هناك أساسا طريقتان لملء الفراغ، فإما أن ينظر الإنسان حول قدميه، أي نحو الأرض. وإما أن يرفع بصره نحو السماء. فالطريقة الأولى تملأ وحدته بالأشياء، حيث يجمع بصره المتسلط لامتلاكها. والطريقة الثانية تملأ وحدته بالأفكار ويبحث عن الحقيقة بنظرة المتسائل. هكذا ينشأ عبر الطريقتين نموذجان من الثقافة: ثقافة سيطرة، ذات جذوة تقنية. وثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية"<sup>2</sup>.

يقول الباحث محمد عبد النور في تعليقه على كتاب مالك بن نبي (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي): "لا تصدر الأفكار من فراغ ولا تحصل في فراغ، فهي صادرة عن المحيط الاجتماعي الذي يعيشه الإنسان الفرد

<sup>1</sup> مالك بن نبي، شروط النهضة، ص19

<sup>2</sup> ابن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص17

داخل الجماعة، والجماعة داخل محيطها البشري المكوّن من الجماعات الأخرى المجاورة أو البعيدة، كما أن الأفكار لا تحصل دون تفاعل داخل البناء العصبي الذهني والشعوري للفرد، ومن ثم فهي العنصر الضروري والحيوي الذي يحيا البشر داخله، أو هو بمثابة بلازما تشكل الإطار الحيوي للحياة العقلية والروحية لإنسانها<sup>1</sup>.

وعندما تحدث الشيخ محمد أبو زهرة عن اختلاف المسلمين في مناهجهم الفكرية أشار إلى أثر البيئة والواقع الذي تقع عليه أنظار الناس ويثير إعجابهم، فيقول: "لا بد أن نقول إن الصور والأخيلة التي تثيرها تلك النظرات تختلف في الناس باختلاف ما تقع عليه أنظارهم وما يثير إعجابهم"<sup>2</sup>.

وعليه فإننا عندما ندرس السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها التي رصّع بها الشيخ رشيد رضا تفسير المنار، فإنه لا بد أن ندرس الواقع الاجتماعي والظروف التي دفعت الشيخ إلى التنبيه لهذه السنن وتجلياتها وبيانها وتبنيها في تفسيره.

وسأتحدث عن الواقع الذي عاشه المجتمع الإسلامي في عصر الشيخ محمد رشيد رضا في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: الحالة السياسية

وأحدث في هذا المطلب عن الحالة السياسية في البلاد التي عاش فيها الشيخ محمد رشيد وذلك على النحو الآتي:

#### الخلافة العثمانية

عاش الشيخ محمد رشيد رضا في فترة أوشكت فيها شمس الإمبراطورية العثمانية على الغروب، فقد بدأ تأسيس الدولة العثمانية سنة 699هـ على يد السلطان عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه من قبائل الترك التي استوطنت الأناضول وقامت على أنقاض الدولة السلجوقية ثم بدأت بالتوسع حتى أصبحت من أعظم

<sup>1</sup> موقع الجزيرة نت، مقال بعنوان: "مشكلة الأفكار" ماذا تعرف عن آخر إنتاجات مالك بن نبي؟ عبد النور محمد،

<sup>2</sup> أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص7

الإمبراطوريات على مر التاريخ<sup>1</sup>. وعاش الشيخ في فترة كثرت فيها الاضطرابات الداخلية والتخبطات السياسية وعبث الأيدي الأجنبية، فقد ولد زمن ولاية السلطان عبد العزيز (1861-1876) وعندما تجاوز العاشرة بقليل عُزل السلطان عبد العزيز بدعوى عدم أهليته<sup>2</sup> ثم دارت الشائعات في موته بعد عزله، فقيل إنه قتل، وقيل إنه قتل نفسه بنفسه<sup>3</sup> ثم تولى السلطنة مراد الخامس 1876م ولم تستمر ولايته إلا بضعة شهور حتى عزل أيضا بدعوى إضرابات نفسية وأمراض عصبية<sup>4</sup>.

عين بعده السلطان عبد الحميد الثاني وتقلد السيف المنيف في جامع أبي أيوب الأنصاري على ما جرت به العادة، وبعد ذلك استلم إدارة الأعمال بهمة ونشاط، وأظهر للوزراء رغبته في إصلاح الأمور، وكانت بداية أعماله إصلاحات دستورية أحكم من خلالها قبضة الحكم في يده واستطاع أن يحكم الإمبراطورية بطريقة مركزية لفترة امتدت 33 عاما، ذلك أنه أتى إلى الحكم في فترة مضطربة من تاريخ الدولة العثمانية<sup>5</sup>.

وقد جاء السلطان عبد الحميد في وقت كان فيه الصراع قد اشتد بين المحافظين والإصلاحيين الذين يريدون اللحاق بركب الغرب والأخذ بمناهجه وأساليبه في الحكم والإدارة، وكان السلطان أقرب إلى المحافظين فسارع إلى عزل الصدر الأعظم مدحت باشا كونه يدعو إلى الإصلاح على الطريقة الأوروبية، وقد لاقى هذا العزل ترحيبا من المحافظين<sup>6</sup> وقد استطاع السلطان النأي بالدولة عن الحروب والصراعات مع الدول المجاورة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الإمبراطورية التي أصابها الترهل ولقبت بالرجل المريض الذي ينتظر الغرب وفاته وتقاسم تركته، فلم يستطع السلطان عبد الحميد إشفاء المريض وإعادةه إلى سابق عنفوانه، ولكنه استطاع تأخير استئصال المرض ووفاة المريض فترة من الزمن<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص10. كُرد علي، خطط الشام، ج2 ص205، حلاق حسان، تاريخ الشعوب الإسلامية الحديث والمعاصر، ص19

<sup>2</sup> محمد فريد (بك)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 575

<sup>3</sup> المصدر السابق ص580

<sup>4</sup> المصدر السابق ص584

<sup>5</sup> أورخان، السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، ط 4، ص63

<sup>6</sup> الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص 178-179

<sup>7</sup> أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص126-127

مع بداية القرن العشرين بدأت تتصاعد الدعوات القومية التركية، وأقيمت الجمعيات المناهية بالحرية والعمل الدستوري، والمتزمنة من حكم السلطان عبد الحميد، وعلى رأس هذه الجمعيات كانت جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على مفاصل الدولة<sup>1</sup>.

بعد خلع السلطان عبد الحميد أصبح كل شيء في الخلافة بيد الاتحاديين، أما الخليفة فكان صورة، غير أن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب على الخلافة سوى ثلاثة خلفاء وهم: محمد رشاد الخامس، ثم وحيد الدين، ثم عبد المجيد أفندي وكانت الدولة قد اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، فهزمت وتجزأت الدولة، وغادر البلاد رجال الاتحاد البارزون، وجاء إلى الحكم مصطفى كمال فألغى الخلافة، وانقسمت بلاد المسلمين وظهرت النعرات القومية وتصارع بعضها مع بعض حتى وهن أمر المسلمين<sup>2</sup>.

#### بلاد الشام

بلاد الشام هي مسقط رأس الشيخ محمد رشيد حيث نشأ وترعرع وتعلم فيها، وقد كانت تخضع لحكم الخلافة العثمانية، وقد استلمها العثمانيون من المماليك وقسموها إلى ولايات وجعلوا على كل ولاية وال يحكم بأمر السلطان، وكان حال بلاد الشام كما يقول محمد كرد علي<sup>3</sup> ينتقل من سيء إلى أسوأ، وغالب الولاة ممن لا ذم لهم، وأكثر ما يشغلهم هو جلب المغنم لأنفسهم<sup>4</sup>.

ولقد استمر الوضع على هذا الحال ولم يستطع السلطان عبد الحميد أن يغير في هذا الواقع شيئاً سوى بعض الإصلاحات العمرانية مثل سكة حديد الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة المنورة، إلا ان السلطان لم يستطع إعطاء هامش من الحرية خوفاً على سلطانه، وقد عبر عن ذلك الشيخ رشيد رضا في علاقته مع

<sup>1</sup> الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص 210

<sup>2</sup> الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص 213، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ص 144

<sup>3</sup> هو محمد بن عبد الرزاق بن محمد، كُرد علي: رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة (المقتبس) والمؤلفات الكثيرة. وأحد كبار الكتاب. أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل)، مولده في دمشق عام 1876م ووفاته فيها عام 1953م له مؤلفات كثيرة أشهرها خطط الشام وقد استخرجه من 400 مؤلف وقد نحى فيه كما يقول الزركلي منحى ابن خلدون في تاريخه. الزركلي، الأعلام، 6/202

<sup>4</sup> خطط الشام 2/232 وينظر شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، 5/646

والي بيروت، وكيف اضطر لمغادرة لبنان بشكل سري، وأراد الانتقال إلى مصر لما فيها من حرية التعبير والنشر ما ليس في بلاد الشام الخاضعة للسلطنة العثمانية<sup>1</sup>.

بعد خلع السلطان عبد الحميد تحولت القومية التركية من فكرة ينادي بها بعض المثقفين إلى سياسة وممارسة فعلية، وعملت جمعية الاتحاد والترقي الممسكة بزمام السلطة بتشجيع هذه النزعة، والمناداة بسيادة الجنس التركي على باقي الأجناس، وأنشأت العديد من الجمعيات التي تقوم على أسس قومية تركية، وتعتقد أن بقاء الدولة لن يتحقق إلا بقيام أمة واحدة هي الأمة التركية<sup>2</sup>.

مقابل هذه النزعة العنصرية التتريكية بدأ العرب يشعرون بأن الحكم التركي نوع من الاستعمار بدلا من كونه خلافة إسلامية، فبدأت تلو الأصوات العربية الداعية إلى مقاومة الاستبداد، وتشكلت الجمعيات في بلاد الشام بنزعة قومية عربية، وتساعد الأمر حتى عقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913م<sup>3</sup>، وظهرت مجموعة من المفكرين والأدباء الذين غدّوا هذا الاتجاه بأقلامهم وخطبهم، وعلى رأس هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي وإبراهيم اليازجي<sup>4</sup> الذي هيّج بقصائده الوطنية العرب وحمّسهم نحو التحرر من ظلم الترك<sup>5</sup>.

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى وانحياز العثمانيين إلى ألمانيا تدخلت دول الحلفاء التي وجدت فرصتها لتقسيم تركة الرجل المريض فبسّطت نفوذها على بلاد الشام، ووجد العرب فرصتهم للمناداة بالاستقلال، وغذت بريطانيا وفرنسا هذه النزعة وكانت الأخيرة صاحبة النفوذ الأكبر في سوريا ولبنان، فكانت تعد السوريين بالاستقلال حيناً ثم تتنصل من ذلك حيناً آخر، وبعد ثورات مختلفة من الشعب السوري واللبناني اضطرت فرنسا مع مطلع عام 1946م لإعلان انتهاء الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> ينظر المنار والأزهر ص193

<sup>2</sup> العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص 141

<sup>3</sup> الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ص144

<sup>4</sup> هو ابراهيم بن ناصيف بن عبد الله بن ناصيف ابن عبد الله اليازجي، الحمصي. اديب، لغوي. ولد ببيروت عام 1847م، ومات في 22 كانون الأول عام 1906م بالقاهرة ونقل رفاته الى بيروت. تعلم على والده اللغة، والادب، أتقن العديد من اللغات، ودرّس، واشتغل في الصحافة ونظم الشعر، وبرع في النثر. من مؤلفاته شرح ديوان المتنبي سماه العرف الطيب، وديوان شعر اسمه العقد، كحالة، معجم المؤلفين، 120/1

<sup>5</sup> التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية 671/5

<sup>6</sup> التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية 676/5

كانت مصر في زمن الشيخ محمد رشيد رضا تحت حكم أبناء محمد علي باشا، ثم الانتداب الإنجليزي، وذلك أن الخلافة العثمانية لم تكن سلطتها على مصر إلا رمزية، فقد أدى ضعف الحكومة العثمانية إلى ترك أمور كثير من الولايات إلى قوى محلية تتولى الحكم والإدارة والدفاع، وظهرت أسر حاكمة في مصر والعراق واليمن ومنها أسرة محمد علي باشا الذي تولى الحكم في مصر بعد أن أحكم سيطرته عليها بمؤازرة الشعب وزعمائه في مواجهة التحالف المملوكي الإنجليزي، وقد ورد الفرمان من السلطان العثماني بتوليته على مصر في التاسع من تموز 1805م<sup>1</sup>.

لقد استطاع محمد علي باشا تثبيت حكمه في مصر بمؤازرة الشعب والعلماء، وبمساندة الفرنسيين، فعلى الرغم من دسائس الإنجليز ومؤامرات المماليك فقد أحكم محمد علي باشا سيطرته على مصر، وكانت أشهر المواجهات له مع الإنجليز في معركة رشيد في يوليو 1807م حيث انتصر عليهم<sup>2</sup> وتخلص من المماليك بطرق عديدة أشهرها مذبحه القلعة، وبعد ذلك تفرغ للقيام بإصلاحات عديدة وبناء مصر الحديثة مستعينا بالخبرات الفرنسية والأوروبية، وعمل على الإصلاح الزراعي، والصناعي وبنى القناطر على النيل وحفر الترعة لزيادة الري، وعمل على الإصلاح الإداري والتعليمي وكون جيشا وأسطولا كبيرين حديثين ونمت قوة مصر العسكرية برها وبحريا<sup>3</sup>.

تنازل محمد علي باشا عن العرش بسبب المرض والهزال في 1848م وتوفي في أغسطس 1849م وتولى الحكم بعده على التوالي أبناؤه الباشوات إبراهيم وعباس وسعيد واستمروا على نهج والدهم في الإصلاح والعمران المشهود في مصر، ثم إسماعيل باشا ابن إبراهيم، وكانت له أعمال خالدة أراد من خلالها أن يجعل من القاهرة مدينة تضاهي أجمل المدن الأوروبية، وأنفق على هذه الأعمال أموالا طائلة وكان على رأس هذه

<sup>1</sup> نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص229، شاکر، التاريخ الإسلامي ص478

<sup>2</sup> شاکر، التاريخ الإسلامي ص479

<sup>3</sup> سليمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص233.

الأعمال افتتاح قناة السويس التي ربطت الشرق مع الغرب عام 1869م وكان هذا الافتتاح يوماً مشهوداً وحلماً راود المصريين عبر الأزمنة والعصور<sup>1</sup>.

بعد الخديوي إسماعيل جاء الخديوي توفيق الذي استلم عام 1879م دولة مرهقة في ميزانيتها وبدأت ضغوطات الدول الأجنبية المطالبة بالديون المستحقة لها، وبدأ التذمر داخل صفوف القادة والضباط الذين كان على رأسهم أحمد عرابي فانطلق بثورته عام 1882م ضد التدخل الأجنبي، ولكن الخديوي استعان بالإنكليز الذين دخلوا بقوتهم العسكرية الضاربة واستطاعوا إخماد الثورة العربية ونفي قاداتها، وبذلك دخلت مصر تحت الوصاية الإنجليزية، وأصبح اللورد كرومر إلى جانب الخديوي هو الحاكم الفعلي للبلاد ولم يوفق المصريون إلى استرداد استقلالهم إلا بعد الحرب العالمية الأولى<sup>2</sup>.

خلاصة الأمر أن واقع الضعف والتردي الذي كانت تعيشه الأمة كان له الأثر الكبير على فكر الشيخ محمد رشيد رضا، وقد وصفه في أحد مقالاته في المنار بقوله: "إن هذا العدد العظيم الذي يبلغ ثلاثمائة ألف أو يزيد، الذي نسميه الأمة الإسلامية قد أمسى بحالة من الضعف السوري والمعنوي والفقر المادي والأدبي يستحي من ينتسب إليه من وصفها وشرحها، وقصارى ما نقول فيه: إنه لا يسمى أمة إلا بضرب من التجوز كما تسمى صورة الأسد المرسومة في الجدار أسداً"<sup>3</sup>.

ومن الطبيعي أن يدور في خلدنا دائماً التساؤل عن أسباب هذا الضعف والتشردم، ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ ما هي أسباب الترهل والعجز الذي أصاب الخلافة العثمانية؟ ما الذي دفع الدول الغربية إلى التداعي على قصعة الأمة والطمع في مقدراتها وثرواتها؟ ولماذا تراجعت الأمة عن دورها القيادي وعن تربعها على عرشه لتصبح تائهة منقادة لكل ناعق؟ ولماذا تراجعت عن شهودها الحضاري بعد أن كانت في أوجه المشرق لتصبح مشهوداً عليها تلهث في آخر القافلة وذيلها؟

<sup>1</sup> مورو كفاح شعب مصر عصر محمد علي ص 188

<sup>2</sup> ينظر بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 590-592

<sup>3</sup> مجلة المنار 738/2

كل هذه التساؤلات دفعت الشيخ إلى البحث في دستور الأمة ومنهج عزتها وسبيل هدايتها ألا وهو القرآن الكريم، يستلهم من آياته السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها، فجاء تفسيره المنار ثريا بهذه السنن مبينا لها ومؤكدا على دورها واضطرابها في التاريخ الذي لا يخبط خبط عشواء.

### المطلب الثاني: الحالة الدينية

كانت الحالة الدينية في عصر الشيخ محمد رشيد توصف بالاضطراب، فبين من جعل الدين طقوسا ظاهرية أو علاقة روحانية بين العبد وربّه فقط، وابتعد عن الدنيا والعناية بها، وبين من أراد على النقيض نصوصا جافة واتباعا ظاهريا، وإنكارا للعصر والتغيرات المستجدة في الحياة.

فمن الصنف الأول: كانت الحركات الصوفية التي غزت الدولة العثمانية والشام ومصر وشمال أفريقيا وغيرها، وكانت تلقى هذه الحركات الصوفية أو بالأحرى الطرق كما يطلقون على أنفسهم الرعاية والتشجيع من الحكام والسلاطين لأنها غالبا لا تتدخل في السياسة، بل تساند الحاكم أيا كان فتكون بينهم مصلحة متبادلة<sup>1</sup>.

وكان التعصب بين أتباع الطرق يصل إلى الفقهاء والمتعلمين، فكان كل منهم يدافع عن طريقته وشيخه ولا ينافح كل واحد منهم إلا عن الطريقة التي ينتسب إليها. ولا يؤلف الكتب إلا في مناقب أشياخها، فلا تجد فقيها واحدا من أتباع الطريقة القادرية يؤلف كتابا في مناقب الشيخ التجاني أو تجد فقيها تجانيا واحدا يؤلف كتابا في فضائل الشيخ عبد القادر الجيلاني أو نحو ذلك، بل كل واحد ينصر طريقته ويدعو إليها، وهذا دليل قاطع على أن الأولياء ليسوا عندهم سواء<sup>2</sup>.

ولقد انتشر الجهل والضلال عند أتباع هذه الطرق وعند العوام فوقوا في كثير من البدع والخرافات، بل والأعمال الشركية من لجوء إلى الأضرحة واستغاثة بالأموات وغير ذلك، فيصف الشيخ ابن باديس حال

<sup>1</sup> مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، 231/2

<sup>2</sup> جريدة «الشريعة» النوية المحمدية، ع 5 ص 3

العوام والجهل الذي انتشر عند المسلمين في بلاده الجزائر وغيرها من البلاد، حيث كان السواد الأعظم غارقاً في الضلال فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه لا تجده في صلاة من يصلي منهم!! إلى أن يقول: "فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال"<sup>1</sup>.

ولإنصاف فقد كان بعض فقهاء الصوفية والمعتدلون فيهم لا يرضون بهذه الأفعال التي تسيء إلى الإسلام ولا تخرج عن علم أو قرآن وسنة، فكانوا ينكرون هذه الأعمال وينادون بالابتعاد عنها، لما في ذلك من إساءة للإسلام وصورته خاصة عند غير المسلمين الذين يرون في هذه البدع والبهلوانيات صورة مزرية للإسلام، وقد نشر الشيخ محمد رشيد مقالة لأحد مشايخ الصوفية الكبار نقلها عن جريدة المؤيد حينها وقد دعا في مقالته إلى إصلاح الطرق الصوفية، وإلى وقف الأعمال التي لها مظاهر عمومية يشترك في رؤيتها والتأثر منها الصوفي وغيره، والوطني والأجنبي معاً، وذكر منها المواكب التي كان يراها الناس كل يوم في أزقة المدن، وطرقات القرى وبلدان الأرياف، وما يتخلل الكثير منها من المنكرات واجتراء البعض على تقليد احتفالات دينية في مكان عمومي أو مجتمع عمومي بقصد أن يتفرج عليه الحضور كما وقع كثيراً أمام السياح وفي بعض منازل الإفرنج في مصر. والموالد التي تقام وما يصاحبها ويتخللها من الأمور التي تخالف الآداب والأدكار التي يقيمها الصوفية في كل محل وناد، وكثير منها مُباين بالمرّة للذكر الشرعي المندوب إليه في الكتاب والسنة، وهو توجه المرء إلى الله تعالى سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التنكير من كلام الحكيم الخبير). ص 119

<sup>2</sup> مجلة المنار 353/8

ومن الصنف الثاني: كان الفقهاء الجامدون المقلدون الذين لا يواكبون العصر ونوازله ولا العلم ومكتشفاته، وإنما يعكفون على موروث وجدوا عليه آباءهم فهم على آثارهم مقتدون، وقد كان الشيخ محمد رشيد كثيرا ما ينقد هؤلاء المقلدة لما لهم من تأثير سلبي على صورة الإسلام ودعوته في مواجهة تحديات العصر ومستجداته.

فيذكر الشيخ محمد رشيد أن بعض هؤلاء العلماء كانوا يحرمون العلوم والفنون والصناعات العصرية التي لا يمكن لحكومة أن تحفظ استقلالها بدونها، ولا يمكن لأمة أن ترتقي في زراعتها وتجاريتها بدونها، ومن هذه العلوم ما هو قطعي لا يمكن الشك في ثبوته، ولكن هؤلاء الفقهاء الجامدين يتحكمون في الحكم على من يعتقد هذه القطعيات بالكفر، وهم الذين كانوا يعارضون انتعاع الدولة العثمانية وغيرها بهذه العلوم والفنون؛ بدعواهم أنها معارضة للدين مخالفة للقرآن حتى إنهم كانوا يحرمون علم الجغرافيا، مع أنه ليس في موضوعه ولا مسأله ما له علاقة بالمباحث الدينية إلا أن يكون إثبات كروية الأرض ودورانها، وذكر الشيخ قصة عن أحد علماء تونس؛ فيقول: "سأله أحد الوزراء في الأستانة عن حكم تعلم الجغرافيا، فقال: الوجوب، فكبر ذلك على عالم كان عنده وسأله عن الدليل، فقال: رأيت إذا كانت الدولة في حرب مع العدو، وأمر الخليفة وزير الحربية أن يضع بعض الضباط رسماً لمواقع هذه الحرب وطرق الجيوش فيها، مما يتوقف عليه درء خطر العدو ويرجى سببه إلى المواضع الحصينة، (مثلاً)، فهل تجب طاعته في ذلك أم لا؟ قال: تجب، قال وهل يكن هذا لمن لا يعرف علم الجغرافيا؟"<sup>1</sup>.

ويذكر الشيخ من تمسكوا بظاهر بعض النصوص في مخالفة ما أثبتته العلم، وأخذوا عن بعض المفسرين الأوائل أمورا غير قطعية قد شابها الكثير من خرافات زنادقة اليهود والفرس في الخلق والتكوين، وصفة السموات والأرض والكواكب، والرعد والبرق، وجبل قاف، وقرن الثور والحوت، وما أشبه ذلك، ثم قاموا يكفرون من يخالفهم في ذلك، فجعلوا هذه الخرافات الإسرائيلية من أركان الإيمان الذي يخرج منكروه من الملة، وذكر ما جاء في تفسير الجلالين عند قوله: ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20] حيث قال

<sup>1</sup> مقال في مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا: أعداء الإسلام المحاربون له في هذا العهد، 115/29

الجلال: "أي بسطت فيستدلون بها على قدرة الله تعالى ووحدانيته وصدرت بالإبل لأنهم أشد ملابسة لها من غيرها وقوله سطحت ظاهر في أن الأرض سطح وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركنا من أركان الشرع"<sup>1</sup>، ثم بين أن مثل هذه الأفكار الجامدة كثيرا ما كانت تصدر عن علماء الحجاز، فذكر الشيخ عن بعض علماء نجد أنه كان يكفر من يقول بكروية الأرض، على الرغم من أنه من أوسع العلماء اطلاعا، وهو بذلك مخالف للشيخ محمد بن عبد الوهاب ومنهجه الذي لا يكفر أحدا إلا بمخالفة الإجماع في المسائل الدينية القطعية، وهذه ليست مسألة دينية ولا إجماع عليها. ولأن أكبر أئمة الحنابلة التي استمد الشيخ وخلفاؤه من كتبهم تجديده للدين في نجد شيئا الإسلام ابن تيمية وابن القيم لا يكفرون بمثل هذه المسائل، وقد ذكر الثاني في بعض كتبه أن الأرض كروية<sup>2</sup>.

إن هذه الحالة الدينية التي عاشتها الأمة في زمن الشيخ بعيدة عن روح الإسلام ومنهجه، وبعيدة عن مواكبة العصر ومستجداته، دفعت الشيخ إلى أن ينفذ عن الإسلام ما لحق به من أفكار وتصورات شاذة، وأن يقدمه للناس بصورته الوضّاء المشرقة، وأنه قادر على أن ينهض بالأمة في كل زمان ومكان.

### المطلب الثالث: الحالة الفكرية

نتجت عن الحالة الدينية آنفة الذكر حالة فكرية مناقضة للدين عند كثيرين ممن تأثروا بنهضة الغرب وبهرتهم أضواء الحضارة الأوروبية، وهي حالة من الردّة الدينية، والانتكاسة العقائدية، وصلت إلى درجة الإلحاد والدعوة إلى التخلي عن الدين مطلقا، وقد خُصّصت لهؤلاء المتفرنجين -كما يسميهم الشيخ محمد رشيد رضا- أقلام تكتب أفكارهم الخبيثة وجرائد تبث سمومهم الهدّامة، فيقول رحمه الله: "ثم ظهرت مفاصد الملاحدة من المتفرنجين؛ بمجاهرتهم بمهاجمة الدين في المحاورات والخطب التي تلقى في المحافل، والمقالات التي تنشر في الجرائد"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير الجالين، ص 805

<sup>2</sup> مقال من مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا، أعداء الإسلام المحاربون له في هذا العهد، 115/29

<sup>3</sup> مقال من مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا: أعداء الإسلام المحاربون له في هذا العهد، 115/29

ثم نكر الشيخ بعض هذه الجرائد التي تخصصت للتبشير بحضارة الغرب، وتدعو إلى ترك الدين واعتباره من الماضي الذي لا حاجة له، ومن هذه الجرائد جريدة السياسة وجريدة الهلال التي كان يديرها سلامة أفندي موسى وهو الذي جرّد قلمه لمحاربة كل ما هو من الإسلام، ويريد للعرب أن يصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الغرب يقول الشيخ: "إنه لولا جمود مقلدة الفقهاء الذين احتكروا التعليم الديني في بلاد الإسلام منذ قرون، ولولا بدع أهل الطرق الصوفية وخرافاتهم؛ وهم الذين كان سلفهم يعنون بالتربية الدينية؛ ليكون الدين وجداناً عند صاحبه لا يقبل البحث والجدل، فانقلب بعدهم إلى إفساد لا يقبل الإصلاح بحيلة من الحيل؛ لولا هؤلاء وأولئك لما كان لهؤلاء المفسدين ولا للمبشرين أدنى تأثير في إغواء المسلمين"<sup>1</sup>.

لقد كان للبعثات التعليمية التي أرسلها محمد علي باشا والخديوات بعده إلى أوروبا لتحصيل العلوم الحديثة<sup>2</sup>، أثر بالغ على نمط التفكير عند هؤلاء الذين احتكوا بالحضارة الغربية وأبهرهم بريقها، وعندما عادوا إلى مصر وما فيها من تخلف وخرافات نسبوا هذا التخلف إلى الإسلام، ودعوا إلى التخلي عنه، واتباع الفكر الغربي المادي الذي ينافي الأديان ويدعو إلى عزلها عن إدارة شؤون الحياة فنشأت هذه الطبقة التي تريد تقليد الغرب في كل شيء، على النقيض من الطبقة التي تريد الجمود على تقليد الكتب الفقهية من غير مراعاة نوازل العصر، حيث يقول الشيخ محمد رشيد: "إن المتصددين للزعامة السياسية ومقام الحل والعقد في غير جزيرة العرب من البلاد الإسلامية أزواج ثلاثة، مقلدة الكتب الفقهية المختلفة، ومقلدة القوانين والنظم الأوروبية، وحزب الإصلاح الجامع بين الاستقلال في فهم فقه الدين وحكم الشرع الإسلامي وكنه الحضارة الأوروبية، وهذا الحزب هو الذي يمكنه إزالة الشقاق من الأمة"<sup>3</sup>.

وهذا الاتجاه الذي دعا لممالأة الاستعمار الغربي وتقريب الإسلام من المسيحية أو تبديله إلى توجيه ديني يرضى عنه المستعمر قد نشأ وقوي بعد منتصف القرن التاسع عشر<sup>4</sup>. وقد عزز هذا الاتجاه أن بعض الذين

<sup>1</sup> مقال من مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا: أعداء الإسلام المحاربون له في هذا العهد، 115/29

<sup>2</sup> الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، ص171، وجرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث ص 191

<sup>3</sup> رضا، الخلافة، ص70

<sup>4</sup> البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، ص10

ابتعثوا إلى أوروبا كانوا من خريجي الأزهر ومن رجال الدولة المرموقين، مثل الشيخ رفاة الطهطاوي<sup>1</sup> الذي أرسل إماما لفرقة عسكرية ابتعثها محمد علي باشا إلى باريس سنة 1826م لتلقي فنون الجندية والعسكرية الحديثة، وأقام فيها خمس سنوات واطلع هناك على الفكر الفرنسي وعلومه وآدابه، وعاد ليعبر عن انبهاره بتلك البلاد من خلال كتابه (الإبريز في تلخيص باريز)، ومثل خير الدين التونسي<sup>2</sup> الذي أقام في باريس أربع سنوات، وقد عاد كل منهما محملاً بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساس علماني عقلاني<sup>3</sup>.

لم يسارع الشيخ الطهطاوي إلى تبني كل ما جاء به الغرب، ولكنه حاول التوفيق بينه وبين الإسلام في كثير من القضايا، ففيما يخص المرأة دعا إلى تعليمها وخروجها للعمل لتسهم في بناء المجتمع، فقد وضع كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) وفيه الكثير من الأفكار المتقدمة والجريئة، فيقول: "ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات؛ فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً، ويجعلهن للمعارف أهلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي، فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن ... وليمكن للمرأة - عند اقتضاء الحال - أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يبأشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة؛ فإن فراغ أيديهن عن العمل، يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل"<sup>4</sup>، وهذه الأفكار وإن لم تكن بحد ذاتها مخالفة لتعاليم الإسلام، إلا أنها في ذلك العصر كانت بداية لجرأة لم تتوقف عند حدود الشرع، وإنما فتحت الباب لما هو أبعد من ذلك مدى<sup>5</sup>.

ومنذ 1830م بدأ المبتعثون العائدون من أوروبا بترجمة كتب فولتير وروسو ومونتسكيو في محاولة منهم لنشر الفكر الأوربي الذي ظهر في القرن الثامن عشر ثائراً ضد الدين، وأنشأ كرومر كلية فيكتوريا بالإسكندرية

<sup>1</sup> هو رفاة الطهطاوي، يتصل نسبه بالحسين السبط: عالم مصري، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث. ولد عام 1801م في طهطا، وتعلم في الأزهر. وأرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية. ولما عاد إلى مصر أنشأ جريدة (الوقائع المصرية) وألف وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة، توفي بالقاهرة عام 1873م. الزركلي، الأعلام، 29/3

<sup>2</sup> هو خير الدين التونسي، الجركسي الأصل وزير، مؤرخ. ولد عام 1810م قدم تونس صغيراً، وتعلم العلوم الدينية واللغات التركية والفارسية والعربية، ثم التحق بوظائف الحكومة، وتقلب في كثير من المناصب السامية، فاختير وزيراً للحربية في تونس، ثم دعاه السلطان عبد الحميد العثماني إلى القسطنطينية فولاه الصدارة العظمى، وتوفي بالقسطنطينية عام 1890م. من مؤلفاته: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. كحالة، معجم المؤلفين، 133/4.

<sup>3</sup> موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net 55/1

<sup>4</sup> الطهطاوي، المرشد الأمين للبنات والبنين، ص66

<sup>5</sup> هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، ص87

لتربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي ليكونوا أداة المستقبل في نقل ونشر الحضارة الغربية، وأسهم المثقفون النصارى في إنشاء المدارس وإصدار الجرائد التي تتسم بالفكر الغربي والبعيد عن الدين والموروث فأنشأ بطرس البستاني في عام 1863م مدرسة لتدريس اللغة العربية والعلوم الحديثة، وأنشأ جورجى زيدان مجلة الهلال في مصر سنة 1892م، وقد كان على صلة بالمبعوثين الأمريكان، كما كانت له سلسلة من القصص التاريخية التي حشاها بالافتراءات على الإسلام والمسلمين<sup>1</sup>، يقول ألبرت حوراني في كتابه (الفكر العربي في عصر النهضة) عن الصحافة في السبعينيات من القرن التاسع عشر: "كان العدد الأكبر من هذه المجلات، الصادرة في القاهرة أو بيروت، يحررها مسيحيون لبنانيون تتقنوا في المدارس الفرنسية أو الأميركية، فزودوا القراء، طيلة جيل بكامله، بمادة للمطالعة الشعبية تكاد تكون الوحيدة في اللغة العربية آنذاك"<sup>2</sup>.

ثم إن المسيحيين اللبنانيين والسوريين الذين نزحوا إلى مصر قد وجدوا في الفكر الغربي ملاذا لهم، فلا هم مسلمون يشاركون الشعب المصري انتمائه الديني، ولا هم يستطيعون المجاهرة بالتعصب لديانتهم المسيحية، فجعلوا من الفكر الغربي مطية للتبشير بحضارة جديدة ومجتمع جديد يقوم على الفصل بين الدين والدولة، وللحاق بالركب الغربي في عزل الدين عن سياسة أمور الدنيا، وكان على رأس هؤلاء شبلي شميل وفرح أنطون، فشميل بشر بالعلم على انه هو كل شيء، بل هو الدين الذي يحل لغز الكون ولا حاجة لدين آخر، وتمسك بنشر نظرية التطور لداروين، ودعا لتدريسها في المدارس على اعتبار انها حقيقة علمية تجعل الوجود كله يرجع إلى أصل واحد<sup>3</sup>!.

أما فرح أنطون وهو المفكر الذي كان صديقا للشيخ محمد رشيد، وقد سافرا معا من طرابلس إلى مصر، وهناك اختلفت الوجهة الفكرية لكل منهما، فتوجه أنطون نحو الغرب وذهب رضا نحو الإصلاح والتجديد في الشرق<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص92، وموسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net 55/1.

<sup>2</sup> حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص293.

<sup>3</sup> حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص297.

<sup>4</sup> حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص305.

وعلى أثر هؤلاء النصارى جاء من يحمل أفكارهم من أبناء المسلمين وعلى رأس هؤلاء كان أحمد لطفي السيد وطه حسين، أما الأول وهو الملقب بأستاذ الجيل، فقد نادى بوقف التعليم الديني وإنشاء المدارس المرتبطة بالغرب ومناهجه، ودعا إلى تقييد التعليم وقصره على أبناء الأثرياء، كما دعا إلى الكتابة باللغة العامية، ودعا إلى تحرير المرأة من القيود الدينية ودمجها في التعليم<sup>1</sup>.

وأما الثاني وهو الذي لقب بعميد الأدب العربي، فقد ذهب ليكمل دراسته في فرنسا فتزوج هناك وعاد حاملاً الفكر الغربي بكل ما فيه، وهاجراً للفكر الديني الإسلامي بكل ما فيه، وكان أخطر ما كتبه كتابه (في الشعر الجاهلي) وقد تابع فيه المستشرق الإنجليزي (مرجليوت) فيما نشر عن الشعر الجاهلي في المجلات الاستشراقية عام 1925م، فنشر بعده طه حسين كتابه عام 1926م<sup>2</sup> وادعى فيه أن الكتب الدينية ومنها القرآن لا تعد مصدراً تاريخياً موثقاً، حين ادعى أن ورود ذكر إبراهيم وإسماعيل فيها لا يعني إثبات وجودهما ولا أن وجودهما حقيقة تاريخية<sup>3</sup>، ثم كتابه الأخطر (مستقبل الثقافة في مصر) وقد دعا فيه إلى أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد فيها وما يعاب<sup>4</sup>.

أمام هذه الأفكار الخبيثة التي نخرت في عظام الأمة فخلخت أركانها وزعزعت كيانها فأمرضتها وأضعفتها وكادت تقضي عليها، كان لا بد للشيخ أن يسخر قدراته، وأن يعمل بكل ما أوتي من قوة، وما آتاه الله من فكر حاد وذهن متوقد، من أجل تحصين الأمة، وتخليتها من كل خبيث وضار، وتحليلتها بكل مفيد نافع، ودرس وفسر القرآن الكريم تفسير مشخص للداء باحث عن الدواء.

<sup>1</sup> الجندي، تاريخ الغزو الفكري والتعريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين، ص 43

<sup>2</sup> بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر - دمشق، 2000م ص 56

<sup>3</sup> ينظر طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص 38

<sup>4</sup> ينظر طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص 39

### المبحث الثالث: تأكيد تفسير المنار على أهمية العلم بالسنن الإلهية

اعتنى الشيخ محمد رشيد رضا بالسنن الإلهية عناية فائقة، وقد عدّ العلم بها من أهم أسس منهجه الإصلاحية للنهوض بالأمة من واقعها المتردي، وعبر عن ذلك في تفسيره المنار في كثير من المواضع، وقد انتهز الشيخ كل فرصة للتذكير بأهمية العلم بالسنن الإلهية، ولا شك أن الشيخ قد تأثر بشيخه وأستاذه الإمام محمد عبده الذي أسس لمنهج إصلاحية جديد، ودعا إلى فهم القرآن الكريم على أنه كتاب هداية يأخذ بيد الإنسان والأمة إلى دار السعادة في الدنيا والآخرة، وقد جعل العلم بالسنن الإلهية وقواعدها ضروريا لأي أمة تريد أن تكون حاضرة في ميدان الشهود الحضاري والعتاء الإنساني.

ولذلك جعلت هذا المبحث من مطلبيين أولهما بيان عناية الأستاذ الإمام محمد عبده بالسنن الإلهية، كونه المرشد الملهم للشيخ رشيد رضا، وكون تفسير المنار يتضمن الكثير من تفسيره وأقواله. ثم جعلت المطلب الثاني لبيان عناية الشيخ محمد رشيد رضا بهذه السنن في تفسيره المنار

#### المطلب الأول: عناية الإمام محمد عبده بالسنن الإلهية

كان الإمام محمد عبده قد اعتنى بعلم السنن الإلهية وأبرزه بشكل كبير في دروس التفسير ومقالاته، حتى دعا إلى جعله علما من العلوم التي تدرس لطلاب العلم كما تدرس بقية العلوم من فقه وتفسير وحديث، متخذاً قدوة له في ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي دعا إلى جعل أسلوب القرآن البلاغي فناً من الفنون التعليمية لنطلع أكثر على إعجاز القرآن وبلاغته، فأوجب الإمام على المسلمين أن يجعلوا السنن الإلهية علماً من العلوم المدونة، ودعا إلى جعل ذلك فرضاً من فروض الكفاية، فعلى المسلمين أن تكون منهم جماعة تفقه هذه السنن وتبينها لأبناء الأمة وقادتها، وذلك على غرار العلماء والفقهاء الذين فقهوا علوم القرآن المختلفة وأرشدوا الناس إليها كعلم العقيدة وعلم الفقه وغير ذلك، ثم دلل على مراده بأن الصحابة رضوان الله عليهم وإن لم يدونوا هذا العلم فإنهم كانوا أعلم الناس به، وقد وظفوه في فتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها، ثم قال: "ولما اختلفت حالة العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم

العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية، سمّ بما شئت فلا حرج في التسمية"<sup>1</sup>.

ونظرا للعلاقة المباشرة بين مفهوم السنن الإلهية وعلوم التاريخ والعمران البشري، وفهم علم الاجتماع، فقد كان الإمام محمد عبده حريصا على إدخال هذه العلوم ضمن مناهج التدريس في الأزهر الشريف، فينقل عنه الشيخ محمد رشيد أنه أخبره بمحاولاته مع شيخ الأزهر الشيخ محمد الإنبائي<sup>2</sup> فيقول: "وقال لي في حديث آخر: إن نفسي توجهت لإصلاح الأزهر منذ كنت مجاورًا فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين، وقد شرعت في ذلك؛ فحيل بيني وبينه... وبعد أن عدت من النفي حاولت إقناع الشيخ محمد الإنبائي بشيء، فلم يصادف قبولا. قلت له مرة: هل لك أيها الأستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الأزهر؟ ووصفت له من فوائدها ما شاء الله أن أصف، فقال: إن العادة لم تجرِ بذلك، فانقلت به في شجون الحديث إلى ذكر الشيوخ، وسألته: منذ كم مات الأشموني والصبان<sup>3</sup>؟ قال: منذ كذا، قلت: إنهما حديثا عهد بوفاة، وهذه كتبهما تقرأ بعد أن لم تجر العادة بذلك. فسكت، ولم يدخل في الحديث"<sup>4</sup>، وتدل هذه الرواية على فطنة الإمام محمد عبده وعلمه بأهمية مقدمة ابن خلدون وما فيها من فوائد تساعد على فهم أحوال الأمم، وضرورة إدراجها في مناهج التدريس للسنن الإلهية، أو مناهج علم الاجتماع الإنساني والعمراني.

وكان الإمام يدعو إلى تعلم السنن الإلهية من خلال الرجوع إلى التاريخ ودراسة علم الاجتماع فيذكر الشيخ محمد رشيد عندما فصل وبين المطلوب من المسلمين ليكونوا أمة تدعو إلى الخير، وماهي واجباتها التي فيها قوام وحدتها وعزتها، أن الإمام محمد عبده ذكر أمورا مجملة من أجل صلاح الأمة وقد لخصها الشيخ محمد رشيد وذكر منها حاجة الأمة إلى علم الاجتماع، وبين أن في هذا العلم يتم رصد ودراسة شأن الأمة

<sup>1</sup> تفسير المنار 115/4

<sup>2</sup> هو محمد بن محمد بن حسين الانبائي، الشافعي، عالم مشارك في انواع من العلوم. ولد عام 1825م بالقاهرة، وتلقى جميع العلوم المتداولة في عصره بالأزهر، ودرّس فيه، وعين امينا لفتوى مشيخة الازهر، فشيخا للأزهر مرتين، وتوفي بالقاهرة 1896م. كحالة، معجم المؤلفين، 209/11.

<sup>3</sup> الأشموني نسبة إلى أشمون في مصر وينتسب إليها أكثر من عالم وأقربهم عهدا عبد الرحمن الاشموني. فاضل، عاش في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، له رسالة في أسماء الرجال. كحالة، معجم المؤلفين، 127/5، والصبان هو محمد بن علي الصبان، أبو العرفان: عالم بالعربية والأدب. مصري. مولده ووفاته بالقاهرة عام 1792م له مؤلفات كثيرة. الزركلي، الأعلام، 297/6

<sup>4</sup> مجلة المنار 8/ 453

في أحوالها المختلفة، من ضعف وقوة وبداءة وحضارة وعلو وهبوط، وإن هذا العلم يتأتى من خلال النظر في تاريخ الأمم وأخلاقها، فالذي يكون ضالعا في علم التاريخ والأخلاق يكون قادرا على بناء دعوته وإرشاداته على أسس حكيمة رشيدة، ويستغني عن علم الاجتماع ودراسته إذا كان من أهل العقل والفهم والتدبر، وإلا ففي دراسة ما بينه علماء الاجتماع مزيداً من الفائدة والنفع، ولا بد للمسلمين من التعرف على ما قاله وكتبه من تقدمهم في هذا العلم، إلى أن قال: "وقد جاء في القرآن كثير من قواعد هذا العلم فغفل أكثر المفسرين عنه ولم يهتد إلى فقه بعضه إلا قليل منهم، إذ لم يكن هذا العلم مدونا في عهدهم فينبههم إلى ذلك"<sup>1</sup>.

وفي كثير من مقالاته في العروة الوثقى يشير الإمام إلى أهمية السنن الإلهية وإلى ضرورة فهمها والعمل من خلالها حتى تتخلص الأمة من الوهن الذي أصابها والذل الذي علقت به والضعف الذي نخر في عظامها حتى تسلط أعداؤها عليها، واستولوا على ثرواتها، وحتى تسترد عافيتها وتستعيد مجدها المسلوب وتعود لتكون خير أمة أخرجت للناس كما أَرادها الله تعالى، فتحت عنوان (سنن الله وتطبيقها على المسلمين) كتب الإمام مقالةً في بيان أهمية السنن الإلهية، وبدأه بالآية الشريفة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، والآية ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53]، ثم خاض في بيان معنى هذه الآيات وأنها وعد من الله لا يتخلف وأنها بينة واضحة بلسان عربي مبين، ثم ذكر الآيات ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]، ثم قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]، وقوله: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفَرُوا﴾ [التوبة: 33]، ثم عقد مقارنة بين ما كانت عليه الأمة من عز ومجد وفخار حين تمسكت بكتاب الله وتعاملت مع سننه بجد وبين ما آلت إليه من تخلف وضعف وتبعية للأمم الأخرى، ثم قال: "أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومُحي

<sup>1</sup> تفسير المنار 34/4

اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سننها الله على أساس الحكمة البالغة<sup>1</sup>، ثم استرسل رحمه في بيان بعض هذه السنن وشرحها مستدلاً ببعض الآيات القرآنية مبيناً لأسباب العلو، والبقاء للأمة، وأسباب السقوط، والزوال.

لقد كانت دعوة الإمام هذه نابغة من يقينه أن الأمر القرآني بضرورة تدبر قصص الأمم السابقة وأحوالها ومآلاتها لم يأت عبثاً، وإنما جاء لنفهم سنن الله في تحقيق الخير وسعادة الإنسان، وذلك من خلال الجمع بين الدليل وما يدل عليه، وبين السبب والمُسبب، وبيان أن لله سنناً مطردة في الأمم والجماعات لا تتخلف، وعلينا السعي في دراسة هذه السنن وفهمها.

فعندما تحدث الإمام عن القصص القرآني مبيناً الحكمة من وروده ومقصده في القرآن الكريم، ذكر أن من أهم مقاصد القصص القرآني هو بيان سنن الله تعالى في الاجتماع وأخذ العبر من الأمم السابقة والاتعاض بما كان وجرى معها، فلم يأت القصص للتسلية أو ذكر أحداث تاريخية لذاتها، فكثيراً ما كان يتغاضى عن ذكر الأسماء في القصص، أو ذكر المكان والزمان لوقوع الحدث، ولم يجار في ذلك ما جاء في كتب بني إسرائيل، وبيان أن القرآن لم يأت ليقص علينا أحداث التاريخ ولكنه جاء ليعظ الناس ويأخذ بأيديهم إلى الهداية والرشاد، وإن كل قصة لها عبرها الخاصة التي تتجلى من غير حاجة لذكر وقت حدوثها أو الإحاطة بجميع تفاصيلها، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111]، وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيُورُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، وقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85]، وغير ذلك من الآيات<sup>2</sup>.

وقد بين الإمام أن القصص القرآني هو من المقاصد والأمور الخمسة التي نزل القرآن لأجلها، والتي ذكرها خلال تفسير سورة الفاتحة، فبعد أن ذكر التوحيد، والجزاء، والعبادة، وبيان سبل السعادة، ذكر القصص،

<sup>1</sup> العروة الوثقى ط 1، 2002م ص 211-216. [https://archive.org/details/19-pdf\\_202105/page/n203/mode/2up](https://archive.org/details/19-pdf_202105/page/n203/mode/2up)

<sup>2</sup> تفسير المنار 373/2

ولكن القصص لم تكن لذاتها إنما للاتعاظ بالأمم السابقة وما أصابها من خير وشر فقال: "خامسها):  
قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا  
لأجل الاعتبار، واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر"<sup>1</sup>.

وأختم هذا المطلب بكلام للإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي أحد شيوخ الأزهر السابقين عبر فيه  
عن براعة الإمام في استخراج السنن الإلهية من القرآن الكريم وتطبيق ذلك على سنن الاجتماع، فبعد أن  
ذكر مناقبه ودافع عنه في وجه حساده وأعدائه، قال: "وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ  
أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع، وفي تصوير هدي القرآن، وفي فهم أغراض الدين  
العامه"<sup>2</sup>.

#### المطلب الثاني: عناية الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار بالسنن الإلهية

يعد تفسير المنار أنه التفسير الباعث لمصطلح السنن الإلهية والأكثر استعمالا له، ولا أقول ذلك جزافا وإنما  
هو أمر واضح ملموس من خلال البحث والاستقراء، ولا شك أن حالة الضعف السياسي، والتخلف الفكري،  
والجمود الديني التي تحدثت عنها آنفا كان لها أكبر الأثر على صاحب التفسير كي يبحث في الأسباب  
والمسببات من خلال القرآن الكريم، وأن يتجه لبيان عوامل الهدم التي عملت في الأمة حتى صارت إلى ما  
صارت إليه، ولوضع القواعد التي تنطلق من خلالها الأمة لاستعادة مجدها المسلوب وعزتها الضائعة، فكان  
من أمره أن استدعى السنن الإلهية المعروضة في ثنايا القرآن الكريم، وليربط ذلك مع علم الاجتماع والعمران  
البشري، وليتخذ من ذلك تفسيرا وإرشادا وهداية للأمة في ليلها المظلم، كي تنهض من كبوتها وتتلمس طريقها  
وفق هذه السنن الهادية إلى سواء السبيل، فإنه ما أصابها الذي أصابها إلا جريا مع سنن الله في سقوط  
الأمم، وبسبب تفرقتها بالأخذ بسنن الله الحكيمة في نهضة الأمم، فيقول رحمه الله: "بل أقول ولا أخشى  
في الحق لومة لائم: أیظن المسلمون أن تتنازع الأمم والدول على ممالكهم وسلبيها من أيديهم مخالف لعدل

<sup>1</sup> تفسير المنار 30/1

<sup>2</sup> مجلة الرسالة، ع4/420

الله العام وسننه الحكيمة التي جاء بها القرآن؟ كلا إنه تعالى ما فرط في الكتاب من شيء، ولكنهم هم الذين فرطوا فذاقوا جزاء تفريطهم، فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم، وإلا فقد مضت سنة الأولين<sup>1</sup>.

لقد وردت في تفسير المنار كلمة السنن بمشتقاتها مقرونة بالحديث عن الاجتماع الإنساني وال عمران البشري وتدبير الله لأمر هذا الكون بما فيه مئات المرات، على الرغم من أن الشيخ لم يبلغ في تفسيره إلا الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم، فلا يكاد يخلو مبحث من مباحث التفسير من تطرق لهذه السنن بشكل مباشر أو غير مباشر، وعليه فلا أكون مبالغا إذا قلت إذا كان ابن خلدون هو واضع علم الاجتماع فإن الشيخ محمد رشيد هو واضع علم السنن الإلهية، والعلاقة بين العلمين متلازمة، وأثر السابق على اللاحق واضح بـين.

وفي هذا المطلب سوف أضع بعض الشواهد - من غير استقصاء - التي تدل على عناية واهتمام الشيخ بعلم السنن وذلك على النحو الآتي:

أولا: ذكر الشيخ في مقدمة تفسيره المرتبة العليا في تفسير وفهم كتاب الله، وجعلها قائمة على خمسة أمور فلا تتم إلا بها، وجعل الأمر الثالث منها (علم أحوال البشر)، فبين أن الله تعالى جعل القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، وجعل فيه من البيان ما لم يجعله في الكتب السابقة، وجاءت فيه السنن الإلهية الماضية في جميع الأمم، فتحدث كثيرا عن طبائع الخلق وأحوالهم، وساق إلينا القصص في حياة الأمم وتاريخها ليبين لنا سنته الجارية فيها، وعليه فلا بد لقارئ القرآن ودارسه أن ينظر في حال البشرية وأطوارها وأدوارها وأسباب الاختلاف الحاصل فيها<sup>2</sup>، فعلم أحوال البشر بالنسبة للشيخ هو علم مهم في فهم الآيات وخاصة الآيات التي تتحدث عن السنن الإلهية في الأمم، وكأن الشيخ يدعو إلى فهم التاريخ بطريقة تحليلية اجتماعية، وفهم أسباب العلو والسقوط في حياة الأمم، وذلك مما يساعد على فهم القرآن الكريم وفهم سنن الله الماثورة في القصص القرآني والآيات التي تتحدث عن صنع الله وتدبيره لحياة الناس.

<sup>1</sup> تفسير المنار 393/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 20/1

ثانيا: عندما تحدث الشيخ عن تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137] أفاض في الحديث عن السنن الإلهية في الأمم

وأثرها في النصر والهزيمة، فقد جاءت هذه الآية مقدمة للحديث عن غزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها،

فكان الآيات في هذا الباب جاءت لتعلم أهل الإيمان العلوم الاجتماعية، وما لم يكونوا يعرفونه من قبل في

هذا الباب، ثم نقل كلاما مطولا عن أستاذه الإمام في معاني الآيات وما فيها من سنن إلهية تجري على

الجميع من غير محاباة لأحد، وأنه لا بد من فهم هذه السنن والتنبه إليها. بعد ذلك قام بتعريف السنن لغويا

لينطلق من التعريف اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحي للسنن الإلهية مبينا أن اجتماع الناس وحركة الأمم

وما في ذلك من صراع قائم وتدافع دائم بين أهل الحق وأهل الباطل، وأن المعارك التي تقع والحروب التي

تجري والصراع على الحكم والإمارة، إنما يجري على قواعد وطرق ثابتة قديمة وفق النظام الذي وضعه الله

تعالى للبشر، ولا تقع الأمور صدفة أو بشكل عفوي، وليست مفروضة على الناس بشكل ليس لهم فيه حول

ولا قوة، ثم استعرض بعض الآيات التي جاء فيها ذكر السنن مبينا أن هذه السنن جاءت عادلة، فما يجوز

لأحد أن يتكل على انتماء لهذه الملة أو تلك، أو كونه تابعا لنبي مرسل أو عنوان معين لينجو من جريان

هذه السنن عليه، إلى أن قال: "فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله -تعالى- في خلقه إنما تنفذ على سنن

حكيمه وطرائق قديمة، فمن سار على سنته في الحرب -مثلا- ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا أو وثنيا،

ومن تكبها خسر وإن كان صديقا أو نبيا" ثم أكمل وبين أن ما أصاب المسلمين في أحد، وما وقع لرسول

الله فيها، حيث شجَّ المشركون رأسه وكسروا ربايعته، وغير ذلك مما أصاب المسلمين فيها إنما حصل وفق

سنته تعالى التي لا تتخلف، وعلى أهل الإيمان أن يكونوا أكثر الناس معرفة بهذه السنن الجارية في الأمم،

وهم أولى الناس بتطبيقها والسير عليها<sup>1</sup>.

فيتبين هنا كم كان اهتمام الشيخ بالسنن الإلهية وبيان معناها وكيفية جريانها على الجميع، وضرورة فهمها

وتعلمها والأخذ بها. وكثيرا ما يعود ويؤكد هذه الحقيقة في مواضع مختلفة في تفسيره، فعلى سبيل المثال في

<sup>1</sup> تفسير المنار 114/4

معرض حديثه عما جرى بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف حول مشيئة الله ومشية العبد عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، وقد حرر المسألة في بيان ثلاث حقائق وقال في الثانية منها: "إن خلقه وتدبيره إنما يجري بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة، كما أشرنا إلى ذلك في تفسير ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 137]، وفي تفسير كثير من الآيات التي تذكر فيها المشيئة أو السنن الإلهية"<sup>1</sup>.

وهذا الكلام فيه تنبيه واضح إلى أنه لا تناقض بين جريان الأحداث وفق السنن الإلهية التي وضعها الله تعالى وبين مشيئة الله المطلقة في هذا الكون، وقد أوضح ذلك سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن وبين أن التصور الصحيح عند الأمة المسلمة يقوم على التوازن القائم عندها بين ثبات السنن وبين طلاقة المشيئة فيقول: "فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله، واتسع تصورها، ووقع في حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة!"<sup>2</sup>

ثالثاً: عند ختام سورة الأعراف وضع الشيخ خلاصة للسورة في ستة أبواب جعل الخامس منها في (آيات الله وسننه في الخلق والتكوين)، والسادس في (سنن الله تعالى في الاجتماع البشري)، وهذا الباب هو الأهم في خلاصة السورة كونها حوت العديد من قصص الأقسام السابقين وقصص بني إسرائيل، وقد استفاض الشيخ في الحديث عن السنن الإلهية فيه وبين العديد من القواعد التي تجري أحكامها على الأمم والشعوب، وسوف أعود إلى هذا الباب عند التفصيل في السنن المختلفة وأحكامها، ولكن ما يعيننا هنا هو دعوة الشيخ وتأكيديه على أهمية فهم هذه السنن وتعلمها والاعتبار بها، فيقول معللاً سبب تأخر المسلمين وضياع عزهم: "تري

<sup>1</sup> ينظر تفسير المنار 155/4

<sup>2</sup> سيد قطب، في ظلال القرآن 1/ 479

شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن الإلهية، وما ضاع ملكهم وعزهم إلا بجهلها الذي كان سببا لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن<sup>1</sup>.

ثم تحدث الشيخ مبينا حال فريقين من الأمة، فريق مقلد يعيش بعيدا عن هداية القرآن متمسكا بما كتبه المتكلمون في العقائد، وما كتبه الفقهاء في أحكام العبادات والمعاملات والعقوبات، ويجعل من القرآن وسوره رُقا وتمايم ويتعبدون بتجويد ألفاظها من غير فهم معانيها، ويتكسب بها القراء في المآتم، وفريق آخر بلغ به الجهل والخصومة للفريق الأول، حتى ادعى أن الإسلام هو السبب في جهل المسلمين وضعفهم، ودعا إلى اقتباس العلوم الاجتماعية والسنن في الخلق والعمران من غير المسلمين الذين سادوا وتقدموا بهذه العلوم وما تبعها من فنون الصناعات، ونسي هؤلاء لشدة جهلهم بالإسلام أن كتاب الله هو المرشد الأول لسنن الاجتماع والعمران، ثم توجه الشيخ باللوم إلى المسلمين الذين غفلوا عن هذا العلم فلم يوثقوه ولم يدونوه، فقال: "ولكن المسلمين قصرُوا في طور حياتهم العلمية عن تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالحاجة إليه، وكان حقهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس به علما؛ لأن كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدعو إليه"<sup>2</sup>. وهكذا تأخذ الشيخ الحسرة على حال المسلمين وبعدهم عن مقاصد القرآن وتعاليمه وأسباب هدايته وهم أحوج الناس اليوم إلى فهم وتعلم السنن الإلهية من خلال القرآن الكريم.

رابعا: يبين الشيخ كيف غفل علماء المسلمين عن علم السنن وخاصة المفسرين، ولم ينتبهوا إلى أنه من أعظم علوم القرآن التي يُهتدى بها إلى صلاح الأمة والمجتمع، ويُتوصل بها إلى بناء حضارة إنسانية راقية، وبين الشيخ أن الصحابة رضوان الله عليه، كانوا يفهمون القرآن على السليقة، ولا حاجة بهم لتدوين علومه أو دراستها حتى يفهموا القرآن ومقاصده، فمن الناحية اللغوية فقد نزل القرآن بلغتهم وكانوا أعرف الناس بها وأفصح الناس في استعمالها، ومن الناحية الفقهية كانوا كذلك أفقه الناس فقد نزل والرسول بين أظهرهم، على واقع يعيشونه ويعالج أحداثا نزلت بهم، فيفهمون أحكامه وإن اشكل عليهم شيء سألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

<sup>1</sup> تفسير المنار 482/9

<sup>2</sup> تفسير المنار 482/9

أما السنن الإلهية التي يتحدث عنها كتاب الله، وبيئتها للناس من خلال ما يقصه علينا من أحداث حصلت وأخبار وقعت في الأمم السابقة فقد كان الصحابة يفهمونها كذلك ويهتدون بها، ولكنهم لم يكونوا يدونون هذه العلوم التي يفهمون بها القرآن لعدم حاجتهم لذلك. ولكن مع طول الأمد والبعد عن زمن نزول القرآن وضعف العرب في العلوم التي يفهم بها القرآن، قام العلماء بتدوين هذه العلوم وبيان أصولها وقواعدها حتى يتسنى لهم تفسير القرآن الكريم على الوجه الصحيح من خلال فنون اللغة وعلوم الدين، واجتهد المفسرون بوضع تفاسيرهم مستعينين بهذه العلوم وأصولها، إلا أن العلم الوحيد الذي لم يدونوه ولم يتبهاوا له كان علم السنن الإلهية، مع كون المسلمين أحوج الأمم لهذا العلم من أجل صلاح أمرهم وبقاء مجدهم ودوام عزهم.

يقول الشيخ تعبيراً عما ذكرته آنفاً: "إن علماء الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين وأئمة الأمصار الذين ورثوا لغة القرآن بالسليقة وسنة النبي وبيانه له بالاتباع، كانوا يفهمون هذه السنن الإلهية في الخلق ويهتدون بها، وإن لم يضعوا لها قواعد علمية وفنية لتلقيه من بعدهم فيها، ثم زالت سليقة اللغة من علماء المؤلّدين، فصاروا يفسرون القرآن بقواعد الفنون التي وضعوها للغة وللدين بقدر معارفهم الممزوجة بما ورثوا وما كسبوا من الشعوب التي اهتدت بالإسلام، ولم يكن علم الاجتماع مما دونه أحد، فهذا لا نرى في تفاسيرهم شيئاً من هذه السنن الخاصة بسياسة الأمم، بل تتكبو هداية القرآن فيها فكانت عاقبة أمرهم ما نشكو منه ونحاول تلافيه"<sup>1</sup>.

فيعزو الشيخ حال الأمة وما أصابها من ضعف وهوان إلى تتكب العلماء هداية القرآن وما فيه من سنن إلهية، وعدم تدوين هذا العلم وفهمه في ضوء هداية القرآن وتوجيهاته.

**خامساً:** عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]، استفاض الشيخ في بيان عاقبة الظلم والفساد، وكيف تجري السنن الإلهية

على الأمم عند وقوعها في هذه الآفات، وتحدث مبدعاً في بيان هذه السنن بما سأتي عليه لاحقاً، ولكن الذي

<sup>1</sup> تفسير المنار 204/12

يعنينا هنا هو حرص الشيخ على بيان أهمية هذا العلم، وضرورة استخراجِه من آيات القرآن الكريم، فهذه الآية كغيرها كثير من الآيات تتحدث عن قواعد علم الاجتماع الذي لا يزال علما حديثا، ثم بين هذا العلم بقوله: "وهو العلم بسنن الله تعالى في قوة الأمم والشعوب وضعفها وعزها وذلتها وغناها وفقرها وبدوتها وحضارتها وأعمالها ونحو ذلك. وفائدة هذا العلم في الأمم كفائدة علم النحو والبيان في حفظ اللغة، وفي القرآن الحكيم أهم قواعده وأصوله"<sup>1</sup>.

فلا يكتفي الشيخ -رحمه الله- بالتنكير بهذا العلم وقواعده الموجودة في هذه الآية، بل إنه يبين أهمية هذا العلم حتى يشبه فائدته في حفظ الأمم وعزتها، بفائدة علوم النحو والصرف والبلاغة ودورها في صيانة اللغة العربية وحفظها، ثم عدّه من أرفع أصول القرآن الكريم وقواعده، وذكر أن من علماء المسلمين المتأخرين من تنبه لهذا العلم، فبدأ بذكر ابن خلدون وكيف جعله علماً مدوناً يتقدم بشكل تدريجي كما تقدمت غيره من العلوم المستحدثة، إلا أن المسلمين لم يكملوا المشوار من بعده، في حين سبق إلى ذلك علماء الغرب فاستفادوا مما وضعه ابن خلدون وبنوا عليه فسادوا بذلك على المسلمين الذين جعل قسم جاهل منهم هذا العلم وراء ظهورهم، وتعلقوا بعقيدة الجبر وعزّوا أنفسهم بأنّ ما أصابهم من علامات آخر الزمان وقرب قيام الساعة، وجعل قسم آخر أجهل من الأول للإسلام كله وراء ظهورهم متهمين إياه بأنه هو سبب فشلهم وتأخرهم.

فيقول الشيخ: "وقد سبق بعض الحكماء المسلمين إلى بيان بعضها، وبدأ ابن خلدون بجعله علماً مدوناً يرتقي بالتدريج كغيره من العلوم والفنون"، ثم أكمل مبينا كيف انتفع الغرب بكتابات ابن خلدون في حين أعرض المسلمون عنها إلى أن قال: "ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية على شدة حاجتهم إليها بسبب ما وصل إليه تنازع البقاء بين الأمم في هذا العصر، وإنما نرى بعضهم يعزي نفسه عن ضعف أمته ويعتذر عن تقصيرها بالقدر الذي يفهمه مقلوبا بمعنى الجبر أو يسليها بأن هذا من علامات الساعة وارتكس بعضهم في

---

<sup>1</sup> تفسير المنار 96/8

حمأة جهله بالإسلام حتى ارتدوا عنه سرا أو جهرا زاعمين أن تعاليمه هي التي أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم، والتمسوا هداية غير هدايته ليقوموا بها دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين<sup>1</sup>.

**سادسا:** في ختام سورة هود خصص الشيخ الباب السادس للحديث عن سنن الله تعالى المستخرجة من السورة، وجعل الفصل الثالث من هذا الباب للحديث عن سنن الله في الاجتماع والعمران، وسوف أعود لهذا الفصل وشواهدة لاحقا، ولكن الذي أحببت أن أؤكد عليه هنا هو اهتمام الشيخ بهذا العلم، وأن العمل وفق قواعده هو من أصول التقوى التي لا تقتصر على فعل الطاعات وترك المنكرات كما يفهمها البعض، فقد توقف الشيخ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49] وبين أن سنة الله تعالى في جعل العقاب للمتقين هي الركن الركين لقواعد الاجتماع في ظهور وانتصار الجماعات، دينية كانت أو سياسية، وفي علو الأمم والشعوب وتغلبها على أعدائها وخصومها، كما أنه هو الأساس الراسخ لفوز الأفراد في أعمالهم الدينية والدنيوية من مالية واجتماعية<sup>2</sup>.

ثم توسع الشيخ في بيان معنى التقوى، فقد عاب على العلماء التقليديين في الأزهر وغيرهم من الذين لا بضاعة لهم في التفسير إلا ما أخذوه من كتب التفسير السابقة، وقصروا التقوى على فعل الأوامر واجتناب النواهي وبتفسير مجمل جعلوا المتقين هم المسلمين الصالحين، وقد قصر هؤلاء في البيان التفصيلي لمعنى التقوى في الأفراد والجماعات وتقوى الأمة، ولم يشر أحد منهم إلى معناها العام في انقاء كل ما يفسد العقائد والأخلاق، والروابط الخاصة والعامية، ثم بين الشيخ أن من التقوى فهم سنن الله تعالى في الأمم والعمل وفقها فقال: "وتحري ما يصلحها بهدي الكتاب والسنة، وما أرشد إليه من سنن الله - تعالى - في حياة الأمم وموتها، وقوتها وضعفها، وبقاء دولها وزوالها، وكون هذه السنن مطردة في جميع الشؤون العامة من منزلية

<sup>1</sup> تفسير المنار 97/8

<sup>2</sup> تفسير المنار 200/12

ومدنية ومالية وحربية وسياسية، لا تبديل لها ولا تحويل، ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل، وبهذا كله تكون العاقبة المرجوة لهم في السيادة والسعادة"<sup>1</sup>.

ويلاحظ هنا كيف عمم الشيخ السنن في كل ما يخص بناء الأمم، فهناك سنن متعلقة بالقضايا السياسية وأخرى بالقضايا المالية والاقتصادية، وكذلك بالأمور الحربية، وغيرها، وإن التقوى عند الشيخ في المفهوم العام تعني اتقاء الله في عدم التفريط في السنن الإلهية اللازمة لبناء الأمم القوية والتمسكة، وإن التقوى ليست تقوى الأفراد فقط بل تقوى الجماعات والأمم أيضا، وقد تحدث الشيخ بشكل أوسع عن هذا المفهوم للتقوى عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَعْفَ رَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

فالفرقان كما يفسره الشيخ هو الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء من عباده فيفرق بها بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل وبين ما ينفع الأمة وما يضرها، وما يرفعها وما يخفضها، وبين ما يعزها وما يذلها، وهذا الفرقان لا يتأتى إلا من خلال التقوى بمفهومها العام، فإله عزوجل قد دعانا في الكثير من المواضع في القرآن أن نتقيه ونتقي النار، وذلك من خلال اتقائنا للشرك والذنوب، وكذلك باتقاء الفتن في الأمم والدول، واتقاء الهزيمة، وبتقاء الإجحاف بحق النساء، وبين أن المتقين هم الذين يرثون الأرض من بعد أهلها، فالتقوى بمفهومها العام هي اتقاء ما يضر الإنسان بشكل خاص والناس بشكل عام، وأن نتقي ما يبعدنا عن الأهداف العليا والغايات الرفيعة والمقاصد الحسنة، وإذا كان العلماء قد بينوا أن التقوى عبارة عن تجنب كل يقع من المعاصي والخطايا، فقد زاد الشيخ في بيان معنى التقوى فقال: "وزدنا على ذلك: اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون، كالنصر على الأعداء، وجعل كلمة الله هي العليا... وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة - وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الإنسان مجتمعا ومنفردا كما أرشد إليه في آيات من كتابه، ومن ثم كانت ثمرة التقوى

<sup>1</sup> تفسير المنار 201/12

العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله، وما يجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله، وما يجب تركه، وتتكبير الفرقان للتنوع التابع لأنواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم"<sup>1</sup>.

وللحقيقة أقول: إن مثل هذا التفسير الواسع والرائع لمعنى التقوى وربطه مع مفهوم السنن الإلهية في الأمم لم أجده إلا هنا عند الشيخ في تفسير المنار، فلقد سمعنا عن العبادة في مفهومها الخاص ومفهومها العام لتشمل كل عمل يقوم به العبد ابتغاء مرضاة الله تعالى، أما التقوى بالمفهوم العام فمثل هذا البيان يعد من إبداعات وتجليات الشيخ في تفسيره، بل مما فتحه الله تعالى على مفسر يسعى لجعل تفسيره منار هداية وإصلاح وسبيل استقامة ورشاد لأمة تاهت في طلب عزتها وسعادتها في مناهج وضعية بعيدة عن القرآن الكريم.

---

<sup>1</sup> تفسير المنار 539/9

## الفصل الثالث

### السنن الإلهية في بناء الأمم ونهضتها في تفسير المنار

لا تقوم نهضة الأمم على الصدفة والعشوائية، ولا تقوم من خلال المعجزات الخارقة وانتظار المفاجآت الغيبية، والتوقعات أو التنبؤات الوهمية، ولا تقوم من خلال مزاعم المنجمين في استطلاع الأبراج السماوية وما تقوله النجوم، ولا يمكن لأحد أن يضرب في الغيب ليقول ستنهض أمة وتسقط أخرى، وفق ما يراه من حسابات فلكية أو روايات عجائزية.

وإنما تقوم النهضة على أسس وقواعد تكاملية وضعها الله تعالى بحكمته، وأجراها بقدرته، وسماها (سنة الله)، وهذه السنن لا بد من تحقيقها وتوافرها حتى تنهض الأمة وتلحق في فضاء الأمم الحضارية التي صنعت التاريخ، فكانت فاعلة فيه، وذلك تماما كما يجب أن تتوفر جميع الأسس والعوامل المتكاملة لتحليق الطائرة أو تشييد بنيان عريق.

وفي هذا الفصل، سأحاول استجلاء السنن الإلهية التي تحدث عنها الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره، مبينا أنها السنن الفاعلة في نهضة الأمم وترقيتها، وأنه لا بد للأمة من الأخذ بها حتى تشق طريقها بين الأمم المتقدمة، بل حتى تتفوق عليها وتعود إلى سالف عهدها في العزة والازدهار والشهود الحضاري الذي أراده الله لها، وأرادها له حين قال: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143].

ولا بد من التنبيه إلى أن السنن الإلهية في نهضة الأمم هي سنن تكاملية، بمعنى أنه لا يمكن الأخذ بسنة منها ثم ننتظر أن تنهض الأمة بها دون الأخذ بالسنن الأخرى، فإنما يكون النهوض على قدر الأخذ بهذه السنن الخيرة والنافعة، فكلما زاد الخير والنفع كلما كانت الأمة إلى الفوز والفلاح أقرب، وتبتعد عنه بقدر ابتعادها عنها.

وقد ارتأيت أن أبدأ هذا الفصل بأهم السنن وأعلاها وأرفعها ألا وهي السنن العقائدية في نهضة الأمم.

## المبحث الأول: السنن العقائدية في نهضة الأمم في تفسير المنار

العقيدة هي التصور الكلي عن الكون والإنسان، وعن الحياة وما قبلها وما بعدها، ولا يمكن للإنسان أن يحيى بغير عقيدة يعطي من خلالها الإجابة عما يدور في خلد من أسئلة عن سر هذا الوجود، وسواءً كانت هذه الأجوبة صائبة أو خاطئة فإنه يعيش معها، ويتخذها متكاً له في منطلقاته الحياتية والاجتماعية، إلا أنه على قدر ما يكون التصور العقائدي سليماً، والأجوبة عن أسرار الوجود صحيحة، على قدر ما تكون العقيدة دافعا للنجاح والفلاح، ومنطلقاً للنهوض، والصعود.

ولا يكفي صواب العقيدة وصحة التصورات، ولكن يجب أن يتبع ذلك رسوخ العقيدة وقوتها في النفوس. يقول الدكتور هيشور: "لا مرأ أن نهوض الأمة حضارياً مرهون بقوة عقيدتها الدينية الثابتة في نفوس أبنائها، ولعل من أنجح الأساليب وأكثر المناهج فعالية في البناء الحضاري هو الحديث عن قضايا الأمة العقائدية ومبادئها السامية، لأن العقائد والمبادئ تنزل إلى أعماق الأمة، وتخالط وجدان الإنسان، وبالتالي تغدو القوة الحقة المحركة للتاريخ الاجتماعي والحضاري للأمم"<sup>1</sup>.

والإيمان بالله تعالى هو القوة الدافعة والدافعة كما يقول الشهيد سيد قطب -رحمه الله-، فقوة الإيمان هي التي تجمع جوانب البشرية كلها وتتجه بها إلى وجهة واحدة وتطلقها، وتستمد من قوة الله، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها، وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية<sup>2</sup>.

وإذا أمعنا النظر في تفسير المنار عند كلام الشيخ عن الإيمان وأثره في نصر الأمة ونهضتها، سنجد أنه يجعل من الإيمان والعقيدة أساس السنن الإلهية في التمكين للأمم واستعلائها في الأرض، فالإيمان والعقيدة هما القوة والعامل المعنوي الذي يجعل من بقية العوامل فاعلة مؤثرة. فالعقيدة هي العامل المركب والمدمج لعناصر النهضة إذا ما التقت واجتمعت فتجعل منها حضارة خلاقة مزدهرة، ذلك أن كل حضارة كما يقول مالك بن

<sup>1</sup> هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 188

<sup>2</sup> سيد قطب، في ظلال القرآن 1338/3

نبي لا يكفي أن تقوم على العناصر الظاهرية والتي حددها بالتراب والزمن والإنسان، بل لا بد لها من عامل مركّب يساهم في استثمارها ودمجها مع بعضها البعض لتكوين الحضارة، فيقول: "إذا كانت الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان والتراب والوقت، فلم لا يوجد هذا الناتج تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة؟ ... وإنه لعجب يزيله اقتباسنا للتحليل الكيماوي: فالماء في الحقيقة نتاج للهيدروجين والأكسجين، وبرغم هذا فهما لا يكونانه تلقائيا، فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عملية تكوّن الماء. وبالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي الآتي مفصلا، نجد أن هذا (المركب) موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ"<sup>1</sup>.

ومن هذا المنطلق وجدت أن الشيخ رشيد رضا كثيرا ما يتحدث عن الإيمان كسنة إلهية من سنن النهضة في حياة الأمم، وكعامل معنوي أساسي في تحقيق النصر، وسأبين ذلك من خلال المطالب الآتية:

### المطلب الأول: الإيمان من سنن النصر المعنوية

بين الشيخ أن الإيمان من أهم سنن النصر المعنوية، خاصة عندما يعمل المؤمنون بمقتضيات الإيمان من عدل وإعداد وغير ذلك من الأسباب المادية للنصر، فالإيمان من أهم الأسس المعنوية للنصر، ومن تساوت عندهم الأسباب المادية يكون الإيمان هو المرجح لحصول النصر والغلبة، وقد ذكر ذلك عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْعَامِ﴾ [الأنعام: 34] فبيّن أن ثبات الرسل في وجه المكذبين وصبرهم وتوكلهم على رب العالمين عند شدة البأس ووسوسة الشيطان باليأس، كل ذلك سببه تأثير الإيمان في نفوس المؤمنين، ثم قال: "ومن كان حظه من صفات الإيمان ولوازمه أكبر كان إلى نيل النصر أقرب إذا كان مساويا لخصمه في سائر أسباب القتال ولا سيما حسن النظام وجودة السلاح"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> مالك بن نبي، شروط النهضة، ص46

<sup>2</sup> تفسير المنار 317/7

وإن كان لا بد من التذكير في هذا المقام بأن النصر قد يتأخر عن المؤمنين أحيانا من أجل تمحيصهم وتمييز الخبيث من الطيب، وقد تمسهم البأساء والضراء امتحاناً وابتلاءً لهم وذلك تحقيقاً لقول الله تعالى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179]، وقوله تعالى:

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٥٠﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2-3] وأن ثبات المؤمنين على الحق وصبرهم على الأذى والتكذيب إنما

هو من سنة الله في تقريب النصر ومجيئه تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ؕ أَلَا إِنَّ

نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝﴾ [البقرة: 214] إلا أن الحقيقة التي لا بد من فهمها أن عاقبة المؤمنين والمتقين النصر

وإن سنة الله مطردة لا تتخلف في تحقيق الظفر والنصر للمؤمنين.

وحتى لا يقول قائل ها هي أمة الإسلام تعاني الضعف والذل والهوان على الرغم من إيمانها وإسلامها

وقراءتها القرآن، يبين الشيخ في هذا المقام أن النصر المستحق ليس لمن يدعي الإيمان ادعاءً فارغاً من

المضمون الحقيقي للإيمان، فنبأ المرسلين الذي جاءنا الله به وأمرنا ان نعتبر به وأن نأخذ السنن من خلاله،

هو تحقيق النصر لهم على أعدائهم، وإن الله كما نصر أصفياه المرسلين كذلك ينصر أوليائه المؤمنين

إيماناً صحيحاً صادقاً، فالعبرة في كلام الله عز وجل أن ما وعد الله به المرسلين من النصر والتمكين قد

وعد به عباده المؤمنين، واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ

يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَأَتَقَمَّنَ ٱلَّذِينَ

أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47].

وقال: "وهي نص في تعليل النصر بالإيمان. ولكننا نرى كثيرا من الذين يدعون الإيمان في هذه القرون

الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين،

ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننه في أسباب النصر غير متبعين<sup>1</sup>، ذلك أن وعد الله لا يتخلف وسننه جارية لا تتعطل، فمن يصدق في إيمانه وينصر الله ويعلي كلمته ويسعى في مجاهدة الباطل بالحق والعدل لا بد أن ينصره الله تعالى، وليس الذين يظلمون الناس ويسعون في الأرض بغير الحق.

وكان الشيخ قد أشار إلى أن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53] نصّ قطعي واضح في أهمية العقائد وتأثيرها في الأمم ودورها في بعث العزة في النفوس في السنّة الثامنة من ملخص سورة هود: "تغير أحوال الأمم، وتنقلها في الأطوار من نعم ونقم، أثر طبيعي فطري لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والملكات التي تطبعها في الأنفس العادات، وتترتب عليها الأعمال"<sup>2</sup>، فالعقيدة التي في النفوس لها أثر كبير على تغيير واقع الأمة وحالها، وكلام الله موجه للجماعة وليس للفرد، فالتغيير الجماعي له تأثير لا على الفرد، إنما على الأمة ككل، وأهم ما يقع عليه التغيير في النفوس هو العقيدة والإيمان.

ويضرب الشيخ أمثلة على سنة الله في جعل الإيمان والعقيدة سببا حاسما في تحقيق النهضة والنصر للأمة، ويستشهد بأقوال علماء الاجتماع والنفوس وزعماء السياسة وقادة الجيوش، فقد ذكروا على سبيل المثال من أسباب انتصار البُوير<sup>3</sup> على الإنجليز في معارك عدة في مواجهة الترنسفال<sup>4</sup> أن الدين والعقيدة عند جنودهم كان أقوى وأشد منه في جنود الإنجليز<sup>5</sup>.

ثم نقل الشيخ عن أحد زعماء الغرب في العصر الحديث وهو من القادة الذين ظن كثير من التغريبيين من أبناء الإسلام أنهم قدوتهم ومثالهم في التقدم والرقي، وأن رقيهم ما كان الا بترك الدين والبعد عن العقيدة والإيمان، في حين أن عظماء الغرب كان لهم عناية بالغة بالإيمان ودوره في تحقيق النصر وبث روح القتال

<sup>1</sup> تفسير المنار 317/7

<sup>2</sup> تفسير المنار 124/10

<sup>3</sup> البُوير والواحد بُويري (وتعني الفلاح) جماعة من المستوطنين المسيحيين الهولنديين الذين توغلو في أفريقيا من الجنوب باتجاه الشمال

<sup>4</sup> مقاطعة في جنوب شرق جنوب أفريقيا

<sup>5</sup> تفسير المنار 21 /10

والدفاع عن الوطن، فنقل عن الزعيم الألماني البرنس بسمارك<sup>1</sup> كلاماً في أثر العقيدة في نفوس الشعوب، إذ يصل هذا الأثر إلى القلوب فيهبها من أعماقها، حتى تصير مُحبة للموت من أجل أوطانها وقضاياها، ولا تنتظر على ذلك جزاء دنيوياً، حيث استقر الإيمان في النفوس والضمائر، وبين الزعيم الألماني سبب ذلك فقال: "ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيمنا يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت وإن لم يكن قائده يراه"<sup>2</sup>. ويكمل الشيخ في النقل عن هذا الزعيم واعتقاده بأثر الإيمان في حياة الشعوب والجند المدافعين عن الوطن، حيث رد على من سأله إن كان العساكر يلاحظون في أعمالهم أنهم مؤمنون؟ بأن الإيمان ليس من قبيل الملاحظات ولكنه إحساس ووجدان وبنوادر تتقدم الفكر، وهو انجذاب داخل النفس ورغبة فيها حتى يصير كأنه غريزة، إلى أن يقول: "هل تعلمون أنني لا أفهم كيف يعيش قوم، وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليهم، إن لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحي سماوي، واعتقاد بإله يحب الخير، وحاكم ينتهي إليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة؟"<sup>3</sup>، وتحدث الزعيم الألماني عن نفسه مرة أخرى وبين أنه لولا الإيمان برب هذا الكون وبالآخرة التي يجزى فيها الناس بما عملوا لما خدم قيصر بلاده وأتعب نفسه في توحيد الألمان وإقامة الأمة الألمانية العظيمة، ولأثر العيش المنفرد في حقوله ومزارعه على خدمة رؤسائه، قال الشيخ: "والشاهد في كلامه تأثير الإيمان في القتال، وإنما زدنا هذا من كلامه؛ لأنه حجة على ملاحظتنا دعاء التجديد بترك الدين اتباعاً بزعمهم الكاذب لأهل أوربة"<sup>4</sup>.

من الملاحظ هنا كم أكد الشيخ على أهمية العقيدة في بعث همة أبناء الأمة نحو تحقيق النهوض والخروج من ضعفها وذلك إلى عزتها وكرامتها، فعلى الرغم من تأكيد الشيخ على أهمية الأخذ بالسنن الأخرى وخاصة

<sup>1</sup> أوتو فون بسمارك (1815 - 1898م) رجل دولة وسياسي بروسي - ألماني شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يسمى الرايخ الألماني الثاني وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها، وله باع طويل في السياسة والحرب. ينظر المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 11/299

<sup>2</sup> تفسير المنار 10/21

<sup>3</sup> تفسير المنار 10/22

<sup>4</sup> تفسير المنار 10/22

المادية والعملية من علم وتسليح تخطيط وإعداد وغير ذلك من الأمور، إلا أنه لا يُغفل أهمية الإيمان ودوره المعنوي، وكونه أهم السنن الإلهية في تحقيق النصر والنهضة، وهو بذلك يرد من غير مجارة أو مداهنة على من بهرتهم مدنيتة الغرب فيريدون بناء الأسباب على المسببات المادية فحسب، ويريدون ربط كل نتيجة بمسبباتها الظاهرية العلمية دون التفات للإرادة الربانية والسنن العقائدية، ظنا منهم بذلك يأخذون بما أخذ به الغرب الذي لم يحقق رقيه ونهضته وتقدمه إلا بتخليه عن التعلق بالدين وقضاياه الغيبية بزعمهم، ناسين أو متناسين أن العديد من الدول الغربية لا زالت تنبض بمعتقداتها وتمسك بدياناتها إلى يومنا هذا<sup>1</sup>.

وقد عبر الشيخ عن ذلك بأمثلة من الواقع الذي يعيشه، فما وقع الترك والمصريون وغيرهم من شعوب المسلمين في الضعف إلا بتركهم هداية القرآن، وتخليهم عن سنن الله في العمران ومنها الأمور الروحية، في حين أخذ الغرب بهذه السنن حتى تقدموا على المسلمين وتغلبوا عليهم، فقال: "وقد اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام في الاستعداد في الأمور الروحية من سنن الله في العمران فرجحت بهم كفة الميزان"<sup>2</sup>.

وعن أثر الإيمان والعقيدة في تحقيق النصر أورد الشيخ في السنة الحادية عشر من السنن الاجتماعية المستفادة من قصة طالوت أن الثبات والصبر والنصر في الوقائع والحروب إنما يكون بالإيمان والتصديق بقاء الله، فالمؤمن بالله المصدق بقاءه، يمدده الله بمعونته كما يمدده بالقوى الروحية والجسدية، حتى يستهين بما حوله من أهوال فيثبت كالجبال الراسية، وهذا ما أكده حكماء الغرب متفقين بذلك مع ما جاء في القرآن الكريم<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> على سبيل المثال، نجد أن ألمانيا قد حكمها بعد الحرب العالمية الثانية الحزب الديمقراطي المسيحي، وهو بهذا الاسم يؤكد على هوية ألمانيا المسيحية، وقد استمر هذا الحزب في الحكم في ألمانيا معظم الوقت حتى عام 2021م

<sup>2</sup> تفسير المنار 555/9

<sup>3</sup> تفسير المنار 393/2

## المطلب الثاني: ذكر الله تصديقا واعتقادا من سنن النصر

عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45] وبعد أن تحدث الشيخ عن أهمية الثبات وكونه عاملا قويا في تحقيق النصر والعزة

وضرب أمثلة من واقع الأمم المتصارعة، ينتقل للحديث عن أهمية ذكر الله عز وجل وحسن التوجه إليه وقوة

الإيمان به والاعتقاد بنصره وأنه تعالى هو الذي يقف إلى جانب المؤمنين ويحقق لهم النصر على الأعداء،

فبيّن أن الإكثار من ذكر الله يكون عند ملاقاته العدو وخلال القتال، ولا يقتصر الذكر على اللسان، ولكن

يكون الذكر بالقلوب من خلال الشعور باليقين بنصر الله تعالى وتحقيق وعده، وبذكر قدرته وقوته تعالى

وأنه ينصر كل من سار على سننه واتبعها، فمهما اشتد الأمر وزاد الضغط على المؤمنين فلا بد أن نذكر

نهي الله لنا عن اليأس، لأن النصر بيده ومن عنده، يهبه لمن يشاء، فمن أدرك هذه المعاني وتأمل فيها لا

تهوله قوة عدوه وعدته، لإيمانه بأن الله تعالى أقوى منه<sup>1</sup>.

ويؤكد الشيخ أن طبيعة الذكر المراد في الآية هو الذي توافق فيه الألسنة القلوب، فعندما نكبّره يجب أن نعتقد

استصغار كل ما سواه، وعندما ندعوه ونتضرع إليه فيجب أن نعتقد يقينا أنه القادر على استجابة الدعاء

وتحقيقه، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فيقول: "واذكروه أيضا بألسنتكم موافقة لقلوبكم بمثل

التكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كل ما عداه، والدعاء والتضرع إليه عز وجل مع اليقين بأن لا

يعجزه شيء"<sup>2</sup>.

ويمضي الشيخ في تفسير الآية وبيان أهمية العقيدة وكونها أهم السنن الإلهية في النصر ونهضة الأمم، وأن

الفلاح المذكور في الآية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ منوط بالثبات وذكر الله، وكلاهما أمران معنويان أساسيان

في الفلاح والفوز، فالأمر الأول وهو والثبات وأثره في النصر واضح بين، وأما الأمر الثاني وهو ذكر الله،

<sup>1</sup> تفسير المنار 20/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 21/10

فالأمثلة عليه ظاهرة كثيرة، فمن أهمها كون الآية جاءت في سياق الحديث عن القتال ولقاء العدو، وكذلك سورة الأنفال بمجملها تتحدث عن القتال وأحكامه والسنن الإلهية التي وضعها له، فكان الحديث عن غزوة بدر وما فيها من دروس وعبر، إلى أن قال: "وقد كان الكفار يمترون في كون الإيمان - ولا سيما الصحيح وهو إيمان التوحيد الخالي من الخرافات، وما يستلزمه من التوكل على الله تعالى في الشدائد ودعائه واستغاثته من أسباب النصر في الحرب"<sup>1</sup>، فهذه الآية من أظهر الأمثلة وأوضحها في أثر الإيمان ودور العقيدة والذكر والدعاء كسنة من سنن الله في تحقيق نصر المؤمنين في غزوة بدر.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم امتثل أمر الله بالإكثار من الذكر والدعاء، فقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال: 9] فأمده الله بالملائكة<sup>2</sup>.

ثم ذكر الشيخ مثالا آخر من واقع الأمة الإسلامية فيبين ما أصاب الترك عندما ادعوا الإسلام ادعاء وقد أعرضوا عنه حقيقة، فذكر أن السبب الرئيس في هزيمة الترك في الحرب البلقانية الشهيرة على يد البلغار هو ما قام به قادة الأتراك من وقف للأذان ومنع للصلاة في كتائب الجيش التركي وفرقه، حيث دعوا إلى القتال باسم الوطن ومن أجل الوطن ولشرف الوطن، ولكن عندما تنبهوا وعلموا أن إعراضهم عن الله وذكره هو سبب خسرانهم، حاسبوا أنفسهم وأعادوا الأذان، قال الشيخ: "فلما علموا بهذا أعادوا المؤذنين والأئمة

<sup>1</sup> تفسير المنار 21 / 10

<sup>2</sup> صحيح مسلم، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ح 1763، 1383/3

بعمائمهم إلى كل تابور، وأقاموا الصلاة فيهم. وقد روت الجرائد أن العساكر لما سمعت الأذان صارت تبكي بكاءً بنشيج عال كان له تأثير عظيم، وكان تأثير ذلك يعود الكرة لهم على البلغار ظاهراً<sup>1</sup>.

ونقل عن الزمخشري كلاماً بليغاً في أهمية الذكر وكيف أكثر منه السلف الصالح عند مقابلة أعدائهم جاء فيه: "وفيه إشعار بأنّ على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه وأن يكون أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هما، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره"، وقد استدلل الزمخشري بخطب علي رضي الله عنه عند محاربتة الخوارج، وفي معركة صفين، حيث كانت هذه الخطب تفيض بلاغة وبيانا وعظة وإيمانا فلم يكن يشغلهم شاغل عن ذكر الله والتعلق به مهما اشتدت الأمور<sup>2</sup>.

ويختتم الشيخ حديثه عن هذه الآية الشريفة ببيان أهمية الإكثار من الذكر، ولماذا أمر الله به عباده المؤمنين عند لقاء العدو فيقول: "لأن الذكر غذاء الإيمان فلا يكمل إلا بكثرته، فمن غفل عن ذكره تعالى استحوز الشيطان على قلبه، وزين له الشرور والمعاصي"<sup>3</sup>.

وفي بيان أهمية الذكر والدعاء كسنة من سنن النصر ذكر الشيخ سنة أخرى من السنن الاجتماعية المستفادة من قصة طالوت فقد توقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا آفِرِّعْ عَلَيْنَا

صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥١﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة: 250-251]

وبين أهمية دعاء الله عز وجل والتضرع إليه كونه نافعا عند النزال، حيث عطف على الدعاء قوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثم قال: "إن التوجه إلى الله تعالى بالدعاء مفيد في القتال كما يدل عليه قوله تعالى: (فهزموهم بإذن الله) إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، وذلك معقول المعنى؛ فإن الدعاء هو آية ذلك الإيمان الذي بينا فائدته"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 10 / 21

<sup>2</sup> تفسير المنار 10 / 22، والزمخشري، الكشاف، 226/2

<sup>3</sup> تفسير المنار 10 / 22

<sup>4</sup> تفسير المنار 2 / 394

### المطلب الثالث: النصر حليف أولياء الله

بين الشيخ أن من أعظم سنن الله تعالى نصر أوليائه وخذلان أعدائه، فمن كان وليا لله نصره الله تعالى وثبته وأمهه بأسباب النصر والظفر، ومن كان عدوا لله أذله الله وخذله، فعند حديث الشيخ عن قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلَهُ لِلَّهِ فَإِنْ آتَتْهُمُ الْغَلَبَةُ فِقَاتُوا اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا

﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿[الأنفال: 38-40] بين الشيخ أن المراد بسنة

الأولين هنا هو أن الله تعالى ينصر أوليائه ويعزهم، ويخذل أعداءه ويذلهم، فالذين يحادون الله كتب الله

لهم الخسران وكتب الغلبة لعباده المؤمنين، وأنها هي السنة التي عبر عنها بمثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ أَوَّلَ بَيْتٍ فِي الْأَدْيَانِ ﴿٤٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[المجادلة: 20-21]، وقوله: ﴿إِنَّا

لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿[غافر: 51]، وهذه هي السنة المطردة

التي تجري على الأولياء والأعداء، ونقل عن مجاهد في معنى سنة الأولين قوله: "فقد مضت سنت الأولين

في قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك"<sup>1</sup>، ثم قال: "إضافة السنة إلى الأولين، لملابستها لهم وجريانها

عليهم"<sup>2</sup>، فهي ليست خاصة بالأولين وإنما هي سنة عامة وتجري على الآخرين كما جرت على الأولين.

وفي موضع سابق تحدث الشيخ موضعا أهمية الولاية لله في تحقيق النصر فعند تفسيره لقوله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانْقَلِبُوا خَاسِرِينَ

﴿١٥٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا

لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿[آل عمران: 149-151]، وهذه

<sup>1</sup> ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 1700/5

<sup>2</sup> تفسير المنار 552/9

الآيات تتحدث عن غزوة أحد وما أصاب المؤمنين فيها من هزيمة ظاهرة<sup>1</sup>، ويجب أن لا تتغلغل هذه الهزيمة إلى نفوسهم، لأن الهزيمة النفسية أشد من الهزيمة المادية، فالخطاب موجه إلى المؤمنين كي لا يسمعوا لإشاعات الكافرين، ولا لتخذيل المنافقين، وكي لا يطيعوا الكافرين في مرادهم، وينقل الشيخ عن أستاذه الإمام أن طلب المؤمنين الأمان من الكافرين والتعامل معهم تعامل المغلوب مع الغالب سيجعل المؤمنين أذلاء مقهورين، وتصبح الولاية للكافرين فيخسر المؤمنون الدنيا والآخرة<sup>2</sup>.

ويكمل الشيخ تفسيره للآيات مبينا معنى ولاية الله للمؤمنين والفرق بينها وبين ولاية الكافرين فيقول: "وإنما الله هو المولى القادر على نصركم إذا هو تولى شئونكم بعنايته الخاصة التي وعدكم بها في قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: 40]، وبين لكم أن سنته قد مضت بأنه يتولى الصالحين ويخذل من يناوئهم من الكافرين"<sup>3</sup>.

ومن جميل إيضاحات الشيخ أنه يبين سنة الله في تولي المؤمنين ونصرهم، ويستدل على ذلك بآيات أخرى من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا بَيْسَرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكُفْرِينَ أََمْثَلُهَا ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 10-11]، فبين أن علينا أن نسير في الأرض وأن ننظر في أحوال الأمم لتتعلم سنن الله في موالاة المؤمنين ونصرتهم، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم عالما موقنا بهذه السنة الإلهية، حتى أمر أصحابه عندما خاطبهم أبو سفيان بعد وقعة أحد بقوله: "لنا العزى ولا عزى لكم" أمرهم أن يردوا عليه بقولهم "الله مولانا، ولا مولى لكم"<sup>4</sup> ثم قال: "كأنه - تعالى - يذكر المؤمنين بقوله هذا المنبئ عن سنته، ويتذكير الرسول لهم به، وإذا كان هو مولاكم وناصركم إذا قمتم بما شرطه عليكم في ذلك من الإيمان والصلاح ونصر الحق"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> النيسابوري، أسباب نزول القرآن، ص125

<sup>2</sup> تفسير المنار، 145/4

<sup>3</sup> تفسير المنار، 145/4

<sup>4</sup> صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه ح 3039، 65/4

<sup>5</sup> تفسير المنار، 145/4

ثم نقل الشيخ كلام أستاذه في معنى ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 150] وفيه أن النصر الذي يكون من عند الله عز وجل لأهل الإيمان خير وأعظم من نصر أهل الكفر لأوليائهم، وأن قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: 151]، فيه بيان وتوضيح لعلة وسبب نصر الله عز وجل لأهل الإيمان الصادقين، وبيان أن الله تعالى سيجري على أهل الكفر أعداء الإسلام السنة الإلهية العادلة وهي إلقاء الرعب في قلوبهم<sup>1</sup>، وبين أن الآية عامة وهي سنة مضطردة من سنن الله في النصر والهزيمة، فقال: "الآية بيان لسنة إلهية عامة وهو الحق، وبيانه يتوقف على فهم المعنى المراد من لفظ " المؤمنين " ولفظ " الكافرين " وهو ما كان عليه المؤمنون والكافرون في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات"<sup>2</sup>.

ثم إن الإمام يدفع شبهة تراود الضعفاء من المسلمين، عندما يرون حال المؤمنين ورعبهم من الكافرين في الواقع الذي يعيشه المسلمون في العصر الحديث، حيث يتساءلون عن سبب تبدل الحال ووقوع الرعب في أفئدة أهل الإسلام بدلا من أن يقع في أفئدة أهل الكفر، فيقول: "إن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خوطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر.. فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن؛ لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق، وما كان عليه سلفهم من الإيمان والصفات والأعمال، فالقرآن باق على وعده؟، ولكن هات لنا المؤمنين الذين ينطق إيمانهم على آياته ولك من إنجاز وعده في هذه الآية وغيرها ما تشاء"<sup>3</sup>. وتلا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55].

<sup>1</sup> تفسير المنار 146/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 147/4

<sup>3</sup> تفسير المنار 147/4

## المطلب الرابع: توحيد الله وتقواه قاعدة انطلاق الأمة وتحليقها

تحدث الشيخ عن التوحيد والشرك بكلام فيه دقة الفهم وجمال العبارة، وذلك عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكُّونَ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾<sup>1</sup> أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 49-50] فبين أن التوحيد الخالص الذي هو أهم ركن من أركان العقيدة له أثر واضح على صلاح الأمة وسعادتها في الدنيا والآخرة، فيقول: "والتوحيد الذي يناقض الشرك هو عبارة عن إعتاق الإنسان من رق العبودية لكل أحد من البشر، وكل شيء من الأشياء السماوية والأرضية، وجعله حرا كريما عزيزا لا يخضع خضوع عبودية مطلقة إلا لمن خضعت لسننه الكائنات، بما أقامه فيها من النظام في ربط الأسباب بالمسببات، فلسننه الحكيمة يخضع، ولشريعته العادلة المنزلة يتبع، وإنما خضوعه هذا خضوع لعقله ووجدانه، لا لأمثاله في البشرية وأقرانه"<sup>1</sup>.

وهذا كلام واضح في أن التوحيد والعبودية والخضوع لله تعالى هو تحرر من كل ما سواه، وأن سجود الذلة لله تعالى هو عزة واستعلاء، فالسجدة لله تعالى هي سجدة الحرية كما عبر عنها بعض المفكرين<sup>2</sup>، فعبودية المسلم، وسجده لله تعالى، عنوان العلو، وشارة الحرية والبراءة من كل طاغوت، فسجدة الحرية، بها يكسر المسلم قيد الهوى، فإذا به "يصبح حراً. حراً يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازن من الله وحده، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله، فهو وكل إنسان آخر على سواء، كلهم يقفون في مستوى واحد، ويتطلعون إلى سيد واحد، ولا يتخذون بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 121/5

<sup>2</sup> تحت عنوان سجدة الحرية كتب الشيخ محمد أحمد الراشد كلاماً رائعاً، الراشد، المنطلق، ص 71، ثم نقل شعراً بهذا المعنى لعبد الوهاب عزام يقول فيه:

سجدة تخفض الجباه ولكن \*\*\* عز فيها مسيح وتعالى

ظنها الجاهلون غلاً على العبد \*\*\* ولكن تحطم الأغلالا

تهدم الشرك والوساوس في النف \*\*\* س، ولكن تشيد الأجيالا

من وعاهها: وعى السيادة في \*\*\* الأرض جلالاً، ورحمة، وجمالاً

<sup>3</sup> سيد قطب، في ظلال القرآن 407/1

ويعبر الشاعر المؤمن عبد الوهاب عزام<sup>1</sup> عن الطاقة التي يبعثها التوحيد في النفس فيجعلها تتحرك نحو صناعة الحياة الراشدة فيشبهها بالطاقة الكهربائية التي تنتج عن التقاء السالب والموجب (لا إله إلا الله) فتؤدي إلى تحريك الأجهزة الصغيرة والكبيرة، فيقول:

إنما التوحيد إيجاب وسلب وفيهما للنفس عزم ومضاء  
لا وإلا قوة قاهرة فهما في القلب قطبا الكهرياء<sup>2</sup>

فبالحركة انتشر المسلمون الأوائل مثل شعاع الشمس في أقطار الأرض، يفتحون البلاد، ويفتحون قلوب العباد، ويدعون إلى التوحيد، ويحطمون الطواغيت، ويقودون الناس إلى الجنة، وبالحركة صاروا في ظلمات الحياة سراجاً وهاجاً، فإذا الباطل رماد بعد التهاب، وخمود بعد حركة<sup>3</sup>.

هكذا يرى الشيخ محمد رشيد التوحيد مقوماً للأمة ومحرراً للإنسان من كل طاعة لغير الله إلا طاعة أولي الأمر الذين لا يأمرون بمعصية الله، وهي شرعية لا ذل فيها ولا تقديس لغير الله، ويبين أن طاعة المؤمن وانقياده للحكام هي انقياد للدين الذي قبله وارتضاه، وخضوع للمنهج الذي فيه صلاحه وصلاح الناس، وليس تقديساً وخضوعاً للرئيس وتسلمته عليهم، وليس في ذلك إذلالاً لأنفسهم، فإذا التزموا شرع الله كان عوناً لهم وإن انحرفوا عنه كان مصلحاً ومقوماً لهم، واستدل بقول أبي بكر رضي الله عنه عندما استلم الخلافة وبإيعه الناس: "وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني"<sup>4</sup>، ثم قال: "فهكذا يجب أن يكون شأن الموحد مع حكامهم، وهكذا يكونون سعداء في دنياهم بالتوحيد، كما يكونون أشقياء بالشرك الجلي أو الخفي"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> هو عبد الوهاب بن محمد بن حسن ابن سالم عزام: عالم بالأدب. مصري. ولد في الشوك 1894م ودخل الأزهر. وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي واتجه إلى الجامعة المصرية القديمة، فأحرز شهادتها في الآداب والفلسفة والتحق بقسم اللغات الشرقية، بجامعة لندن، ونال منها درجة "الدكتوراه" في الآداب الفارسية. وعاد إلى القاهرة فمنح شهادة الدكتوراه في الأدب من جامعتها. تقلد العديد من المناصب العلمية والسياسية وتوفي بمنزله بالرياض، اشتهر بنقل شعر الفيلسوف محمد إقبال وترجمته إلى العربية بصيغة الشعر، له ديوان شعر وعديد من المؤلفات. الزركلي، الأعلام، 185/4

<sup>2</sup> عزام، عبد الوهاب، المثاني، ص22

<sup>3</sup> وينظر المقدم، علو الهمة، ص260

<sup>4</sup> السيرة النبوية لابن هشام، 661/2

<sup>5</sup> تفسير المنار 121/5

أما التقوى وأهميتها ودورها في نهضة الأمة فيتحدث الشيخ عن أهميتها وتأثيرها في المجتمع، وعن أثرها في تغيير حال الأمم، ففي ملخصه لسورة الأنفال يذكر العديد من السنن الإلهية في أفراد البشر وفي الأمم، فيذكر في السادسة منها أهمية التقوى والانتباه إلى أعمالنا وأن نتقي الله فيما أمرنا به ونهانا عنه، وأن لا يقتصر ذلك على أمورنا الخاصة بل يشمل القضايا الاجتماعية العامة، ويشمل أمور الدين والدنيا، فالتقوى تجعل صاحبها قادرا على التفريق بين الخير والشر وبين الحق والباطل، فيسير في حياته بمنظور التقوى، مقدما الخير على الشر والحق على الباطل والمصلحة على المفسدة، فتأثير التقوى في النفس كبير إلى درجة أن يجعلها على صراط مستقيم لا تحيد عنه إلى باطل أو ضلال، فيكون عندها الملكة التي تجعلها بسرعة البديهة تفرق الأشياء المشتبهة، وبين ما ينصر وما يخذل وما يعز وما يذل<sup>1</sup>.

وكان الشيخ قد تحدث عن علاقة الفرقان بالتقوى عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]، فبين أن الفرقان القائم على التقوى إنما يكون بفهم السنن الإلهية في الفرد والمجتمع وفق ما بينته آيات القرآن الكريم، وأن التقوى العامة تثمر الفرقان الذي يسير المؤمن بنوره مفرقا بين الأمور التي يواجهها من علوم وأحكام وأعمال، ويميز بين ما عليه أن يقبله منها وما عليه أن يرده، وما عليه أن يفعله وما عليه أن يتركه، ثم تعرض إلى الحكمة من ورود كلمة الفرقان نكرة، فقال: "وتتكبر الفرقان للتنوع التابع لأنواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم، فكل متق لله في شيء يؤته فرقانا فيه"<sup>2</sup>، فالمسلم النقي يؤته الله تعالى القدرة على التفريق بين ما اشتبه عليه من الفتن، ومن لبس بين الحق والباطل، وخط بين الخير والشر، وبين ما هو نافع وضار، وبين سنن النهضة وسنن السقوط.

ثم يسوق لذلك مثلا من سيرة السلف الأول، ويبين كيف صار خلفاء النبي -عليه الصلاة والسلام- بتقواهم أعدل حكام الأرض رغم قلة خبرتهم في السياسة ونظام الحكم وإدارة الدولة، ولكن الله تعالى أعطاهم بتقواهم

<sup>1</sup> تفسير المنار 124/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 540/9

النور الذي يميزون به بين الحق والباطل، حتى شهد لهم حكام الغرب واعترفوا بأن التاريخ لم يشهد فاتحين أعظم من العرب في العدل والرحمة، ثم يكمل الشيخ في الموضوع نفسه كيف ضعف المسلمون وزال ملكهم عندما لم يتقوا فتن السياسة والرياسة، وعندما انغمسوا في المعاصي وتركوا الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس المؤهلة للصالح في الأرض ظنا منهم أن الغرب قد ارتقى بفجوره وفسقه، ونسوا أن فيه حكماء وأبرار وقفوا حياتهم على العلم والعمل<sup>1</sup>.

من خلال ما سبق يتبين لنا بوضوح كيف أن الإيمان والعقيدة سنة أساسية من السنن الإلهية في نصر الأمة وتحقيق نهضتها، وقد أبرز الشيخ في تفسيره المنار هذه السنة في عديد من المواضع، ومعنى هذه السنة أنه حيث وجدت العقيدة الصحيحة والإيمان الخالص وجد النصر والتمكين، فهي واحدة بوحدة أو شرط بشرط، فلا نطلب عزة ونصرا بغير عقيدة وإيمان، ولا نطلب الغلبة والثبات بغير توحيد الله وتقواه، وذكره، وموالاته على الوجه الذي أمرنا به ودعانا إليه.

---

<sup>1</sup> تفسير المنار 9 / 540

## المبحث الثاني: السنن الأخلاقية في نهضة الأمم في تفسير المنار

لم يأت أمير الشعراء بفكرة جديدة ولا بمعنى مبتدع عندما جعل بقاء الأمم مرتبطاً ببقاء الأخلاق، وجعل ذهابها مقروناً بذهابها، ولكنه صاغ هذه الفكرة وسبك هذا المعنى في قالب لفظي وشعري جميل، جعله مروياً على الألسنة، ومتاقلاً بين الناس، فإذا ما تحدثت متحدث عن أثر الأخلاق في بقاء الأمم وفنائها أو في بنائها وهدمها، سرعان ما يأتي بالبيت المشهور:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا<sup>1</sup>

إن ارتباط نهضة الأمم وسقوطها بالأخلاق هو سنة إلهية تحدث عنها القرآن الكريم ولا يمكن تجاهلها، وقد تحدثت عنها الفلاسفة القدماء من مختلف الأمم، فقد وضع أرسطو لليونانيين كتابه الأخلاق، ووضع كونفوشيوس تعاليمه في مجال الأخلاق لأهل الصين، وفي بلاد فارس ظهرت تعاليم زرادشت، وكانت في جلها تعاليم أخلاقية تقوم على الصراع بين الخير والشر.

ولما جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم جعل دعوته كلها قائمة على الأخلاق، فقال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>2</sup>، وكان القرآن الكريم يمثل المنهج الأخلاقي الذي ينبغي على المسلمين التعامل به، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم خير مثال وأسوة لمن يتمثل القرآن في أخلاقه وسلوكياته، حتى أجابت أم المؤمنين السيدة عائشة -رضي الله عنها- من سألها عن خلق رسول الله بقولها "كان خلقه القرآن"<sup>3</sup>، فمن قرأ القرآن الكريم فقد استغنى عن كل كتاب آخر في الأخلاق، فقد روي أن أبا الوليد الباجي<sup>4</sup> عالم الأندلس

<sup>1</sup> إبراهيم الأبياري الموسوعة الشوقية، الأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقي، قصيدة صحت واستركتني شيمتي الأدب، ص 371

<sup>2</sup> أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة بلفظ "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" البخاري، الأدب المفرد، ص 143 وأخرجه الإمام أحمد بلفظ "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ح 8952، 513/14 قال المحققون: صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، ح 8949، 364/15

<sup>3</sup> مسند الإمام أحمد بن حنبل، ح 25302، 183/42 قال المحققون إسناده صحيح على شرط الشيخين

<sup>4</sup> سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي، الفقيه المتكلم المحدث المفسر الأديب الشاعر: أصل آبائه من بطليوس، انتقلوا إلى باجة- باجة الأندلس، وثم باجة أخرى بافريقية وأخرى بأصبهان. ولد 403هـ وتوفي 494، ولي القضاء بمواضع من الأندلس. وله مصنفات كثيرة منها: الاستيفاء شرح الموطأ. وإحكام الفصول في أحكام الأصول. والتسديد إلى معرفة التوحيد. الحموي، معجم الأدباء، 3/ 1387

أتى إلى الشرق، ودرس العلوم، ولما رجع إلى الأندلس، قال له بعض أبناء الملوك: هل قرأت كتاب الأخلاق لأرسطو؟ فقال له أبو الوليد: أقرأت كتاب الأخلاق الذي أنزل على محمد؟ يريد: القرآن المجيد<sup>1</sup>.

ولم يغفل علماء المسلمين عن أهمية الأخلاق في بناء الأمم، فكتبوا في إصلاح النفوس وتهذيبها، ووضعوا فلسفتهم في الأخلاق، وتحليل طبيعة النفس البشرية ومركباتها، بداية من الحارث المحاسبي<sup>2</sup> في كتابيه (الرعاية، ورسالة المسترشدين)، إلى أن جاء الفيلسوف الإسلامي مسكويه<sup>3</sup> ووضع كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)<sup>4</sup> فكان أحسن ما كتب في فلسفة الأخلاق حتى قال صاحبنا الشيخ محمد رشيد رضا: "وهذا الكتاب أحسن ما رأيت في لغتنا الشريفة في فلسفة الأخلاق (الحكمة العملية)، وقد عشقته عند اطلاعي عليه فطالعه غير مرة وانتفعت به، وقرأته درسًا لبعض طلاب العلم، ولا أزال أحض كل مشتغل بالعلم ومحِب للفضيلة على مطالعته المرة بعد المرة"<sup>5</sup>.

ومما يجدر ذكره قبل الخوض في بيان السنن الأخلاقية في نهضة الأمم من خلال كلام الشيخ في تفسيره المنار أن المفكر الإسلامي مالك بن نبي ذي العناية البالغة في السنن الإلهية والحديث عن أسباب الانحطاط وشروط النهضة، قد تعرض إلى أهمية الأخلاق ودورها في إحداث التغيير وصناعة المجد، فقد كتب تحت عنوان (الأخلاق والثورة) عن أهمية الأخلاق في السياسة وعن دورها في نجاح الثورات، بحيث لا يجوز للثائر أن يتخلى عن الأخلاق، وقد اتخذ مثالا من القائد الكوبي الثائر فيديل كاسترو الذي تعامل بدرجة عالية من الأخلاق والقوة الصالحة لشعبه في مأكله وملبسه ومركبه ثم قال: "إن (كاسترو) ليس عالم أخلاق وإنما رجل دولة يعرف قيمة الأخلاق في السياسة"<sup>6</sup>، وبين أن قرارات كاسترو كانت تقوم على مسوغات

<sup>1</sup> الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة ج2/ص126

<sup>2</sup> هو الزاهد، العارف، شيخ الصوفية، أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي، المحاسبي، له كتب كثيرة في الزهد، وأصول الديانة، والرّد على المعتزلة والرافضة توفي سنة 243هـ ينظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 110/12

<sup>3</sup> أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، أبو علي: مؤرخ باحث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء، له مؤلفات في الطب والفلسفة والأخلاق والتاريخ وتوفي سنة 421هـ. ينظر الزركلي الأعلام 211/1

<sup>4</sup> لقد عثرت على هذا الكتاب في مكتبة مسجدنا في كفرنا قبل نحو عشر سنوات، فقرأته بشغف، وقيمت حينها بتلخيصه ونشره على حلقات في الصحف المحلية عندنا وكان مما كتبتة حينها انني ألاحظ أن الإمام الغزالي -رحمه الله - قد تبطن كلام مسكويه في كتابه الإحياء خاصة عندما تحدث عن عجائب القلب والنفس والروح في ربع المهالكات

<sup>5</sup> مجلة المنار 492/2

<sup>6</sup> بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص22

أخلاقية، فهو لا يكتفي بمجرد شعارات ثورية تدعو إلى العدالة الاجتماعية، بل يريد أن يعلم الشعب كيف يستعيد شخصيته، ويعرفه معنى كرامته، ثم قال: "وهذه الاعتبارات عن وظيفة الأخلاق، ليست بنت الأُمس: ففضية تكريم الإنسان لم تهمل ولم تنس في الثورة الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] هكذا وضع القرآن الكريم في آية لكرامة الإنسان قاعدة سامية بالنسبة لدنياه ولآخرته"<sup>1</sup>.

ولعلم المستعمر بأهمية الأخلاق ودورها في إصلاح الأمة وتحقيق سعادتها ونهضتها، فإنه يعمل جاهداً على نشر الرذيلة ودرء الفضيلة بين الدول المستعمرة وإسقاطها في الانحطاط الأخلاقي، حتى تسهل سيطرته عليها، وإيجاد حالة استعمارية مستدامة، ظاهراً وباطناً، أو الثانية على الأقل، وقد تنبه لذلك مالك بن نبي وعبر عنه في كتابه شروط النهضة بقوله: "إن المستعمر يريد منا بطالة يحصل من ورائها يداً عاملة بلا ثمن.. وهو يريد منا جهلة يستغلهم.. وهو يريد منا انحطاطاً في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا، تلك الرذيلة التي تكون نفسية رجل (القلة)، فيجدنا أسرع إلى محاربة الفضيلة، التي يحاول نشرها العلماء في بلادنا، وهو يريد تشتيت مجتمعنا وتفريق أفراده شيعاً وأحزاباً، حتى يحل بهم الفشل في الناحية الأدبية، كما هم فاشلون في الناحية الاجتماعية"<sup>2</sup>.

بعد أن بينت وذكرت بشكل مقتضب ما قاله وكتبه بعض العلماء والحكماء السابقون واللاحقون عن دور الأخلاق كسنة إلهية في نهضة الأمم وسقوطها، في هذا الباب، فإنني أنتقل الآن إلى بيان ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - في تفسيره عن الأخلاق، وكيف أبرزها وجلاها كسنة إلهية أساسية راسخة مضطردة في نهضة الأمم ورفيها وازدهارها، وذلك في المطالب الآتية:

<sup>1</sup> مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه ص25

<sup>2</sup> مالك بن نبي، شروط النهضة ص153

## المطلب الأول: حاجة الأمة إلى الأخلاق كحاجتها إلى العقيدة

كما تحدث الشيخ عن حاجة الأمة إلى العقيدة تحدث عن حاجتها إلى الأخلاق، وبين حاجة الأمة إلى علم الأخلاق وعرفه بأنه العلم الذي يبحث فيه عن الفضائل وكيفية تربية المرء عليها، وعن الرذائل وطرق توقيه منها، وهو علم لا بد منه، ثم بيّن أن ما ورد عن الأخلاق في القرآن من آيات، وفي السنة من أحاديث، وفي آثار صحابة رسول الله وتابعيهم، ما يغني عن الإطالة في الكلام لاستفاضة ذلك واشتهاره، وأشار إلى مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، في العلاقة الأسرية حين نبه الزوجة التي صرحت بعدم محبة زوجها فقال: "إذا كانت إحداكن لا تحب الرجل منا فلا تخبره بذلك، فإن أقل البيوت ما يبني على المحبة، وإنما الناس يتعاشرون بالحسب والإسلام"<sup>1</sup>، ثم قال الشيخ: "فهذه الكلمة الجليلة لا تخرج بالبداهة هكذا إلا من فم حكيم قد انطوى في نفسه علم الأخلاق وعلم الاجتماع أيضا، ووقف مع ذلك على أحوال الناس واختبرهم أتم الاختبار"<sup>2</sup>.

وقد جعل الشيخ العقيدة والأخلاق ركنين أساسيين بني عليهما هذا الدين، ويعد الأول أصل والثاني فرع، أو أن الأول شجرة والثاني ثمرة، وكما لا تأتي الثمرة بغير شجرة فكذلك الأخلاق لا تأتي بغير عقيدة، ويعبر الشيخ عن تلازم الأخلاق والعقيدة في هذا الدين فذكر أن أهم أصوله: "بيان أن هذا الدين الكامل مبني على العلم اليقيني في الاعتقاد والهداية في الأخلاق والأعمال، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى"<sup>3</sup>، وعليه كثيرا ما نجد الشيخ في تفسيره يقرن بين العقيدة والأخلاق عند حديثه عن السنن الإلهية في النصر والتمكين، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أهمية الأخلاق كسنة من سنن النهضة والرقى، وأنها تأتي في المرتبة الثانية بعد العقيدة والإيمان.

<sup>1</sup> الفسوي، المعرفة والتاريخ، 110/15

<sup>2</sup> تفسير المنار 34/4

<sup>3</sup> تفسير المنار 230/7

فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما تحدث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا

عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 151] ، بين أن

المقصد الأول للآيات هو إثبات العقيدة وأصول الدين ثم بعد ذلك مباشرة تهذيب الأخلاق وإصلاح النفوس

وبذلك قد أعز الله الأمة وفتح على يديها البلاد وقلوب العباد، فيقول: "الآيات تتعلق بإثبات العقائد وأصول

الدين وهي المقصد الأول، يليها تهذيب الأخلاق ؛ ولذلك قال: (ويزكيكم) أي: يطهر نفوسكم من الأخلاق

السافلة، والرذائل الممقوتة، ويخلقها بالأخلاق الحميدة بما لكم فيه من حسن الأسوة لا بالقهر والسطوة"<sup>1</sup>.

ثم نقل كلاما مطولا للإمام محمد عبده يؤكد فيه أن التزكية هي تهذيب الأخلاق وإصلاحها، وكون ذلك يأتي

مكملا للتوحيد وعقيدة الإيمان بالله تعالى، ويرد على المفسر (الجلال) تفسيره التزكية بالتطهير من الشرك،

مبينا أن تفسيره لا يصح، وأن التزكية جاءت مكملة للتوحيد، فدين الله الذي جاء يمحو الشرك بالتوحيد، جاء

يطهر النفوس ويزكيها ويهذبها من الأخلاق الرذيلة، ومن المعاصي والعادات القبيحة، ثم ذكر عددا من

رذائل العادات وسفاسف الأخلاق التي كانت فاشية عند العرب، وبين كيف هذبهم الرسول - صلى الله عليه

وسلم- وطهرهم مما فشا فيهم بأن اتبعوه واقتدوا بأخلاقه الرفيعة وآدابه وعباداته الكريمة، وجمعهم الله تعالى

على يديه وألف بين قلوبهم حتى أصبحوا كالجسد الواحد، وذمتهم واحدة بشريعة الإسلام يسعى بها أديانهم<sup>2</sup>،

فمن يعطي الأمان لإنسان محارب وجب احترام أمانه وإن كان عبدا، فإن أمانه كأمان خليفة المسلمين، فأبي

مساواة وتهذيب أعلى وأرفع من هذا<sup>3</sup>؟ ثم ختم الشيخ معقبا: "وأقول: إنهم بزكاة أنفسهم هذه فتحوا العالم وكانوا

أئمة أمم المدنية التي كانت تحتقر جنسهم كله، فإن الأعاجم إنما عرفوا فضل الإسلام بعدلهم وفضلهم في

فتوحهم"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 23/2

<sup>2</sup> عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المؤمنون تكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أديانهم، ألا لا يقتل مؤمن بكافر، ولا نو عهد في عهد " مسند أحمد ح 991، 285/2، قال المحققون صحيح لغيره، النسائي ح 6911، 331/1

<sup>3</sup> تفسير المنار 23/2

<sup>4</sup> تفسير المنار 24/2

ولقد جمع الشيخ بين العقائد والأخلاق في موضع آخر مبينا أهميتها في فلاح الأمم ونجاحها، عندما تحدث في تفسير آيات الأعراف عن بني إسرائيل وكيف سلط الله عليهم الذل والهوان، بسبب جهلهم بمعنى التوحيد ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138]، ثم فسدت طباعهم وساءت أخلاقهم، وتعلقت بالذل والعبودية، فلم يكونوا مؤهلين لقيام دولة ونهضة أمة، فكتب الله عليهم التيه في الصحراء أربعين سنة حتى يظهر جيل جديد قادر على حمل الراية وتحقيق النصر المنشود، ثم بين أن ما أصاب بني إسرائيل في ذلك الحين قد أصاب طوائف من أمتنا قد ولدوا في مهد الظلم، وشبوا في حجر النفاق والفسق، إلى أن قال: "وكان هذا من عبر التاريخ التي تثبت أن فلاح الأمم بأخلاقها وعقائدها، وأن العلم الناقص شر من الجهل المطلق، وأن العلم الصحيح في الرجل أو الشعب الفاسد الأخلاق كالسيف في يد المجنون ربما جنى به على صديقه أو على نفسه، وربما نصر به عدوه"<sup>1</sup>. وهذا كلام في غاية الأهمية ومن روائع تجليات الشيخ وفيوضات حكمته.

وعندما تحدث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: 23] بين أن سبب تأخر النصر والإدالة لشعوبنا الإسلامية هو عدم أهليتها لذلك، بسبب فساد أخلاقها وتركها لأسباب الاستخلاف في الأرض، وأنه لا فلاح لنا إلا بالأخذ بسنة التغيير وأهمها التمسك بالإيمان الصحيح والأخلاق الفاضلة، وأن أمتنا ما زالت غير مؤهلة للفوز والفلاح والغلبة والنصر الذي تتمناه، وذلك لجهل أبنائها وفسادهم وتقاطعهم وخذلان بعضهم بعضا، وقد تركوا ما هداهم الله إليه في قرآنه من سنن الريادة والخلافة في الأرض، ثم قال: "إننا إذا غيرنا ما بأنفسنا الآن، بما كان عليه سلفنا من إيمان وأخلاق تتبعها الأعمال، وأولها الجهاد بالنفس والمال، فإن كل ما سلب منا يرجع إلينا، ونزاد عليه بالسيادة على غيرنا"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 9/95

<sup>2</sup> تفسير المنار 11/282

وعند حديث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَرِهَ لِمَنِكَ مُغْتَبَرًا تَعَمَّةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53] وبعد أن تحدث بكلام مفصل عن سنن الله في التغيير بين أن آية الأنفال أعم من آية الرعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] في إثبات أن النعم ودوامها منوط بتمكن الأخلاق والعقائد من نفوس أبناء الأمة، فحسن الأخلاق ودوامها وصحة العقائد وثباتها، سبب في دوام النعم واستمرارها، والعكس بالعكس صحيح.

وهكذا يجمع الشيخ بين الإيمان والأخلاق كسنان أساسية من السنن الإلهية في النهضة والتمكين في الأرض، فصلاح الأمة بصلاح أخلاقها وعقائدها وليس غريبا أن يقرن الشيخ بين العقائد والأخلاق في أكثر من موضع، لتلازمهما، ذلك أن للعقيدة أثر كبير على الأخلاق والسلوكيات، فعلى سبيل المثال الصدق والأمانة والوفاء بالوعد من صفات المؤمن الصادق، والكذب والخيانة وإخلاف الوعد من صفات المنافق فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"<sup>1</sup>، فالأخلاق الصالحة والسلوكيات الحميدة هي فرع من تصور صحيح وعقيدة قوية راسخة.

### المطلب الثاني: الأخلاق روح الأمة وعمادها

وضح الشيخ في أكثر من موضع أن الأخلاق هي روح الأمة وعمادها، وبين دورها في نهضة الأمم، فحيث كانت الأخلاق متينة وسائدة كانت الأمة قوية صامدة، وقد ضرب أمثلة عديدة من خلال التاريخ على دور الأخلاق في نهضة الأمم وصعودها وديمومة قوتها وعزها وسؤدها، فهي مما تقوى به الأمم، فيقول: "وبسائر ما تقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال"<sup>2</sup>، ويقول منكرًا على من أخذوا أخلاقهم وتربيتهم مقلدين غير محققين، وتابعين لذوي الأهواء غير متبعين لما جاء به الإسلام على الوجه الصحيح، واصفا الأخلاق بأنها روح الأمم:

<sup>1</sup> صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} التوبة: 119] وما ينهى عن الكذب، ح 33 / 16

<sup>2</sup> تفسير المنار 481/9

"وأخذنا في الأخلاق، والآداب التي هي روح حياة الأمم بأقوال فلان وفلان من الجاهلين، الذين لبسوا علينا بلباس الصالحين"<sup>1</sup>.

وفي موضع آخر يحمل الشيخ على الذين يظنون أن الأمة محمية بوجود الأقطاب والأوتاد والأبدال، - مصطلحات يطلقها الصوفيون على كبار الأولياء - ولا يجري عليها ما يجري على الأمم الأخرى من عوامل وسنن الضعف والسقوط، فيبين الشيخ في معرض حديثه عن بني إسرائيل عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأُولَادَيْهِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 83] أن الله تعالى لا يحابي أحدا، فكما لم يحابي بني إسرائيل كذلك لا يحابي هذه الأمة، وإن سنن الله تجري على الجميع دون تمييز، فيقول: "لو تدبر جهالنا هذه الآية، لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم.. فقد جرت سنته تعالى في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظه الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال التي تكون بها العزة ويحفظ بها المجد والشرف"<sup>2</sup>.

ثم أعطى أمثلة تدل على صحة ما قاله عن أثر الأخلاق ودورها في نهضة الأمة وصلاتها، واستشهد بكتابات عالم الاجتماع الكبير (غوستاف لوبون)<sup>3</sup> ففيها الكثير من الشواهد على أهمية الأخلاق ودورها في نهضة الأمم وسقوطها، ونقل ما جاء في كتابه (روح الاشتراكية) ومفاده أن الأمم لا تتحط وتزول إذا تناقص ذكاء أبنائها، بل إذا سقطت أخلاقها. هذه سنة طبيعية جرت أحكامها على اليونان والرومان، وأخذت تجري في هذه الأيام أيضا<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 314/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 306/1

<sup>3</sup> عالم وفيلسوف فرنسي شهير، يذكره الشيخ محمد رشيد رضا ويستشهد بأقواله كثيرا، ولد عام 1841م وتوفي 1931م جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متممة بإنصاف الحضارة الإسلامية مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره، عرف عند العرب بمقولته "ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب"، له مؤلفات كثيرة منها سر تطور الأمم، وروح الجماعات وحضارة العرب، دافع عن حضارة العرب وعن حقوق المسلمين، وانتقد الاستعمار الفرنسي للجزائر، وسياسة القهر التي اتبعتها الدول الأوروبية مع البلاد المستعمرة. ينظر أبو خليل شوقي، غوستاف لوبون في الميزان، ص12، وينظر، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، 689/2

<sup>4</sup> تفسير المنار 34 /10

ويعطي الشيخ مثالا من واقع الحياة المصرية، وكيف كانت الأخلاق جدارا حاميا للأمة، فعاشت في حياة هنيئة ممتازة قبل أن يدخلها دعاة التغريب والإلحاد والانحلال الذين عبثوا بأخلاق الأمة حتى أوردوها الذل والتبعية والهوان، فيتحدث الشيخ عن شاب مصري تنازعت في داخله النفس اللوامة مع النفس الأمارة، ف جاء يستغثيه في التوبة مما وقع فيه، حيث افتتن بفتاة شغفته حبا، فكان يخلو بها إلى أن يخاف الفضيحة، ثم يفارقها نادما تائبا عازما على عدم العودة إلى ذلك، وقد تكرر ذلك من الشاب عدة مرات، فتنة فندم وتوبة. ثم عزم على عدم العودة، ثم عودة من جديد، وقد وعظه الشيخ بما ألهمه الله تعالى، وعقب على الحادثة بقوله: "الراجح أن هذا الشاب من أحد البيوت التي لا تزال فيها بقية من التربية الدينية، وأخلاق العفة والحياء الموروثة، وهذه التربية وهذه الأخلاق التي كان بها الشعب ذا وجود ممتاز مستقل في نفسه، فطفق دعاة الإلحاد والزندقة وإباحة الشهوات يهدمونها باسم التجديد المدني، والتقليد الأوربي، ومنه وجوب السفور الذي يعنون به إباحة اختلاط النساء بالرجال... وقد تقاومت استباحة التهتك والفجور في هذه السنين إلى حد ينذر بهلاك هذه الأمة"<sup>1</sup>.

ويتعجب الشيخ من غفلة المتعلمين وأشباههم عن دور الأخلاق وكونها سنة إلهية جارية على جميع الأمم في العلو والنهوض والتدلي والسقوط، فكيف يغفل غالب من يدعون العلم عن هذه السنّة مع توسع علم الاجتماع وانتشاره وقد كثرت فيه المؤلفات، وكثر النشر في المجلات والصحف عن الأخلاق ودورها وما تفعله في الأمم والأفراد، ثم نقل عن غوستاف لوبون أن الغالب من الناس لا يفهمون هذه الحقيقة بل ويشككون في صحتها، وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة قد صارت واضحة عند عامة الناس إلا أن الأكثر لا يزالون يمارون ويشككون في ذلك، لأن هذه المسألة العالية الرفيعة لا يصل إليها إلا من كان ذا بصيرة نافذة ومعرفة محصنة، ولو فهمها جمهور الناس لكان لذلك أعظم الأثر في صلاح أعمالهم<sup>2</sup>.

**المطلب الثالث: أمثلة لبعض الأخلاق الحميدة وكونها من السنن الإلهية في نهضة الأمة**

<sup>1</sup> تفسير المنار 457/9

<sup>2</sup> تفسير المنار 34 /10

لا يقتصر الشيخ في حديثه عن الأخلاق على العموميات، وإنما يدخل في بيان وتحديد بعض الأخلاق ودورها في المجتمع وأثرها في صلاح الشعوب وانتظامها، ومن أهم هذه الأخلاق التي يتعرض لها الشيخ خلال تفسيره للقرآن خلقا الوفاء بالعهد والصبر، فتحدث الشيخ عن هذين الخلقين وبين أنهما من السنن الإلهية في صلاح المعيشة ونهضة العمران، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:

177]، يقول: "وهذا انتقال من البر في الأعمال إلى البر في الأخلاق والأعمال الاجتماعية، فذكر منها ما هو أهم أصول البر وهو الوفاء والصبر بضروبه المبينة بعد، وقد ذكر الأعمال بصيغة الفعل والأخلاق بصيغة الوصف؛ لأن الأعمال أفعال، والأخلاق صفات، وفيه تنبيه على أن من أوفى وصبر تكلفا لا يكون بارا حتى يصير الوفاء والصبر من أخلاقه ولو بتكرار التكلف والتعمل، فقد ورد (الحلم بالتحلم)<sup>1</sup> وقدم ما ذكر من الأعمال على هذه الأخلاق؛ لأن الأعمال هي التي تطبع الأخلاق في النفوس، ولا سيما الصلاة وبذل المال، فلا أعون منهما على الوفاء والصبر وذلك ظاهر لقوم يفقهون"<sup>2</sup>.

وهذه لفظة رائعة من اللغات التي قلما يتنبه إليها المفسرون، فعندما يقول ذكر الأعمال بصيغة الفعل يقصد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وذكر الأخلاق بصيغة الوصف فيقصد خلقي الوفاء والصبر، فالصلاة والزكاة أفعال والوفاء والصبر صفات وهذه من دقائق القرآن الكريم التي اهتدى إليها الشيخ، وكذلك عندما ذكر تقديم الأفعال على الصفات كون الأفعال مسببة وطابعة للأخلاق.

<sup>1</sup> عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، من يتحرى الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه.." الطبراني، المعجم الأوسط، ج3 ص118 ح 2663 قال الألباني إسناده حسن أو قريب من الحسن، ينظر الألباني سلسلة الأحاديث الصحيحة، 671/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 97/2

ثم ينقل عن الأستاذ الإمام كيف يجب أن يحافظ كل مسلم على الوفاء بما عاهد عليه، ما دام هذا الوفاء ليس فيه مخالفة شرعية، وكيف جعل الإمام الوفاء بالعهود من أهم الأخلاق التي تصلح بها المعيشة ويقوم بها العمران، فيقول: "وقال الأستاذ الامام ما مثاله: إن الإيفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التي فرضها الله تعالى لنظام المعيشة والعمران، وإنما الصلاة والزكاة من وسائله... لنؤدب بها نفوسنا فنعيش في الدنيا عيشة راضية، ونستحق بذلك عيشة الآخرة المرضية"<sup>1</sup>.

ويمضي الشيخ ينقل عن أستاذه كلاما في غاية الروعة والوضوح مبينا أثر انتقاض خلق الوفاء وغيابه واستبداله بالغدر والخيانة على الأمة، وما في ذلك من زعزعة نظامها وتقويض أركانها، حيث بين أن إخلاف العهود والغدر في المواثيق من أشد المعاصي المقوّضة لنظام البلاد والموصلة إلى خراب العمران وفناء الأمم، فعندما تفقد الأمة خلق الوفاء وهو أساس الصدق وركيزة الأمانة، يحل بها عقاب الله، ثم دعا إلى النظر كيف حلّ العذاب والذل بالأمة، وكيف فقدت استقلالها بعد أن تركت الوفاء بالوعد والالتزام بالعقود<sup>2</sup>.

ومن جانب آخر بين الشيخ أن فقدان الوفاء يؤدي إلى ضياع الثقة حتى في الأهل والعيال، فيصبحون كوحوش ضارية ينتظر الواحد منهم الفرصة ليفتك بالآخر، فلا يأمن أحد أحدا فإذا عاقد رجل رجلا مضطرا استوثق منه بكل ما يقدر من مواثيق خوفا من أن يغدر به ويضيع حقه، فأصبح الناس لا يتعاضدون ولا يتآزرون ولا يتعاونون، وبدلا من ذلك يتحاسدون ويتعادون، أشداء أعرزاء على بعض، أذلاء رحماء على غيرهم، ثم أعطى مثلا من واقع زمانه فقال: "وقد أحصيت في سنة قضايا التخاصم في محكمة بنها فألفيت أن خمسا وسبعين قضية في المائة منها بين الأقارب، والباقي بين سائر الناس، ولو كان في الناس وفاء لسلموا من كل هذا البلاء"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 97/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 98 /2

<sup>3</sup> تفسير المنار 98 /2

أما خلق الصبر وأثره في الوصول إلى المراد وتحقيق الظفر للأمة، فيمضي الشيخ في بيانه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ مبينا الحالات الثلاث التي يطلب فيها الصبر، وهي البأساء من البؤس وهو الفقر، والضراء من الضر وهو كل ما يصيب الإنسان من بلاء، والبأس وهو القتال والحرب ولقاء العدو، مبينا أن من صبر في هذه الحالات الثلاث، فهو في غيرها أصبر، ومؤكدا أن الحالة الأخيرة هي الأشد والأعلى منزلة، وهي السبيل إلى المجد والعلو وبين أن الحروب عندما تشتد يطلب فيها الصبر والثبات أكثر مما يطلب في غيرها، ذلك ان المخاطر فيها أعلى وأعظم، ويخوض فيها المحاربون غمار الموت، فيكون النصر مقرونا بالصبر، وإنما يحفظ الحق الذي يدافع عنه المؤمنون ويجاهدون دونه في سبيل الله ويسعون إلى ظهوره ويبغون انتشاره بالنصر والظفر، ثم قال: "وهذا هو المأمور من الله تعالى بالصبر حين البأس، لا المحارب لطمع الدنيا وأهواء الملوك. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر<sup>1</sup>، وعبر عنه في بعضها بالكفر، فلا غرو أن يجعل الصبر في حين البأس أصلا من أصول البر، وقد كان المسلمون بإرشاد هذه النصوص أعظم أمة حربية في العالم فما زال استبداد الحكام يفسد من بأسهم، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يفل من غربهم، حتى سبقتهم الأمم كلها في ميادين الكفاح"<sup>2</sup>.

وهكذا يتبين لنا كيف وضح الشيخ وبين أن الأخلاق من أعظم السنن الإلهية في نهضة الأمم وعلوها، فالاجتماع والعمران لا يكون بغير الأخلاق، فمن ينشد نهضة الأمة بغير الأخلاق كمن يريد انطلاق المركبة بغير وقود، فالأخلاق هي روح الأمة والمحرك الدافع لها نحو الرقي والازدهار، فحيثما وجدت الأخلاق المهذبة والسلوكيات الحميدة والآداب الزكية وجد المجتمع المتماسك والأمة القوية والحياة الطيبة.

<sup>1</sup> عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ح 6857، 175/8، صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ح 89، 92/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 98/2

## المبحث الثالث: السنن السياسية في نهضة الأمم في تفسير المنار

أبدأ هذا المبحث بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، لنعلم أن كل سياسة لا تقوم على العدل عاقبتها الخسران.

كثيرا ما يتمثل الحكماء والمفكرون ممن يكتبون في السياسة ونظام الحكم بأبيات الشاعر الجاهلي الأوفه الأودي<sup>1</sup> التي جرت مجرى الأمثال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم      ولا سراة إذا جهّالهم سادوا  
تلفى الأمور بأهل الرشد ما صلحت      فإن تولوا فبالأشرار تنقاد<sup>2</sup>

هذان البيتان من الأبيات السائرة المشهورة، ويعدان من أبلغ ما قالته العرب في الأدب والسياسة، يتغنى بهما كثير من الناس، ولكنهم بعيدون عن فهمهما وتطبيقهما، فالشطر الأول يدعو إلى توحيد الأمة تحت قيادة واحدة، والشطر الثاني يحذر من أن يتسلم القيادة الجهال، ثم يأتي البيت الثاني تعزيزا وتوشيحاً للبيت الأول، فيدعو إلى قيادة أهل الرشد ويحذر من قيادة الأشرار.

والمراد من ذلك أن الأمم لا يلتئم شملها ولا ينتظم عقدها بغير الخلفاء والولاة والحكام والملوك والأمراء والرؤساء -سم بما شئت- الذين تتحرك بهم الأمم نحو أهدافها ويزودون عن حياضها ويحمون بيضتها، ذلك أن الملك من الرعية كالرأس من الجسد وأكثر، قال الأحنف بن قيس<sup>3</sup>: "الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به وموضع الرأس من أركان الجسد الذي لا بقاء له إلا معه"<sup>4</sup>، ولكن لا يكفي

<sup>1</sup> هو صلاء بن عمرو بن مالك، من بني أود، من مذحج: شاعر يمني جاهلي، عاش في القرن السادس للميلاد، يكنى أبا ربيعة. قالوا: لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان. كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم. وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره. الزركلي، الأعلام، ج 3 ص 206

<sup>2</sup> الأفوه الأودي، صلاء بن عمرو بن مالك اليمني (ت 560 م) ديوان الأفوه الأودي، ص 66

<sup>3</sup> الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي أبو بحر البصري واسمه الضحاك وقيل صخر والأحنف لقب. أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسلم. روى عن عمر وعلي وعثمان وسعد، وابن مسعود، وأبي ذر، وغيرهم. وعنه الحسن البصري وأبو العلاء بن الشخير وطلق بن حبيب وغيرهم. قال الحسن: "ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف" ومناقبه كثيرة وحلمه يضرب به المثل، وذكره محمد بن سعد في الطبقة الأولى من أهل البصرة. العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 1 ص 191.

<sup>4</sup> ابن حبان، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص 270.

وجود الرأس والروح، فلا بد ان يكون الرأس واعيا حكيما مدبرا، ولا بد أن تكون الروح طاهرة صافية مستقيمة، وبذلك يصلح الجسم وتستقيم الأعضاء.

يتوقف البعض أحيانا عند الشطر الأول، في ضرورة وجود الحاكم حتى ولو كان ظالما مستبدا، فإن ذلك خير من الفوضى، وينقلون عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قوله: "وال غشوم خير من فتنة تدوم"<sup>1</sup>، وما روي عن مالك والثوري يقولان: "سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار"<sup>2</sup>، وينقلون ما أورده ابن تيمية في فتاويه "ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان"<sup>3</sup> ويبررون بهذه المقولات استبداد الحكام وظلمهم وبغيهم، بل ويتخذ الحكام من هذه المقولات تكئة لدوام استبدادهم ومنع أي مطالبة بالعدل والتغيير، حتى قال قائلهم: أنا أو الفوضى<sup>4</sup>.

ينسى هؤلاء المبررون للظلم الخائفون من الفوضى، أن مقولة عمرو بن العاص رضي الله عنه جاءت في وصيته لابنه، وأول ما فيها ضرورة وجود الوالي العادل والتحذير من الوالي الظالم، حيث يقول: "وال عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من وال ظلوم، ووال ظلوم خير من فتنة تدوم"<sup>5</sup>، وينسون كذاك أن ابن تيمية هو الذي أورد قول من قال: "إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"<sup>6</sup>.

إن الولاية الصالحة حتى تنهض بالأمة لا بد أن تقوم على حسن السياسة، والسياسة في أصلها اللغوي من ساس الأمر سياسة إذا قام به، والسياسة هي القيام على الشيء بما يصلحه فعل السائس، يقال: يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته<sup>7</sup>. وفي معناها الاصطلاحي قال ابن نجيم: "هي فعل

<sup>1</sup> العسكري، جمهرة الأمثال 147/1

<sup>2</sup> عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، 326/3

<sup>3</sup> ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 391/28

<sup>4</sup> قالها الرئيس المصري حسني مبارك ضمنا خلال ثورة 25 يناير التي أطاحت به عام 2011 حين خير الشعب بين بقائه في السلطة أو الفوضى ينظر خطاب مبارك على اليوتيوب.

<https://www.youtube.com/watch?v=IvQC2f78QXY>

<sup>5</sup> جمهرة الأمثال 147/1

<sup>6</sup> ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، ص7

<sup>7</sup> ابن منظور، لسان العرب، 108/6

شيء من الحاكم لمصلحة يراها، وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي<sup>1</sup>. وعند ابن القيم: "السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد"<sup>2</sup>.

ولقد تحدث العلماء والحكماء من مختلف الأمم في السياسة ووضعوا فيها الكتب قديماً وحديثاً، وقدموا من خلالها الوصايا والنصائح للحكام والسلاطين، وبينوا الوسائل والأساليب التي تدار بها الممالك ويستدام بها الملك. وليس أعظم من كتاب الله تعالى في بيان السياسة الصالحة التي تنهض بها الأمم وتعلو، والتحذير من السياسة الفاسدة التي تتحط بها الأمم وتسقط. وقد تعرض الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- إلى شرح ذلك وبيانه في تفسيره المنار، وكثيراً ما كان يذكر ذلك خلال حديثه عن السنن الإلهية، أو علم السياسة كما قال الإمام في حديثه عن السنن: "ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية"<sup>3</sup>، وفي هذا المبحث سوف أتحدث عن السنن السياسية في نهضة الأمم وضوابطها وأساليبها وآلياتها كما جاءت في تفسير المنار، وذلك على النحو الآتي:

### المطلب الأول: الحاكم الصالح وأثره في نهضة الأمم

تحدث الشيخ في تفسيره في أكثر من موضع، عن الحاكم الصالح وصفاته وكيفية اختياره، وبطانته، وغير ذلك من الأمور، فبين الشيخ أهمية وضرورة وجود الرئيس الذي يحكم الأمة ويكون لها المركز الذي تلتف حوله والدولاب الذي تتحرك به، فلا يمكن لأي جماعة أن يستقيم حالها وأن يصلح مآلها بغير رئيس، فيقول الشيخ: "أمر الجماعة بغير رياسة يكون مختلاً معتلاً، فكل كون لا رياسة فيه فاسد، فالرأس هو مركز تدبير البدن وتصريف الأعضاء في أعمالها، وكذلك يكون رئيس هذه الأمة مصدر النظام وتوزيع الأعمال على العاملين"<sup>4</sup> فيؤكد الشيخ على ما ذكرناه في مقدمة هذا المبحث عن الأحنف بن قيس أن الوالي من الرعية بمنزلة الروح من الجسد والرأس من أركانه.

<sup>1</sup> ابن نجيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، 11/5

<sup>2</sup> ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، 29/1

<sup>3</sup> تفسير المنار 115/4

<sup>4</sup> تفسير المنار 38/4

وإذا كانت الرياسة ضرورة لا تقوم الأمة إلا بها، فإنها لا تأتي على طبق من ذهب لرجال مخصصين أو عائلات مقدسة كما كان الأمر عند بعض الأمم، فليس في الإسلام حكما ثيوقراطيا يكون فيه الملك حاكما باسم الله ولا مبلغا عنه، فقد كان هذا الاعتقاد موجودا عند بعض الأمم السابقة، وعند العامة من المسلمين، فيقول الشيخ عند بيانه لمعنى ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 247]: "أرى عامة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية في إيجازها أن الملك يكون للملوك بقوة إلهية هي وراء الأسباب والسنن التي يجري عليها البشر في أعمالهم الكسبية، وهذا الاعتقاد قديم في الأمم الوثنية، وفي معناه عبارة في كتب النصرانية، وبه استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطتهم شعبة من السلطة الإلهية، وأن محاولة مقاومتهم هي كمحاولة مقاومة الباري سبحانه وتعالى والخروج عن مشيئته"<sup>1</sup>.

يفند الشيخ هذا الاعتقاد المزعوم ويؤكد أن مشيئة الله في إيتاء الملك تكون وفق سنن ومؤهلات وأسباب لا بد منها، فمشيئة الله تعالى لا تخالف سنته في خلقه، وليس في القرآن الكريم ولا في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ما يدل على كون تصرف الحاكم في رعيته بإرادة إلهية، وإن شريعة الله وسنته في خلقه تشهد على عكس ذلك ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]<sup>2</sup>.

ثم بين الشيخ سنتين أساسيتين لا بد منهما في الملك أو الرئيس هما:

أولاً: أن يكون هو وبطانته من داخل الأمة منتمين لها غير أجنبيين عنها.

إن من أهم مقومات نجاح الأمة ومن سنن الله في ذلك أن يكون الرئيس الحاكم رجلا من رجالها، همه همها، وحزنه حزنها وسعادته بسعادتها، أما الغريب الأجنبي فليس فيه ما يدفعه إلى أن يهب لنجدتها أو ينهض لرفعها أو يعمل لتحقيق مصالحها. فكيف إذا كان هذا الأجنبي له مطامع عصبية وعلاقات وشائجية مع أعداء الأمة، وعليه فيؤكد الشيخ ضرورة أن يكون قادة الأمة من خاصة رجالها، وعلى أن ذلك سنة الله في

<sup>1</sup> تفسير المنار 2/ 380

<sup>2</sup> تفسير المنار 2/ 381

نمو الأمم وبسطتها، وينقل كلاما نفيسا من العروة الوثقى عن أستاذه في معنى قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيَدَانَهُ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: 118] وهذه بعض المقتطفات مما نقله:

"قالوا: تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والأهب الوافرة والأسلحة الجيدة. قلنا: نعم، هي أحرار وآلات لا بد منها للعمل فيما بقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب... يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها، ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشئون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها، وحتى تكون الحماية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم، يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عما لا يليق بهم.. فهؤلاء الرجال بهذه خلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة"<sup>1</sup>.

ثم يتحدث الإمام عن قانون سمّاه قانون الفطرة في الملك، فلا يكتفي تكتيب الكتائب وتجميع الجنود، وتوفير العُد وبذل النقود، ولكن لا بد أن يتبع أحكام ناموس الفطرة بأن يكون هو وبطانته من جنس القوم الذين يسوسهم تملأهم الشفقة والرحمة والحرص على من يتولون أمورهم، وبين أنه من السهل على الملك أن يعد الكتائب ويجند الجيش وأن يأتي بالعتاد بمختلف أنواعه، وأن ينفق الأموال لذلك، ولكن أنى له ببطانة تقية نقية ذات عقل ورحمة وإباء تعنيهم الأمة وحاجاتها كما تعنيهم أنفسهم، وعليه فلا بد للحاكم أن يراعي ناموس الفطرة. وقد بين الشيخ ذلك بقوله: "من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والرحمة والنصرة على الملك والرعية، إنما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيح يشد صلته بها. هذه فطرة فطر الله الناس عليها، إن الملتمح مع الأمة بعلاقة الجنس يراعي نسبته إليها ونسبتها إليه، ويراهم لا تخرج عن سائر نسبة الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 70/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 70/4

ويستطرد الإمام في بيان أهمية رابطة الجنس والدين فيمن يتخذهم الحاكم عمالا في مملكته، فيبين أن على الحاكم ألا يكل أعماله إلا لواحد من اثنين:

1- عامل يرتبط معه في الجنسية الصحيحة الثابتة ليس فيها ضعف ولا تمزق.

2- عامل يرتبط معه في الدين الذي يقوم مقام الجنسية، بل يفوقها في الاحترام والتعظيم، كالإسلام الذي صارت رابطة عند المسلمين على اختلاف شعوبهم أعظم من رابطة النسب.

ثم قال الشيخ: "إن كلا من الجامعتين -الجنسية على النحو السابق والدينية- مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه"<sup>1</sup>، ويلاحظ هنا كيف يجعل الإمام رابطة الجنس بشروطها الصحيحة التي ذكرها واحدة من رابطين تؤهلان صاحبهما ليكون اهلا للثقة في إدارة اعمال الأمة، ثم يذكر الرابطة الثانية وهي رابطة الدين ويقدمها على الأولى إذا صحت وخلصت وقويت.

ثم يحذر الإمام من اتخاذ الأجنبي عمالا وساسة في الأمة، فهؤلاء لا همّ لهم إلا أنفسهم، وكل واحد منهم ملتصق بمنبته، فلا يشرف بشرف الأمة ولا يعاب بعييها، فلا يخلص في عمله ولا يؤدي الأمانة على وجهها الصحيح، بل إذا كانت لأممهم أطماع في البلاد التي يتولون العمل فيها فإنهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأمة، ثم يشبه هؤلاء الغرباء الذين لا يرتبطون بنسب ولا عقيدة مع الملك بالعامل المستأجر في بناء منزل لا همّ له إلا أن يأخذ أجره ولا يعنيه متانة المنزل وسلامته عند وقوع الجرف او الزلزال، ثم قال عن هؤلاء الأجنبي: "يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها، كما هو حال الأجنبي في الممالك الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 71/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 71/4

ثم يستشهد الإمام بالتاريخ على السنة الإلهية في أن الأمة لا تصان إلا برجال منها، وأنها متى خالفت هذه السنة ضاع مجدها وذهب عزها، فبين أن التاريخ الذي يتحدث عن حال الأمم الغابرة، ويخبرنا عن سنن الله في البشر وعملها في شؤون العباد، فيحدثنا أن الأمم لا تنمو ولا تلو ولا تصان إلا بأهلها الذين يقدرون حقها، ولا يكون ذلك من خلال الأجنبي الغريب عنها، ثم قال: "الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها ؛ فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصا إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة"<sup>1</sup>.

ثم يختم مقاله متألما متأسفا على مخالفة أمراء المسلمين لهذا السنة، ويتأوه على حال المسلمين وما أصابهم من تغلغل الأجنبي في إدارة شؤونهم متسائلا إلى متى، فيقول: "ولهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم. أما أن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقض؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدانهم؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم؟ ... إلى متى إلى متى؟ إنا لله وإنا إليه راجعون"<sup>2</sup>.

ثانيا: السنن في مؤهلات الملك والقيادة

أبدع الشيخ فيما استنبطه من قصة طالوت من مقومات الملك ومؤهلات القيادة، وقد أطال في بيان ذلك لما في القصة من عبر وفوائد، فعند ختام الشرح للقصة ومعانيها عقب بذكر أهم ما يستفاد منها، فقال: "ولا سيما ما يعتبر في الملوك من الصفات التي تؤهلهم للقيام بأعباء السياسة وأعمال الرياسة، وإنما يكون ذلك آية بينة وعبرة نافعة لمن يؤمن بالله وآياته"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 72/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 73 /4

<sup>3</sup> تفسير المنار 385/2

ويمكن تلخيص هذه المؤهلات كما عرضها بالترتيب على النحو الآتي<sup>1</sup>:

1. الاستعداد الفطري، وهي قوى نفسية تجعل صاحبها قادرا على القيادة وحمل أعبائها، وتجعله متهيئا للقيادة في ذاته وبتوفيق الأسباب في مسعاه لذلك، وبين الشيخ أن الاستعداد الفطري يكون بأمرين: الأول في نفس الملك، والثاني في حال الأمة، ثم ذكر الحديث الذي اشتهر على السنة العامة "كَمَا تَكُونُونَ يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ"<sup>2</sup>، ثم بين أن الله يهيئ للأمة بحسب حالها رجلا منها، فإذا كانت اهلا للسعادة قد غلب فيها الخير تولى أمرها من هو أكثر استعدادا للخير، والعكس بالعكس صحيح، فإذا أراد الله عز وجل السعادة لأمة هيا لها حاكما يقوي الخير على الشر فيغلبه فتتال السعادة بذلك، وإذا أراد الهلاك لأمة هيا لها حاكما يقوي الشر فيها على الخير فيغلبه فيحل عليها الهلاك والذل، وتعدوا عليها الأمم القوية فتتهشها من أطرافها وتزيل سلطانها عن الأرض، وكل ذلك يجري وفق سنن الله.

وقد قدم الشيخ الاستعداد الفطري على العلم وجعله الركن الأول فقد يكون الرجل عالما، ولكنه لا يملك الاستعداد الفطري للقيادة، فكثيرون هم العلماء العارفون بحال زمانهم، لكنهم لا يملكون الاستعداد الفطري للقيادة، ومثل هؤلاء يتخذهم القائد المستعد فطريا للقيادة أدلاء ومستشارين يستتير برأيهم في قيام دولته وإدارتها، إن لم ينهض بهم رأيهم لتحقيق السيادة والزعامة لأنفسهم.

2. السعة في العلم والتدبير. فيكون عالما بأحوال أمته ومواطن القوة والضعف فيها، وله جودة وعمق التفكير في إدارة أمورها، وهذه الصفة قد جعلها الركن الثاني وقدمها على بسطة الجسم، وهذا ركن واضح بين، فالجاهل لا مكان له في القيادة فهو يضر الأمة من حيث ينوي نفعها.

3. البسطة في الجسم. وفي ذلك دلالة على الصحة والقوة وذلك من مستلزمات التفكير الصحيح والعقل السليم وفق القاعدة (العقل السليم في الجسم السليم) وذلك أيضاً من مستلزمات الشجاعة والهيبة ومدافعة العدو، وهذه الصفة قد جعلها الركن الثالث فهي موجودة في الناس أكثر من الصفتين السابقتين.

<sup>1</sup> تفسير المنار 378/2-380

<sup>2</sup> البيهقي، شعب الإيمان، بنص "كَمَا تَكُونُوا كَذَلِكَ يُؤْمَرُ عَلَيْكُمْ" ح 7006، 492/9، وفي الدرر المنتثرة بنص "كَمَا تَكُونُوا يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ" ح 327، ص162، قال الألباني عنه ضعيف، الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ح320، 490/1

4. توفيق الله الأسباب له. وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 247]

وهذا الركن غير متعلق بمواهب الرجل، فجعله رابعا، فهو متعلق بالأسباب التي يسخرها الله عز وجل للقائد وليس متعلقا بمواهبه وخصائصه حتى يقدمه، وإنما ذكر ذلك كقاعدة عامة تنتم للفائدة، لا وصفا للقائد.

وأما المال فلم يجعله الشيخ من أسس القيادة والملك، ذلك أن الأركان السالفة الذكر إذا وجدت كان الحصول على المال هينا، ويحدثنا التاريخ عن من كان فقيرا أميا وقد أسس مملكة قوية متماسكة لما عنده من الاستعداد الفطري والمعرفة بحال الأمة، وقد ملك من الشجاعة ما كان كافيا للاستيلاء على الملك، ناهيك عن استعانتها بالعلماء والشجعان لتثبيت حكمه وسلطته.

واستشهد الشيخ بقول الشاعر لقيط بن معمر<sup>1</sup> حين ذكر ميزات القائد الجدير بقيادة الأمة وزعامتها فقال:

فَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ رَحْبٌ      الذَّرَاعُ بِأَمْرِ الْحَزْبِ مُضْطَلِعًا  
لَا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ      وَلَا إِذَا غَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ حَشَعًا  
وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُثْمِرُهُ      نَكْمٌ، وَلَا وَدٌّ يَبْغِي لَهُ الرُّفْعَا<sup>2</sup>

ثم بعد ذلك وضح الشيخ كيفية اختيار الرئيس المقبول على الأمة المتفق عليه، فبين أن الاختلاف في اختيار الحاكم أمر طبيعي معهود في الأمم، والتنازع فيمن يكون له الملك يؤدي إلى التفرق، فلا بد من مرجح مقبول يحتكم إليه أبناء الأمة، وإذا كان بنوا إسرائيل قد احتكموا إلى نبي لهم ليختار من بينهم من يكون قائدا لهم، فإن الإسلام قد جعل أولي الأمر ومن يبايعونه هو المرجح في اختيار من يكون له الملك على المسلمين، ثم قال عن أولي الأمر: "وهم أهل الحل والعقد والمكانة في الأمة الذين هم عون السلطان وقوته باحترام الأمة لهم وثقتها بهم"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> هو شاعر عربي قبل الإسلام، من قبيلة إياد، وكانت إياد أكثر نزار عداء، وأحسنهم وجوها، وأمدهم وأشدهم وأمنعهم، ينظر الدينوري الشعر والشعراء، 1/ 195

<sup>2</sup> ينظر النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 21/158

<sup>3</sup> تفسير المنار 2/391

ويظهر مما تقدم أنه وإن كان النسب له دور في اختيار الرئيس وكان من عادة الناس أن يبحثوا ويسألوا عن نسب الرئيس والحاكم وقد ورد أن هرقل قد سأل أبا سفيان عن نسب رسول الله، أجابه بقوله: "هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ"<sup>1</sup>، إلا أن الشيخ لم يجعل المرجح في اختيار الرئيس انتماءه لقبيلة أو قوم معينين وإنما جعل ذلك خاضعا لاختيار الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد، فمن يكون هؤلاء وما هو دورهم؟ هذا ما سوف نتحدث عنه ونوضحه في المطلب التالي.

### المطلب الثاني: أهل الحل والعقد وأثرهم في نهضة الأمم

لقد أمر الله تعالى بطاعة أولي الأمر بعد طاعته عز وجل وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، والسؤال هو: من هم أولي الأمر الذين عناهم الله تعالى في هذه الآية؟

لقد أجاب الشيخ في تفسيره على هذا السؤال بكل وضوح بعد أن بيّن أن أقوال المفسرين قد تعددت وتباينت في تحديد أولي الأمر فمن قائل هم الأمراء، ومن قائل هم العلماء، وبعضهم أطلقها في الحكام، وقالت الشيعة هم الأئمة المعصومون، وقد نقل عن الإمام كيف رد على هذه الأقوال، ثم قال بعد أن أجال النظر في الموضوع: "المراد بأولي الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم الأمراء والحكام، والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر، أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا منا... وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل هو مما يؤخذ عن الله ورسوله فقط ليس لأحد رأي فيه إلا ما يكون في فهمه"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري، بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ح، 7، 8/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 147/5

فأهل الحل والعقد عندما يجتمعون على مصلحة من مصالح المسلمين، يكون ذلك إجماعاً منهم، وقد عصمهم الله تعالى بهذا الإجماع فأمر بطاعتهم، وهذا ما يطلق عليه (الإجماع) وضرب على ذلك مثلاً بما استحدثه أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - من الدواوين بعد استشارة أهل الرأي من الصحابة، وما بعد الإجماع يكون (القياس) في حال عدم الاتفاق على رأي واحد، وللقياس شروطه وضوابطه، وذلك من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين، قال الإمام: "والمراد ألا يفضي التنازع إلى اختلاف التفرق الذي يلبس المسلمين شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً، ولكنهم لم يعلموا بالآية فترقوا واختلفوا"<sup>1</sup>.

وقد اهتدى الإمام لهذا المعنى في (أولي الأمر) وكان يظن أنه لم يسبق إلى هذا الفهم حتى رأى ذلك في تفسير النيسابوري<sup>2</sup>، ولكن الشيخ وضّح أن ما قاله النيسابوري هو تلخيص لما قاله الرازي<sup>3</sup> قبله بشكل أوسع وأعم، إلا أن عبارته كانت تؤدي المعنى بشكل أدق حيث قال: "وإذا ثبت أن حمل الآية على هذه الوجوه غير مناسب تعين أن يكون المعصوم كل الأمة، أي: أهل الحل والعقد، وأصحاب الاعتبار والآراء، فالمراد بقوله: (وأولي الأمر) ما اجتمعت الأمة عليه"<sup>4</sup>، قال الشيخ رشيد: "فقوله: أهل الحل والعقد، وأصحاب الاعتبار والآراء، وهو بمعنى قول الأستاذ الذي أدخل فيه أمراء الجند ورؤساء المصالح، وهذا هو المعقول؛ لأن مجموع هؤلاء هم الذين تثق بهم الأمة وتحفظ مصالحها، وبتوافقهم يؤمن عليها من التفرق والشقاق ولهذا أمر الله بطاعتهم، لا لأنهم معصومون من الخطأ فيما يقررونه"<sup>5</sup>.

ثم عاد الشيخ ونقل ما قاله الرازي، لأنه وجد في عبارته ما يوحي بما يسمى اليوم سلطة الأمة ومن ذلك قوله: "وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المسلمين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأمة، ولا طائفة من طوائفهم، ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم هو المراد بقوله: "وأولي الأمر

<sup>1</sup> تفسير المنار 148/5

<sup>2</sup> هو نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت 850هـ) صاحب التفسير: غرائب القرآن ورائب الفرقان، كان محققاً في العلوم الشرعية والحكومية، فاضلاً في الرياضيات، له تأليفات مشهورة معتبرة تدل على تجرّبه في المنقولات والمقوليات. ينظر حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، 36/2.

<sup>3</sup> هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ينظر الزركلي الاعلام، 313/6

<sup>4</sup> النيسابوري، غرائب القرآن ورائب الفرقان، 435/2

<sup>5</sup> تفسير المنار 148/5

أهل الحل والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة<sup>1</sup>، واستمر الشيخ في النقل عن الرازي وكيف رد وقد الأَقوال التي قالت في أولي الأمر إنهم الخلفاء أو أمراء السرايا أو علماء الدين أو الأئمة المعصومون، وبين أنه وإن كان الرازي حصر الأَقوال المخالفة في هذه الأربعة، فهناك من ذكر أَقوالاً أخرى في أولي الأمر، ولكن الرازي على إسهابه لم يحلّ المسألة بشكل تام فكان يعبر عنهم تارة بأهل الاجماع وتارة بأهل الحل والعقد الذين يختارون الإمام الأعظم كما يتبادر إلى الذهن، وهذا ما اختاره النيسابوري في تلخيصه لكلام الرازي، ثم نقل عن السعد قوله في شرح المقاصد: "وتتعد الإمامة بطرق: أحدها بيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس"<sup>2</sup>، ثم ختم الشيخ زيادة في التأكيد والتوضيح فقال: "فأهل الحل والعقد الذين هم خواص الأمة من العلماء ورؤساء الجند والمصالح العامة هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم فيما يتفقون عليه ؛ لأن عامة الناس ودهماءهم يتبعونهم بارتياح واطمئنان، ولأنهم هم العارفون بالمصلحة التي يحتاج إلى تقرير الحكم فيها، ولأن اجتماعهم واتفاقهم ميسور، ولأجل ذلك كان إجماعهم بمعنى إجماع الأمة برمتها"<sup>3</sup>.

ثم إن الشيخ في هذا البحث المستفيض حول آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]، يقرر أنها مبيّنة لأصول الدين والشريعة والحكومة الإسلامية الأربعة، وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس، ويؤكد على الأصل الثالث وهو الإجماع ويبين أن المقصود به هو ما يجمع عليه أولي الأمر، وهم الموثوقون عند الأمة من أهل العلم وقادة الجند وأرباب الزراعة والتجارة والصناعة، ومثلهم رؤساء العمال، وقادة الأحزاب، ومديرو الصحف ومحرروها، وهؤلاء يطلق عليهم أهل الحل والعقد، وطاعتهم هي طاعة أولي الأمر، ثم ذكر الشيخ الأصل الرابع، وهو رد المتنازع والمختلف فيه إلى قواعد القرآن والسنة، وهذا ما يطلق عليه (القياس)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الرازي، مفاتيح الغيب، 113/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 151/5، وينظر التفقازاني، شرح المقاصد 233/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 151 / 5

<sup>4</sup> تفسير المنار 152 / 5

ثم ينتقل إلى بيان السلطات التي تقوم عليها الدولة الإسلامية، ويبدو كم هو متأثر في ذلك بنظام الحكم الجديد للأمم المتقدمة القائم على سلطات ثلاث تشريعية وتنفيذية وقضائية، فيقرر أن الدولة الإسلامية تقوم على ثلاث جماعات (سلطات) جماعة المبيينين للأحكام وسماهم الهيئة التشريعية، وجماعة المنفذين وسماهم الهيئة التنفيذية، وجماعة المحكمين في حال التنازع، وهؤلاء لم يسمهم الشيخ<sup>1</sup>، ويمكن القول إن الشيخ يعني بجماعة المحكمين الهيئة القضائية التي تفصل في النزاعات، وبذلك يكتمل نظام الدولة الإسلامية بسلطاته الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ثم إن الشيخ يبين لنا أن الإسلام وضع لنا قواعد عامة في الحكم ولم يقيدنا بأسلوب وآليات محددة لتحقيق هذه القواعد وإنما ترك للأمة تحديد آلياتها ووسائلها وفق الزمان الذي تعيشه، ثم أكد على أن هذه القواعد والأصول هي أعظم وأرقى القواعد في تحقيق نهضة الأمة وسعادتها ورفقيها، فقال: "فالأمر الذي لا ريب فيه: أن الله تعالى هدانا إلى أفضل وأكمل الأصول والقواعد لنبني عليها حكومتنا ونقيم بها دولتنا، ووكل هذا البناء إلينا فأعطانا بذلك الحرية التامة والاستقلال الكامل في أمورنا الدنيوية ومصالحنا الاجتماعية، وذلك أنه جعل أمرنا شورى بيننا ينظر فيه أهل المعرفة والمكانة الذين نثق بهم، ويقررون لنا في كل زمان ما نقوم به مصالحتنا وتسعد أمتنا، لا يتقيدون في ذلك بقيد إلا هداية الكتاب العزيز والسنة الصحيحة المبينة له"<sup>2</sup>.

ثم بين الشيخ أنه لا فرق بين نظام الإسلام في الحكم وبين ما توصل إليه النظام العالمي الحديث إلا فرق يسير فقد بينت الآية بإيجاز، النظام الذي يجب أن تسير عليه الأمة ويقوم على طاعة الله ورسوله وطاعة أولي الأمر من المسلمين، فيجب طاعة أولي الأمر وهم ممثلو الأمة في ما لا يخالف طاعة الله ورسوله، ولا فرق في ذلك بين نظام الإسلام وما توصلت إليه أرقى الحكومات عند الغرب، فهم يقولون إن الأمة هي المصدر للقوانين والتشريعات، والشيخ يقول بذلك، ولكن فيما لا يخالف القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال: "وهم يقولون: إنه لا بد أن ينوب عن الأمة من يمثلها في ذلك حتى يكون ما يقررونه

<sup>1</sup> تفسير المنار 5 / 152

<sup>2</sup> تفسير المنار 5 / 153

كأنها هي التي قررتها، ونحن نقول ذلك أيضا كما علمت. وهم يقولون: إن ذلك يعرف بالانتخاب ولهم فيه طرق مختلفة، ونحن لم يقيدنا القرآن بطريقة مخصوصة، فلنا أن نسلك في كل زمن ما نراه يؤدي إلى المقصد، ولكنه سمي هؤلاء الذين يمثلون الأمة أولي الأمر<sup>1</sup>.

بعد كل هذا الاستطراد والتفصيل في بيان الآية وما تدل عليه من معاني تخص إدارة الدولة الإسلامية، وخاصة قضية أولي الأمر ودلالاتها على إجماع أهل الحل والعقد في الأمة، عاد الشيخ بعد ذلك ليقول إنه بقي في الآية مباحث لا يتم معناها إلا بتجليتها، ثم أخذ يجود ويطنب بما فتح الله عليه، فيما يزيد على عشرين صفحة أخرى، والحقيقة أنه في كثير من المباحث يعود على ما ذكره سابقا ويكرره بطريقة وأسلوب مغاير، مع الاستدلال بأمثلة من واقع الصحابة وهو الجيل الممثل للدولة الإسلامية الراشدة، وربما يعود الأمر في ذلك لكثرة تأثير الشيخ من واقع الفساد الإداري الذي كان يعيشه المسلمون، وضعف الدولة الإسلامية، ولما يراه من تقدم ورقي في الدول الأوروبية المتقدمة، وملخص كلامه أنه لا بد من الفصل بين السلطات التي تحكم وتجتهد فيما لا نص فيه وحكم عن الله ورسوله وهو الغالب الأعظم في حياة الأمة، وأن أهل الحل والعقد هم الممثلون للأمة، ويقوم أمرهم على الشورى فيما بينهم حتى يجمعوا على أمر فيكون ملزما لعامة الأمة، وعلى السلطة التنفيذية الالتزام بذلك، وفي حال التنازع في شيء، وعدم الاتفاق فيرجع إلى السلطة القضائية التي تفصل في الأمر من خلال القياس والاجتهاد وفق القواعد العامة لدستور الأمة وهو الإسلام، ثم أكد على أن أولي الأمر وهم أهل الحل والعقد يتم اختيارهم بالانتخاب أو بالطريقة التي يرونها مناسبة وفق زمانهم.

وربما يرجع إطنابه في بيان أولي الأمر لأجل تنفيذ ادعاء من ادعى ان المراد بأولي الأمر هم الأمراء والحكام فلا يجوز الخروج عليهم، فالبعض فسرها بحكام المسلمين، وأطلقها البعض دون تحديد، فقال الشيخ في بداية حديثه عن الآية: "وبعضهم أطلقها في الحكام فأوجبوا طاعة كل حاكم، وغفلوا عن قوله تعالى: منكم"<sup>2</sup>،

<sup>1</sup> تفسير المنار 154/5

<sup>2</sup> تفسير المنار 147/5

ونحن نرى في زماننا هذا كيف أن الكثير من العلماء يبررون للحكام أفعالهم ومخالفاتهم ويأمرون الشعب بالانصياع لهم وعدم الخروج عليهم بدعوى أنهم أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم.

هذا ما جادت به قريحة الشيخ وما خطه قلمه في حديثه عن أولي الأمر في هذا الموضوع خلال تفسير الآية التاسعة والخمسين من سورة النساء، وكل ما ذكره الشيخ عن أولي الأمر وأهل الحل والعقد في غير هذا الموضوع فإنه يخرج من مشكاة تفسيره لهذه الآية، فأهل الحل والعقد هم الذين ينوبون عن الأمة في تقرير سياستها وتدبير أمورها الدنيوية اقتصاديا واجتماعيا وعسكريا، وغير ذلك، فالأمر لهم وطاعتهم واجبة، فإذا كانت السلطة للأمة أو للشعب كما هو في الأنظمة الحديثة، فهي كذلك في الدولة الإسلامية، وذلك فيما لم يرد فيه شيء عن الله ورسوله، وأهل الحل والعقد هم من يمثل الأمة في هذه السلطة، فهم من ينصب الإمام الأعظم وهم من يعزله إن اقتضى الأمر، فقال الشيخ في موضع آخر: "وإن كان الإمام ظالما، فإن كف الإمام عن الظلم ولو بالعزل فهو حق أهل الحل والعقد الذين هم محل ثقة الأمة، الذين يمثلون الرأي العام فيها"<sup>1</sup>، ثم أشار أن أهل الحل والعقد هم إلى الذين عناهم خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله في خطبته الأولى عقب مبايعته: " فذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني"<sup>2</sup>.

وهذا الأمر معمول به في نظام الحكم الحديث في جميع الدول المتقدمة، حيث يمكن لمجالس النواب فيها أن تحجب الثقة عن الرئيس وأن تقوم بعزله في حال اقتضت الضرورة ذلك، فالمجالس النيابية يتم انتخابها من قبل الشعب والنواب يمثلون أهل الحل والعقد فيها.

وأكد الشيخ في أكثر من موضع أن أمر أولي الأمر إنما يكون بالشورى، وهو ما عناه الله تعالى في قوله:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: 38] وهذا ما سنتحدث عنه في المطلب التالي.

<sup>1</sup> تفسير المنار 153/12

<sup>2</sup> أبو عبيد، الخطب والمواعظ، ص186، الطبراني، المعجم الأوسط، ح8597، 267/8

### المطلب الثالث: الشورى وأثرها في نهضة الأمم

إن مبدأ الشورى من أهم مبادئ النظام السياسي في الإسلام ولقد قرره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38]، وعمل به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو سنة إلهية في تحقيق نهضة الأمة، فحيث عملت بهذه السنة والتزمتها في إدارة شؤونها واتخاذ قراراتها كان النجاح حليفها، والنصر والظفر إلى جانبها، فشتان بين قائد من داخل فريق يعمل بشكل جماعي منظم، وبين قائد يعمل بشكل فردي استبدادي، إذ إن الآراء إذا استكشفت وتعددت وتلاقحت، فلا بد أن ينتج عنها رأي سديد رشيد، أما الرأي الفردي فيبقى عاجزا قاصرا عن الإحاطة بالمسألة المطروحة والأمر المراد، وقد صدق حافظ إبراهيم عندما قال:

رَأْيُ الْجَمَاعَةِ لَا تَشْقَى الْبِلَادَ بِهِ رَغَمَ الْخِلَافِ وَرَأْيُ الْفَرْدِ يُشْقِيهَا<sup>1</sup>

ومن هذا المنطلق فقد عمل الشيخ محمد رشيد على إظهار هذه السنة الإلهية في تفسيره، وعمل على تجليتها بأبهى صورة عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 15]، وحبذا لو طال به العمر ليكمل تفسيره وليصل إلى قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، على الرغم من أنه تحدث عن هذه الآية خلال حديثه عن الشورى في أكثر من موضع في التفسير، وسوف أبين ذلك على النحو الآتي:

أولاً: الشورى سنة إلهية أمر بها الله وطبقها رسوله صلى الله عليه وسلم

أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه- وسلم التزام الشورى والمحافظة عليها في الوقت الذي يظن فيه البعض أن المشاورة كانت سببا فيما أصاب المسلمين في أحد، ففي الآيات التي جاءت تواسي المسلمين وتعلمهم وترشدهم بعد غزوة أحد وتعقب عليها وتبين أسباب النصر والهزيمة، جاء قول الله تعالى: ﴿فِيمَا

<sup>1</sup> من قصيدة تسمى العمرية لشاعر النيل حافظ إبراهيم، ينظر، ديوان حافظ إبراهيم، ص 91

رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿[آل عمران: 159]

الشورى وأهميتها في حياة الأمة، وكيف عمل بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فيبين أن النظام السياسي للمسلمين يقوم على الشورى ولا يتخلى عنها تحت أي ظرف من الظروف، فيجب العمل بالشورى في حالتَي السلم والحرب، وفي الأمن والخوف، وفي شتى الأمور والمصالح الدنيوية، وإن الآية تأمر رسول الله بالحفاظ على الشورى والمداومة عليها كما فعل قبل معركة أحد وإن أخطأت الجماعة الرأي فإن المصلحة في الشورى على المدى البعيد فيقول: "فإن الخير كل الخير في تربيتهم على العمل بالمشاورة دون العمل برأي الرئيس وإن كان صواباً، لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة) فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر"<sup>1</sup>.

وما أروع هذا الكلام الذي فيه أن مبدأ الشورى لا يمكن أن يكون سبباً في الهزيمة والشقاء أبداً، فلا يتسرب إلى نفس الرسول أو أي مؤمن أن الهزيمة في أحد كانت الشورى أحد أسبابها، وأنه لو لم يطع الرسول صلى الله عليه وسلم رأي المتحمسين من الشباب وقد كانوا هم الأكثرية في الخروج لملاقاة المشركين، لما أصاب المسلمين ما أصابهم، فجاء التعقيب والأمر مباشرة بعد الغزوة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ليؤكد على الرسول صلى الله عليه وسلم المداومة على الشورى، وهو النبي الذي ينتزل عليه الوحي فكيف بعامة الملوك والقادة، وقد قال الشيخ تأكيداً على ذلك في موضع آخر: "وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى، ووجد ذلك في أمم أخرى، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 163/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 219/11

ثم ينقل الشيخ عن الإمام كلامه في تعقيبه على الآية حيث قال: "قال الأستاذ الإمام: ليس من السهل أن يشاور الإنسان ولا أن يشير، وإذا كان المستشارون كثارا كثر النزاع وتشعب الرأي، ولهذه الصعوبة والوعورة أمر الله - تعالى - نبيه أن يقرر سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل، فكان - صلى الله عليه وسلم - يستشير أصحابه بغاية اللطف ويصغي إلى كل قول ويرجع عن رأيه إلى رأيهم"<sup>1</sup>. أما الأمر الذي دعاه الله تعالى للمشاورة فيه فيوضحه الشيخ بأنه هو الأمر ذاته المذكور في سورة الشورى عند قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38]، حيث القاعدة الأولى التي وضعت للحكومة الإسلامية، وتبين أن على الأمة أن تتشاور فيما على الحاكم فعله في الأمور الدنيوية وليس في الأمور الدينية الثابتة بوحى من عند الله، وقد كان الصحابة لا يعرضون رأيهم عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا إذا عرفوا أن ما يعرضون رأيهم فيه لم ينزل فيه وحي، وإنما هو من رأيه الخاص وذلك كما فعل الحباب بن المنذر قبل غزوة بدر<sup>2</sup>، ثم بين الشيخ كيف استشار النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في ملاقاته المشركين في بدر ثم كيف استشارهم في الخروج إلى أحد<sup>3</sup>.

ويختم الشيخ حديثه عن الشورى في هذا الموضع متحسرا على حال المسلمين اليوم وبعدهم عن الشورى التي أمر الله بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - في أحلك الظروف، وبعد أن كانت النتيجة المعلومة في أحد، وقد خرج إليها الرسول آخذا برأي الأغلبية من أصحابه ومطبقا للمبدأ الشوري العظيم، ويتعجب الشيخ كيف بعد هذا البيان الواضح في جعل الشورى أمرا ثابتا ووصفا لازما للأمة، وبعد أن أمر رسوله الذي عصمه عن الوقوع في الهوى بمشاورة أصحابه على الرغم مما كان من خطأ الأغلبية في أحد، يتخلى المسلمون عن هذا المبدأ ولا يسعون لتحقيقه وتطبيقه وكتاب الله يخاطبهم في أمورهم العامة كما يخاطبهم في الأمور

<sup>1</sup> تفسير المنار 163/4

<sup>2</sup> كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نزل في موقع قبل غزوة بدر وطلب مشورة الناس فتقدم الحباب بن المنذر وقال: "يا رسول الله، أرأيت هذا المنذر، أمثلن أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: فإن هذا ليس بمنذر! انطلق بنا إلى أذنى ماء القوم، فإني عالم بها وبقلبها، بها قلبت قد عرفت غدوبة ما به، وماء كثير لا يترخ، ثم نبني عليها حوضا ونقذف فيه الأتية، فنشرب ونقائل، ونغور ما سواها من القلب" ينظر الواقدي، المغازي،

53/1

<sup>3</sup> ينظر تفسير المنار 165/4

الخاصة؟ ثم يصف ملوك المسلمين بقوله: "وقد بلغ ملوكهم من الظلم والاستبداد مبلغا صاروا فيه عارا على الإسلام، بل على البشر كله"<sup>1</sup>.

ومن لطيف ما استنبطه الشيخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنَ الْأُمَّةِ يُدْعَوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104] أن الشورى في الأمة لازمة من أجل تبليغ الدعوة وإرساء قواعد المعروف والخير، وتجنب الأذى كل منكر وشر، وتحقيق الفلاح لها في الدنيا والآخرة. وقد نقل الشيخ عن أستاذه أن هذه الآية فيها دلالة قوية على وجوب الشورى لأنها تأمر بوجود أمة تقوم المعوج في الحكومة الإسلامية التي تقوم أساسا على الشورى، وبين الإمام أن دلالة هذه الآية في وجوب الشورى أقوى من دلالة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 15]، و﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَبْتَكُمُ﴾ [الشورى: 38] وقد عقب الشيخ على ذلك بقوله: "أقول: ومعنى الآية على هذا الوجه أنه يجب أن تكون قوة المسلمين تابعة لهذه الأمة التي تقوم بفريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي بمعنى مجالس النواب في الحكومات الجمهورية والملكية المقيدة، فكأن الآية بيان لكون أمر المسلمين شورى بينهم، وما ذكره في معنى وأمرهم شورى ومعنى وشاورهم في الأمر لعله يريد به أنه يمكن أن يقال فيهما كذا، وإلا فكل من النصين دال على وجوب كون حكومة المسلمين شورى"<sup>2</sup>.

أما كيفية تطبيق الشورى وتحديد آلياتها وقواعدها، فلم يلزمنا الرسول صلى الله عليه وسلم بطريقة معينة أو نظام خاص في تطبيقها، وذلك لأسباب بيّنها الشيخ، منها أن اختلاف أحوال الأمم زمانا ومكانا يجعل الأمر يختلف وفق كل حال، وكانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم محدودة، وهو الذي يعلم أن أمر الأمة سينمو ويتسع وسيفتح الله لأمته الممالك، فما يوافق العرب في زمان ما ربما لا يوافق غيرهم في أزمان أخرى، ومن الأسباب أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لو حدد آلية معينة لتطبيق الشورى في زمانه، لجعل

<sup>1</sup> تفسير المنار 168/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 37/4

المسلمون من بعده ذلك أمراً دينياً لا يحددون عنه في كل زمان، على الرغم من أن الأمر دينياً لا دينياً، ومنها أن الرسول لو اتخذ أسس الشورى وآلياتها بنفسه دون الرجوع إلى أصحابه لما كان بذلك شورياً، وحاشا لرسول الله أن يناقض نفسه بنفسه، ولو وضعها بالتشاور مع صحابته لكانوا بذلك ملزمين لمن يأتي بعدهم، وفي ذلك من الحرج واحتمال الخطأ ما فيه، وعليه ختم الشيخ بقوله: "أليس تركها للأمة تقرر في كل زمان ما يؤهلها له استعدادها هو الأحكم؟"<sup>1</sup>.

ويعود الشيخ لبيان هذا المعنى عند حديثه عن طاعة أولي الأمر، فبيّن أن الله تعالى ترك لنا اختيار آليات تطبيق مبدأ الشورى، وهدانا إلى أفضل الأصول وأكمل القواعد التي نقيم عليها حكومتنا ونبني بها دولتنا، وترك إتمام علو هذا البناء لنا كمسلمين وأعطانا كامل الحرية والاختيار في مصالحنا الدنيوية وقضايانا الاجتماعية، ثم قال: "جعل أمرنا شورى بيننا ينظر فيه أهل المعرفة والمكانة الذين نثق بهم، ويقررون لنا في كل زمان ما تقوم به مصلحتنا وتسعد به أمتنا، لا يتقيدون في ذلك بقيد إلا هداية الكتاب العزيز والسنة الصحيحة المبينة له، وليس فيهما قيود تمنع سير المدنية أو ترهق المسلمين عسرا في عمل من الأعمال، بل أساسهما اليسر، ورفع الحرج والعسر"<sup>2</sup>.

وهكذا يتبين أن مبدأ الشورى في النظام السياسي الإسلامي مبدأ واجب التطبيق، أما آليات تطبيقه فذلك خاضع لاختلاف الزمان والمكان واتساع الأمة واختلاف أحوالها، وكذلك خاضع لتقدم النظام البشري، وتعدد الوسائل والإمكانيات ووسائل تطبيق هذا المبدأ، وقد لاحظت أن الشيخ لم يتحدث عن الخلاف الفقهي في كون الشورى ملزمة أو غير ملزمة وذلك اكتفاء منه بالحديث عن الوسائل وآليات التطبيق، وأن القرآن والسنة لم يحددا لنا طريقة معينة لتطبيق الشورى وتُرك ذلك للأمة وما تتفق عليه بحسب حالها وزمانها، وكأن الشيخ يقول إن الإلزام وعدم الإلزام لا يحتاج إلى رأي فقهي من علماء الشريعة، ذلك أن الشورى لا تكون في الأمور الدينية، وإنما هي في الأمور الدنيوية، وذلك خاضع لما تتفق عليه الأمة في دستورها الذي تحدد فيه نظام

<sup>1</sup> تفسير المنار 165/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 153/5

الحكم الذي تدير به شؤونها، وأن هذا النظام هو الذي يحدد الصلاحيات للرئيس وغيره من الأمراء والوزراء، ويحدد متى تكون الشورى ملزمة له ومتى تكون معلمة فقط، وأنه في قضايا معينة تكون ملزمة كالقضايا المصيرية في حياة الأمة، وفي قضايا أخرى تكون فقط معلمة، وعليه فلا حاجة لهذا الخلاف، ويترك الأمر لما تتفق عليه الأمة وأهل الحل والعقد فيها.

ثانياً: الخلفاء الراشدون خير من طبق الشورى والتزمها

لقد حرص الشيخ على التأكيد أن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم إنما استلموا الخلافة بالشورى وفق إمكانيات تطبيقها في زمانهم، وكان أول تعرضه لهذه القضية عندما بين أهم السنن الاجتماعية المستفادة من قصة طالوت، فتحدث في السنة الرابعة عن اختيار طالوت ملكاً على بني إسرائيل ثم بين أن هذا الاختيار كان بأمر من الله تعالى لنبيهم في ذلك الزمان، فلما لم يكن نبي يوحى إليه من الله، فإن الاختيار يكون من خلال أهل الحل والعقد بالتشاور بينهم.

وإذا كان من طبيعة الأمم أن تختلف في اختيار من يتولى أمرها، وإذا كان الأنبياء في وجودهم بين الناس يمنعون الخلاف والتنازع على السلطة باختيار الأمير أو الملك كما فعل نبي بني إسرائيل في اختيار طالوت وكان ذلك بأمر من الله تعالى، فبعد انقطاع النبوة كان لا بد من طريقة يتفق عليها الناس في اختيار أميرهم، فبين الشيخ كيف جعل الإسلام اختيار الإمام الحاكم من خلال أهل الحل والعقد وبمبايعتهم، فهم الذين ينوبون عن الأمة وهم أولي الأمر الذين تثق الأمة بهم، وهكذا فهم العلماء عدم تنصيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- خليفة يتولى أمر الأمة من بعده، وإن فهم بعض الصحابة من إمامة أبي بكر الناس في الصلاة برضى الرسول وإنابته له أن في ذلك إشارة إلى رضاه بإمامته الناس في الأمور الدنيوية كما رضيه للأمور الدينية، إذ أنه عندما اشتد المرض برسول الله أمر أن يصلي بالناس أبو بكر بالناس، ثم قال الشيخ معقبا على ذلك: "ومع هذا قال عمر: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها"<sup>1</sup>. أي إن الشورى في

<sup>1</sup> أبو عبيد، غريب الحديث، 3/355

انتخابه لم تكن تامة، وإنما كان هو الذي عجل بالبيعة خوفا من عاقبة طول أمد الخلاف مع إجماعهم على عدم دفن النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل نصب الخليفة له، ولكن خلافته وإمامته -رضي الله عنه- لم تثبت بالفعل إلا بمبايعة الأمة له<sup>1</sup>.

وفي موضع آخر يبين الشيخ كيف كان تنصيب الخلفاء الأربعة بالشورى، فذكر ما قال عمر عن خلافة أبي بكر وكيف أنها لم تثبت إلا بالبيعة، أما خلافة عمر فيرد الشيخ على من يقول إنها كانت بعهد أبي بكر له ولم تكن بالشورى، وقد يدّعي ذلك الشيعة وغيرهم من الباحثين مستقلي العلم، فلا يكتفي الشيخ بأن الصحابة رضوا بذلك وأجمعوا عليه، بل بين أن خلافة عمر لم تخرج عن مبدأ الشورى، وأن الذي تولى تحقيق الشورى هو أبو بكر بنفسه، حيث سارع إلى ذلك بنفسه خوفا على الأمة من الفرقة والتنازع على الإمارة من بعده، فاستشار أهل الحل والعقد وأصحاب الرأي من خيار الصحابة، فوجد أن الأكثر يوافقونه الرأي في تولية عمر من بعده، ثم يقول الشيخ: "وما سبق لأبي بكر من المشاورة والإقناع في تولية عمر أغنى عن المشاورة بعد وفاته، فاتفق الجميع على مبايعته وصدق عليه أنه اتفق بعد شورى أو بسبب الشورى"<sup>2</sup>.

وبعد عمر جاء تنصيب عثمان - رضي الله عنه- بمنهج شوري وافق ذلك العصر والزمن الذي تم فيه، فعمر - رضي الله عنه- باجتهاد منه جعل الشورى في نفر معينين اقتصر الأمر عليهم تحاشيا لوقوع التنازع والفتنة إذا كثر المتشاورون، وقد كان المختارون من عمر للتشاور هم أرفع الصحابة قدرا، ويتمتعون بصواب الرأي وبالمكانة والاحترام عند المسلمين فيخضعون لما يتفقون عليه، ويتعصبون لهم إذا اختلفوا وتنازعوا، فلكل واحد من هؤلاء أنصار يتعصبون له ويرونه جديرا بالإمارة وأحق بها، ولم يكن هؤلاء المختارون من عمر مجرد أولي أمر، بل هم كما قال الشيخ: خواص أولي الأمر وزعمائهم، وهم الأولى بالمشاورة كما ورد الأمر في القرآن الكريم، واستمر الشيخ في بيان الشورى عند الراشدين إلى أن قال: "فما فعله أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- هو منتهى ما يمكن أن يعمل في إقامة الشورى بحسب حال الأمة واستعدادها في

<sup>1</sup> تفسير المنار 391/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 166/4

زمنهما. ثم إن المسلمين بادروا بعد قتل عثمان إلى مبايعة علي من غير اهتمام بالتشاور، لأن الكفاءة التي يرونها فيه لم تكن تقبل شركة تدعو إلى إجمالة الرأي، فمبايعة الخلفاء الراشدين كانت من الأمة برضاها، وكانوا يستشيرون أهل العلم والرأي في كل شيء<sup>1</sup>.

ثم إن هؤلاء الخلفاء قد التزموا الشورى في قضائهم وأمورهم الإدارية وما لا يجدونه في القرآن والسنة، فبين الشيخ أن أبا بكر كان إذا أعياه أمر لم يجده في الكتاب والسنة استدعى كبار الأمة ورؤساءها وعلماء المسلمين يشاورهم فيما طرأ له، فإذا أجمعوا على رأي معين وحكم خاص أخذ به، ومثله فعل أمير المؤمنين عمر، فإن لم يجد في القرآن والسنة يسأل عما قضاه أبو بكر إن كان قد قضى في مثله فيأخذ بقضائه، فإذا لم يكن استدعى علماء المسلمين وكبار القوم فاستشارهم في الأمر<sup>2</sup>.

ثم عن استشارتهم في غير القضاء من الأمور الإدارية ذكر الشيخ حادثة خروج عمر رضي الله عنه إلى الشام، فعندما سمع بوقوع الوباء فيها، جمع المهاجرين فاختلفوا بين الدخول والرجوع، وكذلك كان الحال مع الأنصار ثم جمع مشيخة قريش ومهاجرة الفتح فأجمعوا على الرجوع وعدم المخاطرة بالمسلمين الذين معه، وأخذ عمر بهذا الرأي ولما اعترضه أبو عبيدة قال كلمته المشهورة: نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف وذكر ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم به - أي الوباء - بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" فحمد عمر بن الخطاب الله ثم انصرف<sup>3</sup>.

وعقب الشيخ على الحادثة مبينا العبر المستفادة منها، فقد حگم أمير المؤمنين شيوخ قريش فيما وقع من خلاف بين المسلمين في المسألة، ثم أنفذ ما اتفقوا عليه، ويستفاد من الواقعة أيضا عدم اشتراط إحاطة أولي الأمر والمستشارين بكل ما جاء في السنة من حديث أو قضاء أو عمل، ثم قال: "كان الخلفاء الراشدون

<sup>1</sup> تفسير المنار 167/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 159/5

<sup>3</sup> ينظر، الحادثة بأكملها والحديث في صحيح مسلم كتاب السلام، باب الطاعون والظيرة والكهانة ونحوها ح 2219/4 1740

وقضاتهم العادلون يعرفون رءوس الناس، وأهل العلم والرأي والدين، ويعرفون أنهم هم أولو الأمر فيدعونهم عند الحاجة، وكانت الأمة في مجموعها رقيقة على أميرها"<sup>1</sup>.

وأما بعد الخلفاء الراشدين فإن الأمر قد اختلف، وقد وجدت الشيخ يحمل بشدة على بني أمية واستنثارهم بالخلافة دون أي اعتبار لرأي الأمة، أو تطبيق منهج الشورى الذي أمر الله به، فقد كان همهم حفظ ملكهم وتثبيت دعائم حكمهم وسلطتهم، فهم الذين أخذوا السلطة بالعصبية فكانوا هادمين للشورى بحسب الشيخ، حيث يقول: "بنو أمية هم الذين زرعوا بناء السلطة الإسلامية على أساس الشورى، إذ كَوَّنوا لأنفسهم عصبية هدموا بها سلطة أولي الأمر من سائر المسلمين بالحيلة والقوة وحصروها في أنفسهم"<sup>2</sup>، ثم يقول في موضع آخر: "فهم الذين هدموا قاعدة الحكم بالشورى في الإسلام بدلا من إقامته ووضع القوانين التي تحفظها، وتجعل استنفاذ الأمة منها تابعة لتقدم العلوم والمعارف وأعمال العمران فيها"<sup>3</sup>، ويمضي الشيخ في حملته على الأمويين ووصفهم بالاستبداد حتى ذكر مقولة عن عبد الملك بن مروان لا يعلم مدى صحتها، وهي أنه قال على المنبر: "من قال لي اتق الله ضربت عنقه".

ولا بد من التوقف هنا عند هذه الرواية عن عبد الملك بن مروان، فأقول: إن من عادة الشيخ أن يحقق الروايات والأخبار وخاصة مثل هذه التي فيها طعن كبير على خليفة كبير كان له دور فعال في ازدهار الحضارة الإسلامية الأموية توازي دور المأمون في الحضارة العباسية، وهنا لم يخرج الشيخ الرواية سوى أنه نسبها لبعض المؤرخين من غير تحديد، وقد بحثت كثيرا عن هذه العبارة في المراجع التاريخية الأصلية فلم أجدها، وكان الشيخ قد ذكر هذه الرواية في موضع سابق أيضا دون تخريج<sup>4</sup>، ويندرج ذلك في حملة شديدة على الأمويين، في حين أنه عاب على العباسيين استمرارهم بنظامهم الوراثي الاستبدادي بكلمات قليلة منها أنهم ورثوا ذلك عن الأمويين، فرسخت فيهم مع وجود العنصر الأجنبي الذي يتحمل المسؤولية الأكبر في

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 5 ص 160

<sup>2</sup> تفسير المنار 161/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 167/4

<sup>4</sup> ينظر تفسير المنار 50/4

ذلك من وجهة نظره<sup>1</sup>، ولا أدري إن كان ذلك بسبب حرص الشيخ وغيرته على النظام الإسلامي الشوري، أم أن ذلك صادف هوى في نفس الشيخ الذي ينتسب لآل البيت، فكان يحمل في داخله على الأمويين الذي انتزعوا الخلافة من الإمام علي وابنه الحسن. أم بسبب الأمرين معا.

وإن الأمر لم يتوقف عند عبد الملك، بل تبع ذلك لمز وغمز في الصحابي معاوية بن أبي سفيان كما بينت ذلك تباعا لكلامه في عبد الملك. وإذا كان حبه لآل البيت يدفعه لذلك فلن يكون أكثر حبا لهم من ابن عم علي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي ورد عنه أنه قال: "ما رأيت احدا أخلق للملك من معاوية كان الناس يردون منه على أرجاء واد رحب ليس كالضيق الحصر المتغضب يعني ابن الزبير"<sup>2</sup>،

وكذلك فإنني ما وجدت الشيخ في تفسير المنار يذكر الصحابي معاوية رضي الله عنه بأي كلمة ثناء أو ترحم، ولم يلتمس له أي عذر فيما فعل، ولم يذكره بصفة الصحابي في أي موضع ورد ذكره في تفسيره المنار، بل إنه يعدّه موقفا للزحف الإسلامي، وهادما للنظام الشوري الإسلامي، مما جعل أعداء الإسلام ومفكري الغرب يمتدحونه ويثنون عليه، فيحكى الشيخ عن أحد علماء الألمان فيقول: "قال أحد كبار علماء الألمان في الأستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له: لماذا؟ قال: لأنه هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كله، ولكننا نحن الألمان وسائر شعوب أوربة عربا ومسلمين"<sup>3</sup>.

ولا شك أن هذا من الغلو الذي لا يليق بقامة علمية عالية كبيرة كالشيخ محمد رشيد، لأنه بذلك يفتح الباب لمن هم دونه للطعن والوقوع في صحابي كان يكتب لرسول الله، وإن كان عليه ما عليه فإن له الكثير مما يشفع له ويرفع قدره.

<sup>1</sup> تفسير المنار 167/4

<sup>2</sup> ينظر، البخاري، التاريخ الكبير، ج 7 ص 327. وينظر، الصنعاني، الأمالي في آثار الصحابة، ص 74 رقم 97

<sup>3</sup> تفسير المنار ج 11 ص 214

ثالثاً: الشورى في أولي الأمر أهل الحل والعقد

كثيراً ما يذكر الشيخ أهل الحل والعقد وهم ألو الأمر الذين تحدثت عنهم في المطلب السابق، بوصفهم أهل الشورى ويطلق عليهم هذا الاسم ليبقى لاصفاً بهم، وعلى ذلك تطلق كثير من الدول الإسلامية على مجالسها النيابية اسم مجلس الشورى<sup>1</sup>، وقد دعا الشيخ إلى ضرورة وجود رجال ذوي رأي وبصيرة في مصالح الأمة ومعرفة في السياسة وعندهم القدرة على مواجهة أي أمر من الأمن أو الخوف، بالرأي السديد والعقل الرشيد، وهؤلاء يعرفون عند المسلمين بأهل الحل والعقد وأهل الشورى وأحكامهم نافذة، فقال الشيخ: "ومن أحكامهم أن بيعة الخلافة لا تكون صحيحة إلا إذا كانوا هم الذين يختارون الخليفة ويبايعونه برضاهم وهم الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة"<sup>2</sup>، ويقول في موضع آخر: "أما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فهي مفوضة بأمر الله إلى أولي الأمر، وهم رجال الشورى من أهل الحل والعقد، فما يقررونه يجب على حكام المسلمين أن ينفذوه وعلى الرعية أن يقبلوه"<sup>3</sup>.

وبين الشيخ أن أهل الحل والعقد ينوبون عن الأمة في التشاور بينهم حيث لا يتيسر مشاوره كل فرد من أفراد الأمة، فمن المعلوم أن أولي الأمر هم من لهم الأمر في إدارة مصالح الأمة وسياستها، وهذا ما أشار الله إليه في قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، ولما كان من الصعب أن تتحقق هذه الشورى بين كافة أبناء الأمة، وجب أن تكون الشورى بين طائفة من الأمة تتوب عنها ويكون رأيها بمثابة رأي جميع أفراد الأمة، فهذه الطائفة عندها من العلم بمصالح الأمة العامة ومن الغيرة عليها ما هو عند عامة أبناء الأمة، وقد حازت هذه الطائفة على ثقة واطمئنان سائر أفراد المسلمين ثم قال الشيخ عن هذه الطائفة: "وما هؤلاء إلا أهل الحل والعقد الذين تكرر ذكرهم في هذا السياق"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> وإن كانت الكثير من هذه المجالس تتوشح بالآية الكريمة {وأمرهم شورى بينهم} إلا أنها في الحقيقة بعيدة كل البعد عن تطبيق هذا المبدأ على الوجه الصحيح.

<sup>2</sup> تفسير المنار ج 3 ص 10

<sup>3</sup> تفسير المنار ج 3 ص 269

<sup>4</sup> تفسير المنار ج 5 ص 153

وعندما تحدث الشيخ عن رفع الحرج عن الأمة وكيف ترك لها الإسلام البحث والعمل في أمورها الدنيوية وفق ما تراه أنسب لمصلحتها، فلم يقيدتها بأحكام ولم يلزمها بغير ما ورد بيانه في القرآن والسنة وهو قليل، وترك لها بقية الأمور في دائرة العفو والمباح وهو كثير، ومن ذلك قضايا السياسة وإدارة شؤون الأمة فقال: "وجعل أمور سياسة الأمة وحكومتها شورى، إذ قال في وصف المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] وأمر بطاعة أولي الأمر وهم أهل الحل والعقد ورجال الشورى بالتبع لطاعة الله ورسوله وأرشد إلى رد أمور الأمن والخوف المتعلقة بالسياسة والحرب والإدارة إلى رسول الله وإلى أولي الأمر"<sup>1</sup>.

ثم بين أن عدم تحديد كيفية اختيار أهل الشورى ووضع نظام خاص بهم من أجل جعل ذلك خاضعا للحال والزمان الذي تعيشه الأمة، ولا حرج في أن تنتخب الأمة مجالس الشورى أو ما يعرف بالمجالس النيابية انتخابا لا أكره فيه ولا ضغوط، وتحدث عن عملية الانتخاب التي تجري في الدول التي قامت على قاعدة الشورى بحيث يقوم أفراد الأمة بانتخاب من يتقون بهم ليكونوا نوابا عنهم في وضع القوانين ومراقبة السلطة التنفيذية وتعيين السلطة القضائية وإقامة المجالس الإدارية، إلى أن قال: "ولا يكون هذا الانتخاب شرعيا عندنا إلا إذا كان للأمة الاختيار التام في الانتخاب بدون ضغط من الحكومة ولا من غيرها ولا ترغيب ولا ترهيب"<sup>2</sup>.

وهكذا يكون أهل الحل والعقد وهم السلطة التشريعية وهم المنتخبون للسلطة التنفيذية وهي الحكومة في مسمى العصر، وهذه الحكومة الإسلامية لا بد أن تقوم كذلك على الشورى، كما نقل الشيخ عن أستاذه قوله: "والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى"<sup>3</sup> وقال الشيخ عن الحكومة الإسلامية إنها يجب أن تكون شورية انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 15] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38] "فكل من النصين دال على وجوب كون حكومة المسلمين شورى"<sup>4</sup>. وهكذا تكون جميع

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 7 ص 118

<sup>2</sup> تفسير المنار 142/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 37/4

<sup>4</sup> تفسير المنار 37/4

السلطات في الدولة الإسلامية خاضعة للشورى، وتحت مراقبة الأمة وسلطتها فيما هو من أمور الدنيا التي لم يرد فيها حكم شرعي، وقد وضح الشيخ فقال: "ثم إن كون الأمة الخاصة منتخبة من الأمة العامة يقتضي أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة تحاسبها على تفريطها ولا تعيد انتخاب من يقصر في عمله لمثله. فالأمة الصغرى المنتخبة، تكون مسيطرة على أفراد الأمة الكبرى المنتخبة، وهذه تكون مسيطرة على الأمة الصغرى، وبهذا يكون المسلمون في تكافل وتضامن"<sup>1</sup>.

### المطلب الرابع: الأمانة والعدل وأثرهما في نهضة الأمم

الأمانة والعدل في إدارة الدولة من أهم عوامل نهضتها واستقرارها، ولا يقوم الملك ولا يستدام بغير هاتين السنتين المتلازمتين، فالأمانة لم تطق السموات والأرض والجبال حملها لشدة ثقلها، ولكن حملها الإنسان، لأنه لا غنى له عنها ولا يستطيع العيش دونها، وقد قال الصادق الأمين: "لا إيمان لمن لا أمانة له"<sup>2</sup>، وأما العدل فهو أساس الملك، وقد تمت كلمة الله في إقامة السموات والأرض على العدل<sup>3</sup>، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115]، وعليه فإن العدل في الحكم وسياسة الدولة هو سنة إلهية واضحة في نهضة الأمم وتقدمها، فلا ينصر الله أمة ظالمة، وقد ذكرنا في مقدمة هذا المبحث ما قرره ابن تيمية: "إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"<sup>4</sup>.

ولقد تنبه شيخنا إلى هذه السنن الإلهية في نهضة الأمم، ونبه إليها في العديد من المواضع، فعندما تحدث في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، قال: "إن الله كان سميعًا بصيرًا ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾".

<sup>1</sup> تفسير المنار 38/4

<sup>2</sup> الحديث: عن أنس بن مالك قال: ما خطبتنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" مسند الإمام أحمد بن حنبل وحكم عليه المحققون في الهامش بأنه حسن. 376 / 19

<sup>3</sup> عندما ذهب عبد الله بن ربيعة رضي الله عنه خارصا ثمار أهل خيبر وأخبرهم بشدة بغضه لهم إلا أن ذلك لا يحمله على أن يحيف عليهم فلما انتهى من الخرص ورأوا عدله قالوا "بهذا قامت السموات والأرض ينظر، الصنعاني، المصنف، ح 7204، 123/4

<sup>4</sup> الحسبية في الإسلام، ص7

﴿النساء: 58-59﴾ قال: "هاتان الآيتان هما أساس الحكومة الإسلامية، ولو لم ينزل في القرآن غيرهما لكفتا المسلمين في ذلك إذا هم بنوا جميع الأحكام عليهما"<sup>1</sup> وهذا الفهم لهاتين الآيتين قد أخذه الشيخ عن أستاذه الإمام الذي قال: إنه عندما اطلع على كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية وجده في مجمله مبنيا على هاتين الآيتين<sup>2</sup>.

وقد آثرت أن أتحدث عن العدل والأمانة في مطلب واحد، وذلك لتلازم هاتين السنتين ولارتباطهما ببعضهما، ولكون إحداهما ثمرة للأخرى، لا عدل بغير أمانة ولا أمانة إذا لم يكن العدل. وسوف أبين ذلك على النحو الآتي:

أولا: سنة الأمانة وأهميتها

بدأ الشيخ في تفسير الآيات السابقة وبعد أن تحدث في المسألة الأولى عن الأمانة وبيّن أن معناها هو كل ما يؤمّن عليه الإنسان، وأن كل ما يحفظ ليؤدى إلى صاحبه فهو أمانة، ومن يحفظ ويؤدى يسمى أمينا، ومن لا يحفظ الأمانة ولا يؤديها يسمى خائنا<sup>3</sup>، وفي المسألة الثانية عن العدل وأصله اللغوي بين أنه من المثل والعدل هو المثل الذي يساويه، وأن العادل في حكمه هو من يتحرى المماثلة والمساواة بين المتخاصمين فلا يقدم أحدهما على الآخر<sup>4</sup>، وفي المسألة الرابعة بيّن حكمة تقديم الأمر بأداء الأمانة على الحكم بالعدل، وذلك أن العدل في الحكم يحتاجه الناس عند ضياع الأمانة المتعلقة بحقوقهم وخيانتها فيتخاصمون إلى الحاكم، فالأصل أن يكون الناس أمناء يؤدون الأمانة إلى أصحابها بوزع من الدين والفترة، والخيانة مخالفة للأصل ولا توجد في الأمة المسلمة إلا في حالات شاذة إلى أن قال: "وقلما يحتاج إلى العدل في الحكم إذا راعى الناس أماناتهم وأدوها إلى أهلها"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 136/5

<sup>2</sup> تفسير المنار 140/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 140/5

<sup>4</sup> تفسير المنار 141 /5

<sup>5</sup> تفسير المنار 143/5

وفي أهمية الأمانة ودورها في صلاح الأمة واستقامتها نقل الشيخ عن جمال الدين الأفغاني من رسالته (الرد على الدهريين) قوله: "من المعلوم الجلي أن بقاء النوع الإنساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال، وروح المعاملة والمعاوضة إنما هي الأمانة، فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة وانبرتت حبال المعاوضة، فاختلف نظام المعيشة، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل"<sup>1</sup> وهذا كلام في غاية الأهمية، فحياة الناس في معاملاتهم إنما تقوم وتصلح بالثقة فيما بينهم، والثقة لا تكون بغير الأمانة.

ثم أكمل الشيخ في النقل عن الأفغاني في أهمية الأمانة كسنة اجتماعية في حفظ الأمة وصلاحها، حيث بين أن رفاهية الأمم وراحة الشعوب وصلاح معيشتهم وانتظام أمرهم متعلق بوجود الحكومة، ولا تقوم الحكومة بغير رجال يتولون أعمالها، وهم طبقات متعددة، كل طبقة تؤدي ما أنيط بها من عمل بأمانة وانتظام، فإذا ضيعت الأمانة ووقعت الخيانة في أولئك الرجال الذين يعدون أركاناً للدولة، انعدم الأمن وسقطت الأمة وذهبت الراحة من بين كافة الرعايا وضاعت حقوق الناس، ووقع القتل والنهب وفسدت التجارة وفتحت أبواب الحاجة والفقر، إلى أن قال: "فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان، ومستقر أساس الحكومات، وبأسط ظلال الأمن والراحة، ورافع أبنية العز والسلطان، وروح العدالة وجسدها، ولا يكون شيء من ذلك بدونها"<sup>2</sup>، ثم عرض ما يصيب الأمة التي عطلت الأمانة، فقال: "فلا تجد فيها إلا آفات جائحة ورزايا قاتلة، وبلايا مهلكة، وفقرا معوزا، وذلا معجزا، ثم لا تلبث بعد هذا كله أن تبتلعها بلاليع العدم، وتلتهمها أمهات اللهيم"، ولعمري إن هذا الكلام من أجمل ما يقال في بيان هذه السنة الإلهية وأهميتها في صلاح ورفاهية الأمة ونهضتها.

ثم بين الشيخ أن من أعظم الأمانات في سياسة الدولة الإسلامية توسيد الأمر إلى أهله، - كما يقال وضع الرجل المناسب في المكان المناسب- فإن تعيين غير الأكفاء ليكونوا ممثلين للأمة في مناصب لم يتأهلوا

<sup>1</sup> تفسير المنار 144/5

<sup>2</sup> تفسير المنار 145/5

لها، يعد من خيانة الأمانة، وعواقب ذلك خطيرة على الأمة في تقريب زوالها واضمحلالها، فعندما تحدث الشيخ في مباحثه التي ختم بها حديثه عن أولي الأمر وطاعتهم في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]، بيّن في المسألة التاسعة خطورة توسيد الأمر إلى غير أهله، وذكر حديث البخاري: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"<sup>1</sup>، والواضح من الحديث أن توسيد الأمر إلى غير أهله هو إضاعة الأمانة كما بين النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم ذكر الشيخ أن المراد من الساعة في الحديث قد بيّنه الإمام بقوله: "إن المراد بالساعة في هذا الحديث ساعة الأمة التي تقوم فيها قيامتها أي: تدول دولتها على حد: من مات فقد قامت قيامته"<sup>2</sup> ونقل عن الغزالي<sup>3</sup> والأصفهاني<sup>4</sup> أن قيام الساعة قد يأتي بمعان متعددة، وإن عدم وجود أمر الناس في يد أهله الذين يقومون به على الوجه الصحيح بأمانة واقتدار سبب لفسادهم واقتراب ساعتهم التي يقع فيها الهلاك عليهم<sup>5</sup>.

واستمر الإمام في بيان حال الأمة الإسلامية عندما كانت الأمانة راسخة قوية فيها، فلا يمكن ان توسد الأمر لغير أهله باختيارها ما دامت عالمة بحقوقها وقد جعلت كتاب الله موجها لها، وإنما يسلبها المتغلبون هذا الحق وهذا الاختيار مع فشو الجهل والعصبية التي يعلو نفوذها نفوذ أولي الأمر، وبذلك كان سقوط الممالك الإسلامية الواسعة ووقوعها تحت وصاية الدول العريضة التي حافظت على الأمانة وجعلت أمرها بيد الأمة ووسدت الأمر إلى أهله الأكفء، وكان الجهل بالقرآن وسنة رسول الله سببا للتمكين لأهل العصبية في بلاد الإسلام بالتدريج، إلى أن قال: 'فكان أول ملك من ملوك العصبية قريبا من الخلفاء الراشدين في احترام أولي الأمر الذين تثق بهم الأمة لدينهم وعلمهم قبل أن تقوى العصبية عليهم، واعتبر ذلك بأخبار معاوية ومن

<sup>1</sup> صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشغول في حديثه، فأتم الحديث ثم أجاب السائل، ح59، 21/1 والحديث: عن أبي هريرة قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين - أراه - السائل عن الساعة» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

<sup>2</sup> تفسير المنار 174/5

<sup>3</sup> تحدث الإمام الغزالي عن ذلك في كتاب الصبر والشكر باب بيان حقيقة الصبر ومعناه، ينظر، الغزالي، إحياء علوم الدين، 64/4

<sup>4</sup> ينظر، الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص335

<sup>5</sup> تفسير المنار 175/5

بعده، دخل أبو مسلم الخولاني<sup>1</sup> على معاوية، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فقالوا: قل السلام عليك أيها الأمير، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فأعادوا قولهم وأعاد قوله، فقال معاوية: (دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول)<sup>2</sup>.

وبعد أن انتهى من نقل ما قاله الإمام في توسيد الأمر إلى غير أهله بين أن ضعف أولي الأمر وجهلهم هو المؤدي إلى توسيد أمر الولايات إلى غير أهله سواء كانت ولايات عامة أو خاصة، ثم إن تسلط الأمراء وإفسادهم لأولي الأمر سبب كذلك في توسيد الأمر إلى غير أهله، وعلى الأمة أن تعرف حق أولي الأمر وترده إليهم كي يردوا إليها حقها،<sup>4</sup> ثم ذكر الشيخ في موضع آخر مفاصد توسيد الأمر إلى غير أهله، بعد أن ذكر الطريقة المثلى لإقامة ميزان العدل وهي رفع قواعد الحكم على الأساس الذي شرعه الله تعالى للمسلمين، فقال: "وإنما مثار المفاصد كلها أن يوسد الأمر إلى غير أهله. وأن يقر على الملك كل متغلب، ويرضى بتقليده كل جائر جاهل. فهذا هو الأضاع على المسلمين دينهم ودنياهم"<sup>5</sup>.

ولقد أفاض الشيخ في الحديث عن الأمانة وأهميتها في الدولة والمجتمع الإسلامي عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [الأنفال: 27]، فبعد أن تحدث عما جاء في أسباب النزول، وعن معنى خيانة الله ورسوله، انتقل إلى الحديث عن الأمانات والتحذير من خيانتها فقال: "ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية ولا سيما الحربية، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية"<sup>6</sup> وهذا تنبيه من الشيخ إلى أن انتظام الدول واستقرارها يكون بحفظ الأمانة، وأن إفشاء الأسرار السياسية والعسكرية مؤذن بانتقاض

<sup>1</sup> هو عبد الله بن ثوب. وكان ثقة، من أهل البصرة، وقيل أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وكان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الأمة وتوفي في خلافة يزيد بن معاوية. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 442/3. والأعلام للزركلي، 75/4

<sup>2</sup> يلاحظ هنا أن هذا الخبر فيه ثناء على معاوية رغم أن ملكه قام على العصبية، ولكنه كان حديث عهد بالراشدين وقد ذكره الإمام محمد عبده وليس الشيخ السيد رشيد رضا رغم أنه نقله بأمانة.

<sup>3</sup> تفسير المنار 175/5

<sup>4</sup> تفسير المنار 176/5

<sup>5</sup> تفسير المنار 165/7

<sup>6</sup> تفسير المنار 535/9

بنيان الدول من داخلها، ثم استحضر الشيخ في هذا الموضوع بعض الأحاديث المبيّنة لأهمية الأمانة، ومن ذلك ذكر حديث المجالس بالأمانة<sup>1</sup>، وحديث: "إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة"<sup>2</sup>.

ثانيا: العدل وأهميته

نقل الشيخ ما قاله الإمام عند تفسير الآيات السابقة في وجوب العدل في الحكم حيث بين أن الله عزوجل قد أمر من يتصدى للحكم بين الناس أن يفعل ذلك بالعدل والإنصاف، والحكم بين الناس يكون من خلال الولاية العامة أو من خلال القضاء أو أن يحتكم المتخاصمون إلى حكم يرضونه في قضية خاصة، فجميع هؤلاء الحكام عليهم أن يحكموا بالعدل الذي أمر الله به، ثم بيّن أن استقامة الحاكم وبعده عن الميل لأحد المتنازعين وعن الهوى في كره أحد المتخاصمين وإن كان لا يحب الآخر من أهم أسس العدل<sup>3</sup> إلى أن قال: "ولو كنا نقيم العدل لما كنا في هذه الحالة من الضعف وسوء الحال"<sup>4</sup>، ثم بين في هذا الموضوع معنى العدل لغة وأرجع أصله إلى المساواة بين طرفين، وركز في حديثه على عدل الحاكم أو القاضي بين المتخاصمين، ثم قال: "وحاصل الأمر فيه: أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه وألا يمتزج ذلك بغرض آخر"<sup>5</sup>.

ثم إن الشيخ في المسألة السابعة من المسائل التي جاء بها توضيحا للآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58] أورد الكثير من الشواهد القرآنية التي تأمر بالعدل وتعظم شأنه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90] وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9]، وقوله أمرا النبي تبليغه للناس: ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ

<sup>1</sup> عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق" انظر أبو داود سنن أبي داود ح 4869، 268/4 في الهامش حكم الألباني ضعيف

<sup>2</sup> البيهقي، السنن الكبرى، ح 21203، 223/21 في الهامش حسنه الألباني

<sup>3</sup> تفسير المنار 139/5

<sup>4</sup> تفسير المنار 140/5

<sup>5</sup> تفسير المنار 142 / 5

بَيْنَكُمْ ﴿[الشورى: 15]، وقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ

وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135] وفي معناها

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا

تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَتَقْوَىٰ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]، ثم قال: "المسلمون

مأمورون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:

152] وهذا الأمر موجه إلى الحكام وغيرهم".<sup>1</sup>

ومن جميل ما قاله الشيخ في ضرورة التزام الحكام بالعدل عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِن أَرَادَ فِصَالًا عَنِ تَرَاضٍ

مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: 233] وبعد أن بين ما يجب على الوالدين من التشاور من أجل تحقيق مصلحة الولد

الذي بينهما قال: "إذا كان القرآن يرشدنا إلى المشاورة في أدنى أعمال تربية الولد ولا يبيح لأحد والديه

الاستبداد بذلك دون الآخر فهل يبيح لرجل واحد أن يستبد في الأمة كلها، وأمر تربيتها وإقامة العدل فيها

أعسر، ورحمة الأمراء أو الملوك دون رحمة الوالدين بالولد، وأنقص؟!"<sup>2</sup>، ثم أطلق كلمة تسجل بأحرف من

نور عندما تحدث عن ضرورة إنفاق الأمة على الإعداد والعتاد من أجل الجهاد في سبيل الله وذلك خلال

تفسيره قوله تعالى ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]

قال: "ولا ثروة مع الظلم، ولا عدل مع الحكم المطلق الاستبدادي"<sup>3</sup>. وهذا الكلام يشبه ما قاله في تعقيبه على

غزوة أحد حيث تطرق إلى أسباب النصر والهزيمة وذكر من أسباب النصر الاستعداد والإعداد فقال: "ولا

قوة إلا بالعلم والمال، ولا مال إلا بالعدل، ولا عدل مع حكم الاستبداد"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 5/ 145

<sup>2</sup> تفسير المنار 2/ 328

<sup>3</sup> تفسير المنار 2/ 172

<sup>4</sup> تفسير المنار 4/ 99

لقد تحدث الشيخ بمقدمة طويلة في مطلع سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس:2] عن إثبات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن معجزته القرآن الكريم، وذكر أهم مقاصد القرآن ومنها: (بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة)<sup>1</sup>، وتحت هذا العنوان بين أن الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم، وإن إقامة الحق والحكم بالعدل من أهم الأسس التي يكون بها صلاح البشر، ومن جميل الأمثلة التي ساقها عن عدل خلفاء المسلمين وسلاطينهم، ما رواه عن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وقد جاءه أحد رجاله المقربين يستعديه على رجل آخر قد غشه في البيع، فأخبره صلاح الدين أن هذا اختصاص قاضي المسلمين وليس له أن يتدخل في عمله، فقال: "ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيته ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته، فالحق يقضي لك أو عليك"<sup>2</sup> وعقب الشيخ على هذه القصة بقوله: "إن القضاة مستقلون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس"<sup>3</sup> ثم بين كيف تعلم الصليبيون من صلاح الدين طريقه في الحكم ونقلوا ذلك إلى بلادهم وأسسوا حكمهم على قاعدة سلطة الأمة التي جاء بها الإسلام وصاروا يدعونها لأنفسهم، في حين صارت الأمة الإسلامية مرهقة بحكومات استبدادية<sup>4</sup>.

في ختام هذا المبحث لا بد أن أؤكد أن السنن السياسية في نهضة الأمة القائمة على حسن اختيار الحاكم الصالح وأولي الأمر وعلى الشورى والعدل والأمانة، هي من أهم وأعظم السنن التي تنهض بها الأمم وترتقي، ولا شك أن الشيخ من خلال ما سبق قد أبدى اطلاعا واسعا وفهما عميقا لهذه السنن، فكان هذا المبحث أطول المباحث حيث وجدت من خلاله أن الشيخ قد رسم للأمة طريق نهضتها وعزتها من خلال هذه السنن،

<sup>1</sup> تفسير المنار 217/11

<sup>2</sup> أورد هذه القصة ابن جبير في رحلته، قال: "وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والأثرة مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيبا أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيته ممتثلة وإنما أنا عبد الشرع وشحنته والشحنة عندهم صاحب الشرطة فالحق يقضى لك أو عليك وهذا في العقد مقصد عمري" ينظر ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت 614هـ) رحلة ابن جبير دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ط 1، ص 271

<sup>3</sup> تفسير المنار 219/11

<sup>4</sup> تفسير المنار 220/11

مستلهما الكثير من تجارب الأمم، وخاصة الأمة الإسلامية في عهدها الأول، وكذلك ما أنتجته الحضارة الحديثة والأمم المتقدمة من نظم سياسية قومية تسهم في استقرار البلاد وازدهار الدول.

## المبحث الرابع: السنن الاقتصادية في نهضة الأمم في تفسير المنار

لا تقاس قوة الدول بحجم ترسانتها العسكرية ولا بكترة جيوشها فقط، بل تقاس أيضا بقوة اقتصادها وبحجم ناتجها القومي، وإذا غفلت الأمة عن تنمية ثرواتها وتقوية اقتصادها فقد أهملت ركنا ركينا وأساسا متينا من أسس نهضة الأمم وازدهارها، بل تكون قد عرضت نفسها للحاجة والذل واستعطف القوى المتجبرة التي لا تعطي شيئا إلا وأخذت مقابله أشياء، أهمها الحرية واستقلال القرار.

ومما لا شك فيه أن أعداء المسلمين لا يريدون لأمة الإسلام أن تكون مستقلة في إنتاجها ولا حتى في استهلاكها، إنما يريدون لها أن تكون أمة متسولة على أعتاب الدول الأخرى تنتظر ما يلقي إليها من فتات موائدهم وبقايا ومخلفات صناعاتهم ومستهلكاتهم، يريدون للمسلم أن يكون قنأ مستخدما في إنتاج واستخراج المواد الخام التي يحتاجها المستعمر، يريدونه أن يبقى عبدا بسيطا يعمل عمل الآلة التي تستخدم دون وعي بما تنتج، أو تستخدم له، ويريدون أن يكونوا هم أصحاب القرار في الصناعة، والإنتاج، والزراعة، والمحاصيل. يريدون مسلما لا علاقة له بعالم الاقتصاد، كما عبر عن ذلك مالك بن نبي<sup>1</sup>، ولا ارتباط له بمنهج اقتصادي أصيل، ولا حظ له في ذلك إلا تقليد الأجنبي، والاعتماد على ما يقدمه له من نظم اقتصادية لا وعي له بها، فيكون مقلدا في كل شيء، ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ الْإِدْعَاءَ وَنِدَاءً﴾ [البقرة: 171].

ولعلم الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- ومعرفته بأهمية الاقتصاد في حياة الأمم، ودوره في نهضتها ورفيها، فقد ضمن تفسيره الكثير من الحديث عن هذه السنن الإلهية في الاقتصاد، وبين كيف أنه على قدر العناية باقتصاد الأمة وبالإصلاح المالي فيها جباية وتوزيعا، على قدر ما تزدهر الأمة وتحل فيها بركات الله من السماء والأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، إذ أن هذه الآية وأضرابها في القرآن الكريم، دليل على أن تقوى الله واتباع

<sup>1</sup> مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 7

سننه سبب في سعادة الدنيا قبل الآخرة، وقد قال الشيخ في تفسير هذه الآية: "هذه الآيات كلها حجج على أعداء الإسلام من المنتمين إليه، ومن غيرهم الزاعمين أنه -وكذا كل دين إلهي- سبب للضعف والفقر!"<sup>1</sup>.

وسوف أتحدث في المطالب الآتية من هذا المبحث كيف اعتنى الشيخ في تفسيره بهذه السنة الاقتصادية وأثرها في نهضة الأمم وازدهارها وكيف بينها أجمل بيان وذلك على النحو الآتي:

### المطلب الأول: العناية بالمال وتنميته وأثر ذلك في نهضة الأمم

المال هو عصب الحياة، وقد بين الشيخ كيف أمر الإسلام بالحفاظ عليه وتنميته وإنفاقه في مصالح الأمة ومنافعها، وأن توفير المال والاحتفاظ به من أجل إنفاقه في الدفاع عن الأمة وفي مواطن عزتها وكرامتها هو السبيل لحمايتها من الانهيار والتهلكة، وإن المال كما ذكر الشيخ هو القطب الذي تدور عليه جميع مصالح الأمم في هذا العصر<sup>2</sup> وقد عبّر الشيخ عن ذلك أحسن تعبير حين قال خلال تفسيره الآية ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195] "وإصلاح الأموال

واستثمارها في هذا الزمان هو أساس القوة، فقوى الدول على قدر ثروتها، فالأمة التي تقصر في توفير الثروة هي التي تلقي بأيديها إلى التهلكة، والتي تقصر في الإنفاق في سبيل الله للاستعداد لقتال من يعتدي عليها تكون أدنى إلى التهلكة"<sup>3</sup>. وإنما لنرى هذه الحقيقة اليوم على أرض الواقع، فإن التنافس الحاصل بين الدول الكبرى هو تنافس على السوق العالمية ومدى السيطرة عليها، وأي الدول أكثر إنتاجاً وتصديراً.

ولشدة عناية الإسلام بالاقتصاد والإصلاح المالي ظن بعض الاقتصاديين أن العداة الذي وجهه كبراء مكة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كان لهذا السبب، فقال الشيخ: "وزعم بعض علماء الاقتصاد أن الإصلاح المالي أعظم أسس الإسلام، ولأجله عادى كبراء قريش بعثة محمد -عليه الصلاة والسلام-"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 24/9

<sup>2</sup> تفسير المنار 67/3

<sup>3</sup> تفسير المنار 172/2

<sup>4</sup> تفسير المنار 200/12

ولقد أبان الشيخ أجمل بيان أهمية المال وكيف كانت هداية القرآن في الأموال، كما عبر عن ذلك الدكتور فضل حسن عباس<sup>1</sup>، وذلك عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 5] فقد نقل عن الإمام أن الله بعد أن أمرنا بإيتاء الأيتام والنساء أموالهم وضع لنا شرطاً أن لا يكون منهم سفهاء فحينئذ يُمنع إعطاؤهم المال، ثم توقف عند كلمة (أموالكم) مع أن المخاطبين هم الأولياء والمال مال السفهاء الذين تحت ولايتهم، وبين أن ذلك فيه تنبيه إلى عدة أمور، أحدها أن مال السفهية إذا ضاع فيجب على وليه أن ينفق من ماله عليه، وهكذا يكون التفريط بمال السفهية وإضاعته مفض إلى التفريط بمال الولي وإضاعته، وثانيها: أن السفهية إذا رشد وتصرف بماله المحفوظ على الوجه الصحيح يصيب الأولياء نصيب منها، وثالثها: تنبيه إلى وجوب أن يتكافل أبناء المجتمع المسلم واعتبار مصلحة الفرد فيه مصلحة عامة للجميع<sup>2</sup>.

ثم استطرد الشيخ محد رشيد وأفاض في بيان معنى قوله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ فبين أن جعل المال للناس قياماً أي تقوم به منافعهم وتثبت به مراقبهم، ومهما حاول أهل الفصاحة والبلاغة أن يجدوا كلمة تحل كلمة (قياماً) فلن يستطيعوا ذلك، فيرشدنا الله تعالى من خلال هذه الكلمة إلى أن منافعنا ومصالحنا الخاصة والعامة تبقى قائمة محفوظة ما بقيت أموالنا في أيدي الصالحين الراشدين أهل الاقتصاد الذين يحسنون تنميتها واستثمارها والحفاظ عليها، ولا يتعدون الحدود في إنفاقها، إلى أن قال: "فإذا وقعت في أيدي السفهاء المسرفين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة، والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع سالماً، ويسقط ما كان من تلك المصالح قائماً، فهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال في الأموال كالأمور كلها"<sup>3</sup>.

ثم أكمل مدلاً على ما سبق بآيات وأحاديث تبين الاعتدال في النفقة وحسن التدبير للمال فذكر قوله الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67] وأشار إلى قوله

<sup>1</sup> عباس، التفسير والمفسرون 38/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 311/4

<sup>3</sup> تفسير المنار 312/4

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ط وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: 27]، ثم ذكر من الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: "ما عال من اقتصد"<sup>1</sup> وقال عنه حديث حسن، وحديث "الاقتصاد نصف المعيشة، وحسن الخلق نصف الدين"<sup>2</sup> وذكر حديث "من اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله"<sup>3</sup> وقال عنه ضعيف.

ثم ذكر حديث سعد في فضل الغنى: "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس"<sup>4</sup> وهو حديث متفق عليه، وحديث "إن الله يحب العبد التقي الغني الحفي"<sup>5</sup>، وحديث حكيم بن حزام في الصحيحين "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى"<sup>6</sup> وحديث: "يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح"<sup>7</sup>.

بعد ان ذكر الشيخ هذه الآيات والأحاديث في الاقتصاد وفضل الغنى والمال الصالح، تساءل بألم عما أصاب المسلمين من ضعف وفقر وإضاعة للأموال رغم أن دينها يدعوها إلى العمل والكسب والغنى، في حين أن الأمم المتغلبة يدعو دينها إلى الزهد والرهبانية ويحارب الغنى والأغنياء، صارت أكثر الأمم غنى وبراعة في فنون الثروة والاقتصاد. فيقول: "فماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم، حتى صرنا أشد الأمم إسرافاً، وتبذيراً، وإضاعة للأموال، وجهلاً بطرق الاقتصاد فيها، وتثميرها، وإقامة مصالح الأمة بها" وراح يكمل عما أصاب المسلمين في زمانه المختلف عن الأزمنة السابقة من حيث أهمية المال ودوره في نهضة الأمم، إذ أن مرافق الأمم ومصالحها وعظمتها متوقفة على المال، فصارت الأمم التي لا تملك المال

<sup>1</sup> مسند الإمام أحمد بن حنبل 302/7، ح 4296، وقال المحققون عنه ضعيف

<sup>2</sup> الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ح 6371، 12/12، ورواه الطبراني عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم»، المعجم الأوسط ح 6744، ج 7 ص 25 قال الألباني عنه ضعيف، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، ح 2466، 286/5

<sup>3</sup> مسند البزار المنثور باسم البحر الزخار ح 946، 160/3، وقال الشيخ محمد رشيد سنده ضعيف، تفسير المنار 313/4

<sup>4</sup> صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي صلى الله عليه وسلم سعد ابن خولة، ح 1295، 81/2. صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ح 1628، 1250/3

<sup>5</sup> عند مسلم بلفظ الخفي بدل الحفي صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ح 2965، 2277/4، أما لفظ الحفي فموجود عند أبي نعيم. ينظر: الأصبهاني، حلية الأولياء، 368/1

<sup>6</sup> الحديث عند البخاري عن أبي هريرة "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وإبدأ بمن تعول" صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ح 1426 ج 2 ص 112 وعند مسلم "أفضل الصدقة أو خير الصدقة عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وإبدأ بمن تعول" صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الأخذة ح 1034، 717/2

<sup>7</sup> مسند احمد ح 17763، 299/29 قال المحققون وإسناده صحيح على شرط مسلم

الكثير ولا علم لها بالاقتصاد ذليلة ومستعبدة مستجدية لغيرها من الأمم الغنية الخبيرة بطرق الكسب المدبرة في الاقتصاد، وتساءل كيف أصبحت الأمم الغربية أغنى الأمم وأكثرها ثروة وتعاليمها الدينية تدعوها إلى الزهد والتقشف ونبذ الدنيا وزينتها، وذكر أمثلة على تلك التعاليم مما جاء في إنجيل متى مثل: "إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات" ومثل: "وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله"، وأيضا: "لا تقدرون أن تخدموا لله والمال"، وبعد أن ساق هذه الأمثلة تساءل مرة أخرى: "كيف جاز أن يسمى ما نحن عليه مدنية إسلامية مع مخالفتنا للقرآن في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية، كما خالفه جماهيرنا في أكثر ما أرشد إليه؟ وكيف جاز أن تسمى مدنيتهم مدنية مسيحية مع بناء تعاليم المسيح على المبالغة في الزهد وبغض المال، كما هو صريح في هذه الأناجيل التي بين أيدي القوم يدعون اتباعها، ويدعون إليها غيرهم، وهم لها مخالفون، وعنهما معرضون!!"<sup>1</sup>.

ثم أخذ الشيخ يبين الأسباب التي أوصلت الأمة إلى هذا الفقر والضعف الاقتصادي، وأهم ذلك مخالفة هداية القرآن وتقليد واتباع رؤوسا جهالا قد تزيوا بزبي الصالحين وبالغوا بتزهيد الناس، وحثهم على إنفاق ما في أيديهم، ويريدون من وراء ذلك أن تكون النفقات عليهم وهم لا يعملون ويزعمون أنهم مشغولون بحببة الله، وأنشد الشيخ قول الشاعر:

وَدَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرِضُّونَهَا أَفَأَبِيقُ حَتَّى مَا يَدْرُ لَهَا تُعْلُ<sup>2</sup>

ثم قال: "صار من المعروف المقرر عند جميع شعوب المسلمين إدرار المال والرزق على علماء الدين، وشيوخ الطريق "الصالحين"، فهم يأكلون مال الأمة بدينهم، ويرون أن لهم الفضل عليها بقبوله منها"<sup>3</sup>.

ونقل الشيخ كلاما عن أستاذه الإمام في هذا المعنى، حيث يحمل على دعاة الزهد والخطباء والوعاظ، فبعد أن ذكر كيف حث الإسلام على الغنى وحسن الاقتصاد وتثمين الأموال، يتساءل أين هذه التعاليم مما يتحدث

<sup>1</sup> تفسير المنار 313/4

<sup>2</sup> بيت الشعر لابن همام السلولي، ينظر ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب، الكنز اللغوي في اللسن العربي، ص82، جاء في معنى الثعل وشرح البيت: الثعل: خلف زائد يكون على الضرع، أفابيق: شربة بعد شربة، يقال: تفوقت الماء، إذا شربته قليلا قليلا. وقالوا: لنيم راضع، وكان هذا الحديث في العمالة وكثر حتى صار كل لنيم راضعا فعل ذلك أو لم يفعله. وأصل الحديث أن رجلا من العماليق طرقه ضيف ليلا فمص ضرع شاته لئلا يسمع الضيف صوت الشخب، ينظر جمهرة اللغة، 746/2.

<sup>3</sup> تفسير المنار 314/4

به الخطباء على المنابر من دعوة إلى الزهد في الدنيا وغل أيدي الناس عن السعي في الكسب وإغرائهم بالقعود والخمول، فصار المسلمون يعدلون عن الكسب النظيف الشريف إلى ما هو مرذول من الخديعة والاحتيال والغش فإن ابن آدم بطبعه يميل إلى الدعة والراحة، فإذا سمع من خطباء المنابر وعلماء المسلمين ومن عرفوا عنده بالصالح مواظب الزهد، وكلاما في ترك الدنيا اتخذ ذلك حجة له في الراحة وترك العمل، ولما كان محتاجا إلى المال فيختار في تحصيله الطريقة الأقل سعيا والأخف مؤونة وإن كان فيها الخسة والبعد عن الشرف، ولم يأت ترهيد الخطباء والوعاظ في سياق الترغيب بالحياة الأخروية، ولكنهم زهدوا الناس في الدنيا وقطعواهم عن الآخرة فخرسوهما معا، إلى أن قال: "وما ذلك إلا لجهلهم وعدم عملهم بما يعظون به غيرهم، والواجب على المسلم العارف بالإسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة"<sup>1</sup>.

ثم إن الشيخ قد بين كيف أرشد الإسلام إلى الإصلاح المالي، ووضع في ذلك سبع نقاط، فتحدث في النقطة الرابعة كيف مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح، وفي النقطة الخامسة بين ما أوجبه الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه<sup>2</sup>. وتحدث عن حكمة الله تعالى وسننه في خلق البشر فأودع في غرائزهم ميلا إلى العلم والبحث وكشف المجهولات، فتحدث عن غريزة حب الزينة وكيف كانت سببا لتوسع الرزق وانطلاق البشر في أعمال الفلاحة والزراعة ثم الارتقاء إلى الصناعة وفنونها وسائر وسائل العمران، فيقول عن غريزة حب الزينة على سبيل المثال: "فحب الزينة أعظم أسباب العمران، وإظهار استعداد الإنسان لمعرفة سنن الله وآياته في الأكوان، فهي غير مذمومة في نفسها، إنما يذم الإسراف فيها والغفلة عن شكر المنعم بها"<sup>3</sup>.

ولقد تحدث الشيخ عن أهمية المشي في الأرض والسعي والعمل والإنتاج، وحذر من الكسل والخمول بحجة التوكل وانتظار ما قدره الله في قضائه من رزق لكل مخلوق، فتحدث عن معنى التوكل الصحيح وفرّق بينه وبين التواكل، ولقد أفاض بكلام جميل وأمثلة متعددة في دحض كلام المتواككين من الزهاد والعباد الذين

<sup>1</sup> تفسير المنار 314/4

<sup>2</sup> ينظر تفسير المنار 225/11

<sup>3</sup> تفسير المنار 346/8

أهملوا العمل وقعدوا منتظرين أقدارهم من أرزاقهم بغير سعي، وقد اعترض على ما أورده أبو حامد الغزالي<sup>1</sup> واستدل به في هذا الباب من أبيات الشعر:

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ      فِسْيَانِ التَّحَرُّكِ وَالسُّكُونِ  
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقِ      وَيُرْزَقُ فِي غَشَاوَتِهِ الْجَنِينِ<sup>2</sup>

فبين الشيخ كيف أن ميل أبي حامد للتصوف ورغبته فيه تغلب على فقهه وعلمه حتى استحسنت كلام هذا الشاعر الذي لا يخفى على أبي حامد جهله بل لا يخفى على من هو أقل من أبي حامد فقها وعلماء، فقضاء الله يقع وفق سننه، وسنن الله في حركة الإنسان ليست كسننه في سكونه، والسنة الإلهية لا نقض لها ولا تبديل، ثم أورد قول الله: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَازِلِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15]، وقوله: ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10] ومشي الإنسان في الأرض وانتشاره فيها في نوع من الحركة التي لا تستوي مع السكون، إلى أن قال: "وما جاء به من الجهل في البيت الثاني أبعد عن الصواب مما في البيت الأول، فإنه قاس حياة الرجل العاقل القادر على حياة الجنين، وسنة الله فيهما مختلفة كما هو معلوم بالضرورة، ولو صح هذا القياس لصح أيضا قياس الإنسان على النبات من نجم وشجر، فإن غذاء الجنين أشبه بغذاء النبات منه بغذاء الحيوان، فأى الفريقين أحق باسم الجنون؟"<sup>3</sup>.

ثم أكمل الشيخ في إيراد الآيات والأحاديث التي تحت على السعي والكسب وطلب الرزق ولا تنافي التوكل، فذكر قوله عز وجل: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْكِبْرِيَاءَ فِيهَا مَعَيْشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقِينَ﴾ [الحجر: 20] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: 11]، ثم ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ"<sup>4</sup> وقوله: "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ،

<sup>1</sup> إحياء علوم الدين 273/4

<sup>2</sup> الأبيات لأبي الفرج علي بن الحسين بن هندو، ينظر، الثعالبي، بتيمة الدهر، 5/163

<sup>3</sup> تفسير المنار 4/173

<sup>4</sup> مسند الامام أحمد ج14 ص136 ح8412 قال المحققون إنساده حسن

وَالصَّادِقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ"<sup>1</sup>، ثم ذكر ما قاله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه- "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"<sup>2</sup> وقوله: "ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري"<sup>3</sup> ثم ختم ببيان ما كان عليه خيرة الصحابة -رضي الله عنهم- من سعي وعمل فمن الذين عملوا في التجارة أبو بكر وعثمان وكذلك عبد الرحمن بن عوف وطلحة، وساق قصة أبي بكر عندما تولى الخلافة وفي اليوم التالي غدا إلى السوق ليتجر فاعترضه عمر وأبو عبيدة، لأنه يجب أن يتفرغ لولاية المسلمين، وهو يريد إطعام أهله من تجارته ، ثم فرض له الصحابة من بيت مال المسلمين<sup>4</sup>، ولم يقولوا له: توكل على الله وهو يرزقك بغير عمل<sup>5</sup>.

### المطلب الثاني: أثر الزكاة في الإصلاح المالي ونهضة الأمم

وضع الشيخ فصلاً كاملاً تحت عنوان (فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر) وذلك عند حديثه عن فرضية الزكاة في سورة التوبة، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: 103] بدأ بالحديث عن الآثار النفسية والتربوية للزكاة على المجتمع وأعضائه، وكيف تصنع منهم مجتمعاً متكافلاً متعاوناً بعيداً عن البخل والأثرة والحسد والطمع، فيقول: "ما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتزكيتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهي تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك، فإن الذي يتربى بالإيمان على بذل بعض ما في يده أو

<sup>1</sup> الترمذي، سنن الترمذي، ح 1209، 507/3، وقال الترمذي حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه

<sup>2</sup> ورد هذا القول عن عمر في العقد الفريد، 342/2

<sup>3</sup> ينظر هذا النص عند أبي طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، 431/2، والنص عند ابن أبي الدنيا: "ما خلق الله عزَّ وجلَّ ميتةً أموتها بعد القتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ أحبَّ إليَّ من أن أموت بين شغبتَي رجلي، أضرب في الأرض، أتبعني من فضل الله عزَّ وجلَّ" ينظر ابن أبي الدنيا، إصلاح المال، باب الاحتراف، ح 207 ص 72.

<sup>4</sup> ينظر الرواية عند ابن سعد محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، (230هـ) الطبقات الكبرى، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1410هـ- 1990م، 137/3.

<sup>5</sup> تفسير المنار 174/4

ما أودعه في خزانته وصندوقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ورفع درجاته جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق"<sup>1</sup>.

ثم بين أن تطهير الأفراد وتزكيتهم يستلزم تطهير الجماعة من كل ما يؤدي إلى الحسد والبغضاء والعداوة والبغي والحروب والفتن من رذائل ومثالب اجتماعية، ثم بين أهمية المال في حياة الناس، وتفاوتهم في القدرة على تحصيله، وحاجة بعضهم لبعض في ذلك فقال: "ذلك بأن الأموال قوام حياة الناس وقطب الرchy لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتمثير، والإسراف والتقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض في كسب الرزق"<sup>2</sup>.

وبين الشيخ أن من حكمة التشريعات التعبدية المالية في الإسلام تقويم الأخلاق وإصلاح الفطرة واثقاء فتنة المال، فنأخذ من الثروة حسناتها ونجتنب سيئاتها، فيقول: "ولما كان الدين مرشدا للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصلح به فطرتهم، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم - شرع الله فيه من الأحكام التعبدية والعملية ما يقيهم شر هذه الفتنة وينقذهم مما يترتب على إهمالها من المحنة فأوجب على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ما يبذل سيئات الثروة في الإسلام حسنات"<sup>3</sup>.

ثم تحدث الشيخ عن فتنة المال، والحروب الاقتصادية، وتنازع الأمم والشعوب في ذلك، حتى زعم بعض المؤرخين والاجتماعيين أن الثورات والحروب السياسية والدينية ذات الشأن في التاريخ يرجع سببها في الأصل إلى المال، وبين كيف أن الإسلام فيه الحلول لكل هذه النزعات، فهو الدين الوسط الذي يجمع بين الروح والجسد، ليس فيه جشع اليهودية ولا زهد النصارى، ولا طمع الرأسمالية ولا مشاعية الشيوعية، فقد هدى الناس إلى الفضل والعدل في أمر المال ليحميهم من طغيان الأغنياء وذلة الفقراء، ثم بين أن دين الإسلام هو المنقذ للأمة ولعامة الأمم من فتنة المال وعواقبها، وإن العمل بما فيه من أحكام مالية وغيرها يكون بالخضوع

<sup>1</sup> تفسير المنار 22/11

<sup>2</sup> تفسير المنار، 22/11

<sup>3</sup> تفسير المنار، 23/11

للدين والتزام ما أمر به، وإن عقلاء الغرب يشعرون بحاجتهم إلى دين صحيح يصلح ما أفسدته مدنيتهم المادية، ولن يجدوا ضالتهم إلا في القرآن، وسنة الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى أن قال: "وأخشى ألا يهتدوا إليه إلا بعد البطشة الكبرى والطامة العظمى، وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية"<sup>1</sup>.

ثم ذكر الشيخ في معرض حديثه عن الزكاة والأحكام المالية التعبدية أهم أصول الإصلاح الإسلامي في المسألة المالية، وإني أذكرها هنا باختصار على النحو الآتي:<sup>2</sup>

1. إقرار واحترام الملكية الخاصة، وتحريم ومنع أكل أموال الناس بالباطل.
2. تحريم الربا والقمار.
3. منع أن يكون متداولاً بين الأغنياء، يتداولونه ويمنع منه الفقراء.
4. الحَجْر على السفهاء في أموالهم.
5. إذا حُصر المسلمون بأرض وكانت الزكاة المعيّنة لا تكفي الفقراء وجب على الأغنياء أن ينفقوا عليهم كفايتهم، قياساً على الزكاة المطلقة التي فرضت في مكة.
6. تحديد الزكاة في النقدين بربع العشر وكذلك في التجارة، وفي الناتج الزراعي الذي عليه مدار الأقوات العشر أو نصف العشر، وفي الثروة الحيوانية ما بينته كتب الفقه والحديث.
7. فرض نفقة الزوجية والقرابة.
8. وجوب كفاية المضطرين من كل جنسية وديانة، وضيافة من لا مأوى له، باستثناء مهذوري الدم والمحاربين.
9. جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب.
10. استحباب الصدقات التطوعية والترغيب فيها.

<sup>1</sup> تفسير المنار، 24/11

<sup>2</sup> تفسير المنار، 26/11

11. ذم التبذير والإسراف، والتقتير والشح والبخل.

12. إباحة الزينة والطيبات من الرزق مع منع الخيلاء والإسراف.

13. مدح الاعتدال والقصد في النفقة على النفس والعيال.

14. تفضيل الغنى مع الشكر على الفقر مع الصبر واليد العليا خير من اليد السفلى.

ثم قال لتأكيد أثر هذه الأصول وبيان دورها في إخراج الأمة من أزمتها، وإصلاحها، ونهضتها: "أرأيت أمة من الأمم تقيم هذه الأركان ويوجد فيها فقر مدقع، أو غرم موجع، أو شقاء مفضع؟"<sup>1</sup>.

ثم ختم الشيخ حديثه عن الزكاة ودورها في نهضة الأمة وإصلاح شأنها وزوال بؤس الفقراء واستبداله بعيش السعداء، وضرب مثالا من بلاد مصر التي يعيش فيها، فبين أن ما في مصر من ثروة ونقد وتجارة لو قُدرت وأُخرج ربع عشرها للفقراء وفي مصالح مصر، ولو فُعل ذلك مع بقية أنواع الثروة التجارية والحيوانية وأُخرجت زكاتها كما يجب، لكان ذلك كفيلا بأن تعم السعادة وأن يعود مجد الإسلام الذي ضيَّعه المسلمون<sup>2</sup>.

أما إنفاق المال وسخاء النفوس وعطاء الأغنياء في وجوه الخير ومصالح الأمة والمنافع العامة ودفع الفقر فقد ربط الشيخ بينه وبين نهضة الأمة ورفعها فقال: "مشاهد لأرباب البصائر الباحثين في شئون الأمم، إذ لا يبحثون في حال أمة عزيزة إلا ويرون بذل أغنيائها المال لنشر العلوم وإتقان الأعمال، وتعاون أفرادها على مصلحتها هي أسباب عزتها ورفعتها، ولا يبحثون في حال أمة ذليلة مقهورة إلا ويرون أغنياءها ممسكين وأفرادها غير متعاونين"<sup>3</sup>، فشتان بين أمة جعلت المال في يد أختارها، وأغنيائها سمحاؤها، وبين أمة جعلت المال في يد أشرارها، وأغنيائها بخلاؤها.

وفي موضع آخر ذكر الشيخ في مقدمة أسباب ضعف الأمة وتأخرها شح النفوس وبخل الأغنياء فقال: "وإن أكبر أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وتمكين أعدائهم من سلب ملكهم، ومحاولة تحويلهم عن

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 11 ص 26

<sup>2</sup> تفسير المنار ج 11 ص 26

<sup>3</sup> تفسير المنار ج 2 ص 371

دينهم، هو بخل أغنيائهم<sup>1</sup> وقد صدق الله حين ربط بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال، وجعل الجهاد بالمال مقدمة للجهاد بالنفس<sup>2</sup> فكيف يجاهد بنفسه من لم يقو على الجهاد بماله في سبيل الله؟

وأقول: لا شك أن المال هو عصب الحياة، بل إن معظم الصراعات والنزاعات بين الأمم سببها السلطة والثروة، وإذا كان الشيخ قد أبدى فهما واسعا وعميقا لسنن السلطة (السنن السياسية) في المبحث السابق، فقد أبدى في هذا المبحث فهما وعمقا مماثلا لسنن الثروة (السنن الاقتصادية)، وقد بين أن للإسلام منهجه الاقتصادي المستقل في ازدهار الأمة ورخائها الاقتصادي، بعيدا عن جشع الرأسمالية، وظلم وكوابح الاشتراكية الشيوعية، فقد دعا الإسلام إلى حسن إدارة المال والثروة، وإلى تنمية الاقتصاد، وإلى رعاية حق الفقير والمحتاج من خلال نظام الزكاة، وحذر من الربا الذي هو مخرب البيوت ومزيل الرحمة من القلوب، ولا شك أن مراعاة هذه الأمور يسهم بشكل واضح في نهضة الأمة ورقيتها واستقلالها عن التبعية للأمم الأخرى.

---

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 10 ص 356

<sup>2</sup> ينظر: التوبة: 41

## المبحث الخامس: السنن العسكرية في نهضة الأمم في تفسير المنار

إنما شرعت الحرب وامر الله بالإعداد العسكري من أجل دفع الظلم والفساد في الأرض فقال الله عز وجل:

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:

251] وقد جاءت هذه الآية مباشرة بعد الحديث عن المعركة التي كانت بين جالوت وجنوده وطالوت وجنوده، وقتل فيها داود جالوت. وفي ذلك بيان أن الدفع يكون بقوة عسكرية حربية تقوم على الإعداد والإمداد والتخطيط والتنظيم، والكثير من العوامل المادية والمعنوية.

إن سنة التدافع بين الناس قد وردت في القرآن الكريم في موضعين، ذكرنا الأول آنفاً، أما الثاني فقد جاء في سورة الحج خلال الحديث عن الظلم الذي أصاب المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وأنه لا بد لهم من قوة تدافع عنهم وتدفع عنهم الظلم والظالمين<sup>1</sup>، وبذلك نفهم أن سنة التدافع لا تتحقق بغير قوة تحمي الحق وأهله وتردّ الظلم وأهله.

وهذه حقيقة أقرها الحكماء، وتحدث بها العقلاء، وبالغ في نظمها الشعراء، حتى قال زهير:

وَمَنْ لَا يَدُدُّ عَن حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمُ، وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ<sup>2</sup>

فكان مصيباً في الشطر الأول من البيت، ولكنه زاغ عن الصواب في الشطر الثاني.

وإن هذه القوة التي تدافع عن الحق وتحميه لا بد لها من أسس تقوم عليها وقواعد تستند إليها، قد وردت

الإشارة إليها في العديد من الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:

60]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَّانِفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71]، وقوله:

<sup>1</sup> الحج: 40

<sup>2</sup> هو الشاعر العربي زهير بن أبي سلمى صاحب المعلقة الشهيرة ومطلعها: أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانه الدراج فالمتلم. ينظر الأنباري شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص 233

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:

45]، ومن هذه الآيات وغيرها استخرج الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار العديد من السنن الإلهية في المجال العسكري والتي بمراعاتها يتحقق النصر والظفر.

فأما جيش التزم هذه السنن العسكرية وأيما قائد عمل بها وحققتها كان إلى النصر أقرب وبتحقيق الظفر أجدر، وإنني في هذا المبحث سأقوم ببيان هذه السنن العسكرية التي تحدث عنها الشيخ في تفسيره، وسأعمل على توضيحها في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: التأكيد على ضرورة فهم السنن الإلهية لتحقيق النصر

بين الشيخ أنه لا يتحقق النصر بمجرد الأدعية والأذكار، فلقد علمنا القرآن أنه لا بد من الأخذ بالأسباب، وأنه لا بد من التزام القواعد والأسس الحربية التي يقوم عليها النصر، فيقف الشيخ عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ

لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ [آل عمران: 128]، ويعقب على سبب

نزول الآية بعد أن ذكر أنها نزلت في دعاء النبي -عليه الصلاة والسلام- يوم أحد على المشركين بعد أن أصابه ما أصابه<sup>1</sup>، فقال: "لو لم يكن لما جرى في غزوة أحد حكمة إلا نزول هذه الآية لكفى، فكيف وقد جمع إليها ما سيأتي من الحكم الدينية والاجتماعية والحربية؟!"<sup>2</sup>، ثم يبين كيف ظن المسلمون أنه بعد انتصارهم في بدر وبعد أن أكثر النبي -صلى الله عليه وسلم- دعاء الله والتضرع إليه أن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وبركة وجوده بينهم والعناية الخاصة بهم لكونهم مسلمين تكفيهم في تحقيق النصر،

<sup>1</sup> عن ابن عمر، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم، يقول في صلاة الفجر ورفع رأسه من الركوع قال: «اللهم ربنا، ولك الحمد في الأخيرة»، ثم قال: «اللهم العن فلانا وفلاننا»، فأُنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ح7346، 106/9، وعن أنس: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسלט الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله" صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، ح 1791، 1417/3

<sup>2</sup> تفسير المنار 97/4

وذلك حتى لو لم يلتزموا السنن الإلهية في الاجتماع البشري، والأسباب الظاهرة والنظام العسكري، فكان عاقبة هذا الظن أنهم تراجعوا عن الأخذ في الأسباب في معركة أحد فانتصر عليهم عدوهم وأصيب الحبيب المصطفى بنفسه، وكانت هذه مناسبة لتنبية المسلمين إلى حقيقة لا مفر منها وهي بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لا يملك من أمر الناس شيء ولا من أمر هذا الكون، وإنما هو رسول يعلم الناس ما علمه الله وقدوة حسنة لهم ، أما الأمر فكله لله يدبره بمقتضى سننه<sup>1</sup>.

فهذا البيان الإلهي الذي جاء مقرونا بواقعة أحد الشهيرة لا مجال معها لتأويله أو تخصيصه أو تقييده، ثم حمل الشيخ على الذين تقاعسوا عن العمل بالسنن الإلهية، وفزعوا إلى قبور الأولياء يستغيثون بهم ويستصرونهم، وأعطى أمثلة لهذا الواقع التعيس، وبين أنه لا حظ من الإسلام لمن يتعلقون بأهل القبور ويعتقدون أن أمر العباد وتدبير الكون بأيديهم، أو يتعلقون بالأحياء الملقبين بالشيخ والأولياء فيزعمون أنهم يُعززون وينصرون ويذلون ويخذلون، وأن بيدهم السعادة والشقاء والإماتة والإحياء والغنى والفقر والمرض والشفاء ويتصرفون في هذا الكون كما يريدون وأن المسلمين الذين طلبوا النصر بقراءة أحاديث البخاري واستغاثوا بالأولياء وفعلوا ذلك في كثير من البلاد مدعين أن تلك الانحرافات الشركية هي مما شرع لهم في الدعاء لم يكونوا على شيء من هدى هذا الدين إلى أن قال: "لم يروا أن سلفهم كانوا ينصرون أيام لم يكونوا دائما يقولون: اللهم نكس أعلامهم، اللهم زلزل أقدامهم، اللهم يتم أطفالهم، اللهم اجعلهم غنيمة للمسلمين.. فالعمل العمل، الاستعداد الاستعداد، الأهبة الأهبة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] ... هذا هدى الإسلام وقد تمثل لهم صدقه في النبي وصاحبي المؤمنين"<sup>2</sup>.

وبين الشيخ أن التقوى ليست مجرد صلاة ودعاء، وأن نصر المؤمنين ومعية الله مع المتقين، تكون بتحقيق الإيمان الصحيح، والعمل بالتقوى في اجتناب ما يؤدي إلى الفشل والهزيمة من أسباب، والحذر من التقصير في الأخذ بأسباب النصر والغلبة والسنن التي وضعها الله للناس، فعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

<sup>1</sup> تفسير المنار 98/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 99/4

الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلَظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ [التوبة: 123] عرّف الشيخ المتقين بأنهم "الذين يتقونه في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب، من التقصير في أسباب النصر والغلب التي بينها في كتابه، والتي تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب"<sup>1</sup>.

وفي موضع آخر تحدث الشيخ عن ضرورة العمل بالسنن الإلهية من أجل تحقيق النصر وعدم الاتكال على التوسل بالأنبياء وقبور الصالحين، فعند حديثه عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ حَلِيفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَاءِ اتِّكُمِ﴾ [الأنعام: 165] بين الهداية الاجتماعية للآية، فالله تعالى يختبر الناس فيما أعطاهم ويكون الجزاء وفق العمل، وسعادة الناس أفرادا وأسرا وأمما، وشقاوتهم في الدنيا والآخرة، تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم، وفق ما مضت به سنن الله في نظام الأسباب والمسببات، ثم بين أن هذه الآيات تقرر عقيدة التوحيد، وتهدم الشرك، واعتماد الناس على ما اتخذوه من الوسطاء بينهم وبين الله، فترى هؤلاء المشركين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون أشقى الناس وأبعدهم عن نيل مآربهم، في حين ترى أعداءهم وخصومهم دائما ظافرين لكونهم قد أخذوا بالسنن والأسباب، فربما ترى قوماً يدعون الإيمان بالله ورسله كلهم أو بعضهم، يعتمدون في قضاء حاجتهم من شفاء مرض وسعة رزق ونصر على عدو وغير ذلك، على التوسل ببعض الأنبياء والصالحين وذبح النذور لهم ودعائهم والطواف بقبورهم والتمسح بها، وتجد آخرين ليس لهم مثل اعتقادهم وعملهم هذا وهم أحسن منهم صحة، وأوسع رزقا وأعز ملكا، وإذا قاتلوهم ينتصرون عليهم ويسودونهم، ثم بين السبب في ذلك فقال: "وسبب ذلك أنهم يعرفون سنن الله في الأسباب والمسببات، وأن الرغائب إنما تتال بالأعمال مع مراعاة تلك السنن، سواء كانوا يعلمون مع ذلك أن الله تعالى

<sup>1</sup> تفسير المنار 11/ 66

رب الخلق هو الخالق والواضع لنظام خلقه بتلك السنن، وأنه لا تبديل لسننه، كما أنه لا تبديل لخلقه أم لم يكونوا يعلمون ذلك<sup>1</sup>.

وقد بين الله تعالى أن الأمة لا تتحقق سعادتها بغير الجهاد والنفير في سبيل الله، فالخير كل الخير فيما تكرهون من الجهاد والنفير في سبيل الله، فقال: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: 41] قال الشيخ محمد رشيد في تفسير الآية: "ذلكم خير لكم أي ذلكم الذي أمرتم به من النفير والجهاد الذي هو أبعد مرامي الأمم حفظ حقيقتها، وعلو كلمتها، وتقرير سياستها -خير لكم في دنياكم وآخرتكم... أما الدنيا فلا حياة للأمم فيها، ولا عز ولا سيادة إلا بالقوة الحربية، والقعود عن القتال عند الحاجة إليه يغري الأعداء بالقاعدين العاجزين، وحب الراحة يجلب التعب، وأما الآخرة فلا سعادة فيها إلا لمن ينصر الحق"<sup>2</sup>.

### المطلب الثاني: القوى المعنوية في السنن العسكرية

عندما يُقدم أي جيش على معركة ما لا بد أن يكون مجهزا معنويا ونفسيا قبل أن يكون مجهزا ماديا وعدديا، فالسلاح والعتاد عندما يمتلكه صاحب العزم والشجاعة والثبات، يكون أكثر فتكا وأشد تأثيرا منه في يد الجبان والمتردد الرعديد، وقد أصبح قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249] من الآيات التي تجري مجرى الأمثال السائرة، وكانت غزوة بدر أكبر مثال على ذلك. وقد تحدث خبراء الحروب والقادة العسكريون عن دور المعنويات في نتائج المعركة، ودور الإرادة والطاقة الإيجابية في تحقيق النصر، ووضعت في ذلك الكتب والمصنفات ومنها كتاب (الذكاء والقيم

<sup>1</sup> تفسير المنار 221/8

<sup>2</sup> تفسير المنار 399/10

المعنوية في الحرب) للجنرال جان بيرييه، وقد نقل فيه قول المارشال دوساكس: "القلب الإنساني هو نقطة انطلاق كل شيء في الحرب"<sup>1</sup>.

وخير دليل على أهمية القوى المعنوية في الحرب، قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَاامِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلًا وَأَرْبَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: 43]، ودون الدخول في حقيقة الرؤيا التي رآها الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان رآهم قليلي العدد أو قليلي البأس والقوة، فإن المهم هو العبرة والمعنى من هذه الرؤيا، وهو أن الله بعث في قلب الرسول القوة والعزيمة على القتال، وارتفعت المعنويات بهذه الرؤيا في نفوس المؤمنين، فجزأتهم وحفزتهم على القتال مطمئنين بلا عجز أو تردد أو خوف. فقال الشيخ محمد رشيد: "فالظاهر أنهم أولوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلا، وأن كيدهم يكون ضعيفا، فتجرؤوا وقويت قلوبهم ولكن الله سلم، أي سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الكلمة وعواقب ذلك، إنه عليم بذات الصدور أي: عليم بما في القلوب التي في الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به فتتكلم عن الإقدام على القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث فيها طمأنينة الشجاعة، والصبر فيحملها على الإقدام"<sup>2</sup>.

وأورد الشيخ محمد رشيد في تفسيره العديد من هذه الأسس المعنوية وسوف أبين ذلك على النحو الآتي:

أولا: أهمية الإرادة والعزيمة في الحرب

عند اتخاذ القرار في المعركة لا يجوز للقائد أن يتردد بعد أن يتخذ القرار، قالت العرب قديما:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة      فإن فساد الرأي أن تترددا  
ولا تمهل الأعداء يوما بغدوة      وبادرهم إن يملكوا مثلها غدا<sup>3</sup>

<sup>1</sup> دان بيرييه، الذكاء والقيم المعنوية في الحرب، ص 117

<sup>2</sup> تفسير المنار 18/10

<sup>3</sup> ذكر هذه الأبيات صاحب زهر الآداب على لسان أبي جعفر المنصور وقصتها: أن المنصور لما عزم على الفتك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى، فكتب إليه: إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبير ... فإن فساد الرأي أن تتعخلا فأجابه المنصور:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا  
ولا تمهل الأعداء يوما بغدوة ... وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا  
الأنصاري، زهر الآداب وثمر الألباب، 257/1

فعند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159] بين الشيخ وضوح الآية

في أنه يجب إنفاذ ما عزم عليه القائد بعد أن استكمل شروط العزيمة اللازمة، وأكد الشيخ على أهمية الأمور المتعلقة بالحرب والسياسة وإدارة البلاد، وإن التراجع عن إمضاء العزيمة ونقضها نابع عن خلل في النفس واضطراب في الأخلاق، مما يؤدي إلى نزع الثقة ممن اعتاد على ذلك، خصوصاً إذا صدر ذلك عن رأس الدولة أو قائد الجند، إذ أن ظهور ذلك منهم يؤدي على نزع الثقة من الجيش والسلطة الحاكمة، وبخاصة إذا حصل نقض العزيمة بعد الشروع في العمل. وبناء على ما سبق بين الشيخ أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يلتفت إلى تراجع الصحابة الذين أشاروا عليه بالقتال خارج المدينة عن رأيهم خوفاً من يكون في ذلك إكراه لرسول على رأي لم يرغب به، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أعد عدته ولبس لأمته، وبذلك تعلم المسلمون درساً هاماً وهو أن الشورى لها وقتها والعمل له وقته فلا يصح للقائد أن يعود إلى الشورى بعد أن مضى وقتها وبدأ وقت العمل والتنفيذ، وإن أخطأ أهل الشورى الرأي، كما حصل مع صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم علل الشيخ ذلك فقال: "ويمكن إرجاع ذلك إلى قاعدة ارتكاب أخف الضررين، وأي ضرر أشد من فسخ العزيمة وما فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة"<sup>1</sup>.

ثم أعطى الشيخ مثالا من أهل السياسة والحرب في العصر الحديث، وكيف يجرون هذه القاعدة بغير تردد، فذكر أن الأستاذ الإمام لما كان بلندن، تحدث معه بعض وزراء الإنجليز في حال السودان ومصر، وسأله أحد قادتهم عن رأيه في الحملة التي قاموا بها على السودان بقيادة هكس باشا<sup>2</sup> في مواجهة المهدي بعد أن ظهر هناك، وبعد مراجعة بينهما بين الإمام للزعيم الإنجليزي أن حملتهم سيقتضى عليها وتقشله، وفعلا وقع ذلك ووصلت الأخبار إلى الإمام بعد عودته إلى بيروت بمقتل قائد الحملة وتكحيل السودانين بجيشه، فبعث بكتابه إلى ذلك الزعيم يذكره فيه بصدق رأيه، فجاء الرد من ذلك الوزير: "قد علمنا أن ما قلته لنا معقول وجيه، ولكن السياسة متى قررت شيئاً وشرعت فيه وجب إمضاؤه وامتنع نقضه والرجوع عنه وإن كان خطأ"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 169/4

<sup>2</sup> قائد إنجليزي أرسلته الحكومة البريطانية بعشرة آلاف جندي لمحاربة المهدي في السودان سنة 1883م، فهزم هزيمة نكراء وأبيدت قواته على يدي المهدي وقواته، ينظر ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، 629/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 169/4

ثانيا: أهمية الصبر والثبات عند اللقاء

نقل الشيخ عن أستاذه الإمام أن الصبر والثبات من سنن الله تعالى في النصر، ولا بد لمن يريد النصر والظفر أن يسير على هذه السنن التي أمر الله تعالى بها، فعند قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153] قال: "وقال الأستاذ الإمام: إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سببا للظفر، لأنه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته"<sup>1</sup>.

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177] بين أن البأس هو اشتداد الحرب وأن هذه الحالة وإن كان فيها التعرض للمهالك وخوض الشدائد ومطمان الموت يطالب فيها المؤمن بالصبر ما لا يطالب في غيرها، ذلك أن النصر مقرون بالصبر، وبالنصر والظفر يحفظ الحق الذي يناضل ويقاوم من أجله المجاهد في سبيل الله، ولأجل ذلك أمر الله المجاهدين بالصبر حين البأس، إلى أن قال: "وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وعبر عنه في بعضها بالكفر<sup>2</sup>، فلا غرو أن يجعل الصبر في حين البأس أصلا من أصول البر، وقد كان المسلمون بإرشاد هذه النصوص أعظم أمة حربية في العالم، فما زال استبداد الحكام يفسد من بأسهم، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يقل من غربهم، حتى سبقتهم الأمم كلها في ميادين الكفاح"<sup>3</sup>.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200] في آخر آل عمران نقل الشيخ عن الإمام قوله: "أي اصبروا على ما

<sup>1</sup> تفسير المنار 30/2

<sup>2</sup> أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ح2766 ج4 ص10

<sup>3</sup> تفسير المنار 98/2

يلحقكم من الأذى، وصابروا الأعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم، ويخذلون الحق الذي في أيديكم، واربطوا الخيل كما يربطونها استعداداً للجهاد"<sup>1</sup>، ثم بين الشيخ أن المصابرة والمرابطة هي الرباط بمعنى مباراة الأعداء ومغالبتهم في الصبر، وأنه لا بد ان نباري الأعداء في فنون القتال وأدواته، وكل ما يلزم ذلك من علوم رياضية وهندسية وطبيعية وغيرها.

وعندما ذكر الشيخ القواعد الحربية العسكرية والسياسية المستفادة من سورة الأنفال، ذكر في القاعدة الرابعة عشر أهمية الصبر وضرورته لتحقيق النصر، وبين أن الصبر أعظم قواعد النصر، وقد عظمه الله تعالى وأوجبه على المؤمنين، بعد أن أمر بطاعته وطاعة نبيه وبذكره حيث قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتزَعَّزُوا فَنفَشُوا وَتَذْهَبَ رِجُوكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46] ثم قال: "وأي بيان لفائدة الصبر أبلغ من إثبات معية الله تعالى لأهله؟!"<sup>2</sup> وكان الشيخ قد تحدث عن هذه الآية وذكر أهمية الصبر في تحقيق النصر فقال: "واصبروا على ما تكرهون من شدة، وما تلاقون من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده وغير ذلك، إن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد، وربط الجأش والتثبيت، ومن كان الله معه فلا يغلبه شيء، فالله غالب على أمره، وهو القوي العزيز الذي لا يغالب"<sup>3</sup>.

وتحدث الشيخ عن الثبات وهو شقيق الصبر بشكل موسع، عند قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]، وبين أن الثبات من أعظم القوى المعنوية للمحاربين، وأن هذه القوى لها الدور الأبرز في النصر والظهور على العدو، فقال: "إن الثبات قوة معنوية طالما كانت هي السبب الأخير للنصر والغلب بين الأفراد أو الجيوش: يتصارع الرجلان الجلدان فيعيا كل منهما، وتضعف منته، ويتوقع في كل لحظة أن يقع صريعا فيخطر له أن خصمه ربما وقع قبله

<sup>1</sup> تفسير المنار 261/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 128/10

<sup>3</sup> ج تفسير المنار 23/10

فيثبت، حتى يكون بثبات الدقيقة الأخيرة هو الصرعة الظافر<sup>1</sup>، وهذا ما قالتها العرب قديما "الشجاعة صبر ساعة"<sup>2</sup>.

ثم أعطى الشيخ مثالا من واقع الحرب العالمية الأولى التي عاصرها، وبين كيف أن القتال بين الفريقين المتحاربين أضعف قوى الجنود من الطرفين، وقد فقد كل فريق جميع نقوده ونقص عتاده وكل منهما يقول حتى آخر ساعة، إلى أن استغاث التحالف البريطاني الفرنسي بالولايات المتحدة حتى كان النصر لهم بأسباب أهمها الثبات وعدم اليأس، فقال: "ثم كان له الغلب بأسباب أهمها وآخرها الثبات، وعدم اليأس مما ذاقوا من بأس. فالحلف الألماني في الحرب ومخترعاتهم فيها من المدافع الضخمة والطائرات تمطرهم العذاب من فوق رؤسهم، والغواصات تنسف بواخرهم وبوارجهم من أسفل منها. وكذلك يفيد الثبات في كل أعمال البشر فهو وسيلة النجاح في كل شيء"<sup>3</sup>.

ثالثا: طاعة القائد، والتزام الأوامر الصادرة من القيادة العليا

لا بدّ للجنود أن يكونوا على ولاء تام للقائد وثقة مطلقة به، ولا يجوز لهم التدخل في قرارات السلم والحرب، وهذا معروف في الدول الحديثة، حيث تخضع القيادة الحربية للقيادة السياسية بعد أن تقدم لها جميع ما لديها من خبرات ومعلومات وإمكانات، وعند صدور الأوامر تتولى القيادة العسكرية وضع الخطط والتكتيكات الحربية، وعند نشوب القتال يتولى الجنود تنفيذ الخطط المرسومة كما تم وضعها، دون تردد أو تلعثم.

وقد بيّن الشيخ هذه السنة في حديثه عن قصة طالوت عندما اختبرهم بالنهر الذي يمرّون عليه، فأمرهم بعدم الشرب منه ليعرف مدى ثقتهم وولائهم للقائد، فقال: "لما كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي والراضي والساخط، فيختار المطيع الذي يُرجى بلاؤه في القتال،

<sup>1</sup> تفسير المنار 20 / 10

<sup>2</sup> جاء في مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، " قال ابن أبي الدنيا: أول من قال: الشجاعة صبر ساعة البطل" ينظر ابن قزويني، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، 169/11

<sup>3</sup> تفسير المنار 20/10

وثباته في معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، ويخشى في الوعى خذلانه، فإن طاعة الجيش للقائد وتفته به من شروط الظفر"<sup>1</sup>.

ثم بين الشيخ أن أحوج الناس لاختبار جيشه من علم أنه يقود قوما كارهين له، أو على الأقل فيهم من هو كاره له، وذلك لأن وجود من هم غير متحدين ومنسجمين مع القائد يمكن أن يؤدي بهم أن يوضعوا ويوقعوا الفتنة لوسم القائد بالفشل، ولذلك قام طالوت بإخبار جنوده بما سيواجههم من امتحان يمتحنهم به، وقد قسم الشيخ جنود طالوت بناء على هذا الاختبار إلى ثلاثة أقسام<sup>2</sup>:

المرتبة الأولى: من لا يبالي بأمر طالوت ويشرب حتى يروى، وهذا حكمه التبرؤ منه.

المرتبة الثانية: من يشرب غرفة من أجل أن يبيل ريقه، وهذا في الجملة مقبول.

المرتبة الثالثة: من لا يشرب من ماء النهر مطلقا، وهذا يعد وليا نصيرا موثوقا، وهذا من يعول عليه وعلى جهاده.

وكذلك في غزوة أحد من الدروس الدالة على هذه السنة ما فيها، فانسحاب المنافقين من الجيش في الطريق إلى أحد ومخالفة الرماة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم الدروس التي استفاد العلماء والمفسرون وشراح السيرة في بيانها<sup>3</sup>، فانفصال ثلث الجيش عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء خروجه إلى أحد وكان هؤلاء أتباع عبد الله بن سلول من المنافقين، لم يكن له أثر على نتائج المعركة بل كان تهديبا وإصلاحا لصف المسلمين، فلا حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بجنود غير مخلصين ولا ثقة له بهم، ولقد كان النصر حليف المسلمين أول المعركة، وإنما جاء الفشل حين عصى القسم الأكبر من الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونزلوا عن الجبل، مع أن الرسول أمرهم بالثبات عليه سواء كانت الغلبة للمسلمين أو عليهم.

<sup>1</sup> تفسير المنار 386/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 386/2

<sup>3</sup> ينظر السيرة النبوية لابن هشام 64/2 و65/2

وبين الشيخ في القاعدة الثالثة عشر المستخلصة من سورة الأنفال، أن من أهم أسس النصر والظفر المعنوية طاعة الله وطاعة رسوله وذلك بنص قوله تعالى: {وأطيعوا الله ورسوله} في سياق الحديث عن عنصر الثبات خلال المعركة، وبين أن طاعة الإمام الذي يحارب المسلم تحت لوائه تدخل في حكم طاعة الله والرسول، وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصى أميرى فقد عصاني"<sup>1</sup>، ثم بين الشيخ ان النظام العسكري الحديث يقوم على الطاعة والتزام الأوامر، وأن عصيان الأوامر العسكرية يعاقب عليها أشد العقاب، فقال: "ومن المعروف الشائع من النظام العسكري في عصرنا أن الطاعة المطلقة ركن من أركانه، فيعاقبون من يخالف أوامر القواد من الجند أفرادهم وضباطه أشد العقاب من ضرب شديد، وقتل فظيع، ولولا هذا لما ثبت في العالم المدني سلطان ولا حكم، لكثرة تنازع الأحزاب السياسية واختلاف زعمائها حتى في وقت السلم، وكثرة دسائس الأعداء وبذلهم الرشوة، ولا سيما زمن الحرب"<sup>2</sup>.

رابعاً: الحذر وأخذ الحيطة من مقومات الغلبة والنصر

أكد الشيخ على ذلك عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَّانِفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71]، وبين أن الحذر لا يقتصر على أخذ السلاح والاستعداد المادي، بل هو من الأصول المعنوية الهامة في الاستعداد للحرب والغلبة على الأعداء، فقال: "بعد هذا كله شرع يبين لنا بعض الأحكام الحربية والسياسية ويبين لنا الطريق الذي نسير عليه في حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول المحكمة الحكيمة من الأعداء الذين يعتدون علينا فقال: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم) قال الراغب: الحذر -بالتحريك- احتراز عن مخيف<sup>3</sup>، وقال -عز وجل-: خذوا حذرکم، أي: ما فيه الحذر من السلاح وغيره اه،

<sup>1</sup> الحديث رواه الشيخان عن أبي هريرة، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى و {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}، ح 7137، 61/9 وصحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ح 1835، 1466/3

<sup>2</sup> تفسير المنار 128/10

<sup>3</sup> المفردات في غريب القرآن ص 223

وظاهره التفرقة بين الحذر بالتحريك والحذر بكسر فسكون، وفي لسان العرب أن الحذر والحذر الخيفة<sup>1</sup>، ومن خاف شيئاً اتقاه بالاحتراز من أسبابه<sup>2</sup> فإذا كان الحذر يعني الخيفة، والحذر من العدو يلزمه الاحتراز والاستعداد.

ثم نقل عن الإمام كلاماً مهماً في معنى الحذر وكيفية تحقيقه حيث قال: "الحذر والحذر: الاحتراز والاستعداد لاتقاء شر العدو، وذلك بأن نعرف حال العدو ومبلغ استعداده وقوته، وإذا كان الأعداء متعددين فلا بد من أخذ الحذر من معرفة ما بينهم من الوفاق والخلاف، وأن نعرف الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا، وأن يعمل بتلك الوسائل. فهذه ثلاثة لا بد منها، وذلك أن العدو إذا انس غرة منا هاجمنا"<sup>3</sup>، وفي هذا الكلام تنبيه إلى أهمية الأجهزة الاستخباراتية ودورها الحاسم في الدول الحديثة، حيث إن عنصر المفاجأة يسقط بمعرفة نوايا العدو، وكذلك التفوق العسكري وقوة العتاد يتم تحييده عندما نطلع على خواصه ومقوماته، فالحذر يدخل في معناه الوصول إلى كل ما يلزم من علم ومعرفة وعمل، يجعل المسلمين أصحاب اليد العليا والكفة الراجحة عند أي مواجهة حربية ومقارعة عسكرية.

وأكمل الإمام حديثه عن ضرورة الحذر الذي أمرنا الله به، وأن على النفوس الواعية أن تمتثل لهذا الأمر بكل ما أوتيت من إمكانيات، فعليها أن تسخر قدراتها العلمية والعملية للحذر من مخططات العدو وضرباته، ومن ذلك أن تعمل الأجهزة الاستخباراتية على معرفة أحوال العدو ومعرفة أرضه بكل ما فيها، ثم قال: "فإننا إذا اضطررنا في تأديبه إلى دخول بلاده فدخلناها ونحن جاهلون لها كنا على خطر، وفي أمثال العرب: (قتلت أرض جاهلها)، وتجب معرفة مثل ذلك من أرضنا بالأولى حتى إذا هاجمنا فيها لا يكون أعلم بها منا"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> لسان العرب 175/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 203/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 204/5

<sup>4</sup> تفسير المنار ج5 ص204

ثم تحدث الإمام عن الحذر من خلال الأسلحة والعتاد، وهذا ما سنتحدث عنه في المطلب القادم، ولكن اللافت أن الإمام وضع لنا من خلال سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كيف اتخذ العيون ورجال الاستطلاع يأتونه بأخبار العدو وتحركاته فقال: "وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة -رضي الله تعالى عنهم- عارفين بأرض عدوهم، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم عيون ومستطلعين في مكة يأتونه بالأخبار<sup>1</sup>، ولما أخبروه بنقض قريش العهد استعد لفتح مكة، ولما جاء أبو سفيان لتجديد العهد لظنه أنهم لم يعلموا بنكثهم لم يفلح وكان جواب النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة له واحدا"<sup>2</sup>.

ثم إن الشيخ تعرض لمسألة ذكرها الرازي في هذا الموضوع، وهي ادعاء من يدعي أن الحذر لا ينفع مع القدر<sup>3</sup>، وقد اعتمدا روايتين عن الرسول صلى الله عليه وسلم، هما "المقدور كائن والهمّ الفضل"<sup>4</sup> و "الحذر لا يغني من القدر"<sup>5</sup> وقد ضعّف الرازي الحديثين وردهما لأن ردّ الأمور إلى القضاء والقدر يلغي الشرائع، وأن الإيمان والطاعة لا دور لهما في سعادة الإنسان وشقاوته من هذا المنظور، ثم تابع الشيخ كلام الرازي في هذا الباب وكشف خطورة هذا الاعتقاد على المسلمين حتى صاروا أقل الناس حذرا من الأعداء، فقال: "أقول: إن المسلمين قد ابتلوا بمسألة القدر كما ابتلي بها من قبلهم، وقد شفي غيرهم من سم الجهل بحقيقتها، فلم يعد مانعا لهم من استعمال مواهبهم في ترقية أنفسهم وأمتهم، ولما يشف المسلمون، وقد كشفنا الغطاء عن وجه المسألة غير مرة ولم نر بدا مع ذلك من العود إليها في مثل هذا الموضوع، لا لأن مثل الرازي ذكرها بل لأن المسلمين أمسوا أقل الناس حذرا من الأعداء، حتى إن أكثر بلادهم ذهبت من أيديهم وهم لا يتوبون

<sup>1</sup> من الأمثلة على ذلك: عندما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لمعركة بدر بعث بسيس بن الجهني حليف بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني، حليف بني النجار، إلى بدر يتحسان له الأخبار، عن أبي سفيان بن حرب وغيره، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قدمها. فلما استقبل في الصفراء، وهي قرية بين جبلي، سأل عن جبليهما ما اسماهما؟ فقالوا: يقال لأحدهما، هذا مسلح، وللآخر: هذا مخزئ، وسأل عن أهلها فقيل: بنو النار وبنو حراق، بطنان من بني غفار فكرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرور بينهما، وتغافل بأسمائهما وأسماء أهلها. ينظر سيرة ابن هشام 614/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 204/5

<sup>3</sup> ينظر مفاتيح الغيب، 137/10

<sup>4</sup> لم أجد هذا النص في كتب الحديث وإنما وجدته مقولة على لسان الحكماء في كتب الأدب ينظر الثعالبي، التمثيل والمحاضرة ص 328

<sup>5</sup> ورد هذا الحديث عند الحاكم عن عائشة رضي الله عنها ونصه: "لا يُغني حذرٌ من قدرٍ، والدُّعاءُ يُفَعُّ مِمَّا نَزَلَ، ومِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وإنَّ البلاءَ لَيُنزَلُ فَيُتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" الطبراني المعجم الأوسط، 2498، 66/3، الحاكم المستدرک على الصحيحين، ح 1813، 669/1، ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، وقال ضعيف جدا ح 6764، 594/14

ولا يذكرون، ولا يتدبرون أمر الله في هذه الآية وما في معناها ولا يمتثلون، ثم إنك إذا ذكرتهم يسلون في وجهك كلمة القدر، ومثل الحديثين اللذين ذكرهما الرازي<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث: القوى المادية في السنن العسكرية

لم يُغفل القرآن الكريم الحديث عن القوى العسكرية المادية، بل أمر بإعدادها ونبه إلى أهميتها، فقد أمر الله تعالى بإعداد القوة اللازمة لإرهاب أعداء الله، في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَابِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] ومن الواضح أن القوة هنا تشمل كل أنواعها مادية كانت أو معنوية، بل إن المعنى هنا أقرب إلى القوى المادية الظاهرة التي يراها الأعداء فتثير فيهم الرعب والخوف، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ولقد ذكر عز وجل أهمية العدد والعتاد في الحرب وكونهما من سنن الله في تحقيق النصر والغلبة على الأعداء، فذكر العتاد في سورة النساء عند مطالبته المسلمين التمسك به وعدم الغفلة عنه فقال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 102] وذكر العدد وأهميته في سورة الأنفال حين خفف عن المسلمين ولم يأمرهم بالمغامرة بأعداد قليلة في وجه أعداد تفوقهم أضعاف أضعاف، فقال: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66].

<sup>1</sup> تفسير المنار 205/5

وقد بيّن الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره أهمية العدد والعتاد والقوى المادية في تحقيق سنن الله في النصر والظفر، فتحدث عن ذلك في أكثر من موضع، وسأبين ذلك على النحو الآتي:

أولاً: الإعداد العسكري المادي يمنع وقوع الحرب

حرص الشيخ على بيان أن من أهم فوائد الإعداد العسكري المادي منع الحرب لا خوضها فالمسلم لا يتلطف للمعارك التي تسيل فيها الدماء، ولكن يحرص على إرهاب العدو ومنعه من خوضها، ولكنه إذا فرضت عليه فسيخوضها واثقا متوكلا على الله، فقد استنبط الشيخ من سورة التوبة ثلاث عشرة قاعدة من قواعد الحرب والسلام، وذكر في القاعدة الرابعة منها الاستعداد التام للحرب من أجل الإرهاب المانع منها، فالذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية، ورباط الخيل في كل زمان بحسبه، على أن يكون القصد الأول من ذلك إخافة العدو وتحذيره من عواقب الاعتداء على بلاد المسلمين ومصالحهم، أو الاعتداء على فرد من أفرادهم أو أي شيء يخصهم حتى وإن كان ذلك خارج بلادهم، وذلك حتى يأمنوا في عقر دارهم، ويطمئنوا على أنفسهم وأموالهم ومصالحهم، ثم قال: "وهذا يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي، وتدعيه الدول العسكرية فيه زورا وخداعا فتكذبها أعمالها، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله دينا مفروضا، فقيده به الأمر بإعداد القوى والمرابطة للقتال"<sup>1</sup>، وذكر قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

وكان الشيخ قد بيّن هذا المعنى عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] وبين أن تقييد الإعداد بإرهاب الأعداء دليل على أن الإسلام لا يبغي الحرب ابتداءً، وإنما يعمل على منعها وإخافة الأعداء من خوض غمارها، ويطلب المسلمين بالأخذ

<sup>1</sup> تفسير المنار 228/11

بجميع أسباب القوة حتى يرهبهم الأعداء ويمتنعوا عن الإقدام على قتالهم، وذلك أن الضعف يغري الأقوياء بالتعدي على الضعفاء، وهذا ما يسمى بالسلم المسلحة، وتدعي ذلك الدول الأوروبية ولكنها في الحقيقة كاذبة، إلى أن قال مجريا مقارنة بينها وبين شريعة الإسلام: "ولكن الدول الاستعمارية تدعي هذا بألسنتها وهي كاذبة في دعواها أنها تقصد بالاستعداد للحرب حفظ السلم العام، وكان يُظن أنهم يقصدون السلم الخاص بدول أوربية، وأن الحرب امتنعت منها، فأبطلت ذلك الظن الحرب العامة الأخيرة التي كانت أشد حروب التاريخ أهوالا وتقتيلا وتخريبا، والإسلام ليس كذلك؛ لأنه تعبد الناس بهذه النصوص تعبدا، ويؤيد هذا المعنى آية السلم التي تلي هذه الآية"<sup>1</sup>.

وعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ الْإِنْسَانَ إِلَّا نَفْسَهُ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسْ وَأَشَدُّ تَكْيَلًا﴾ [النساء: 84] بعد أن نقل عن أستاذه أن (عسى) في هذه الآية جاءت لتدل على ضرورة الإعداد والتهيئة، وليس المراد منها الترجي على حقيقته، فذلك محال على الله الذي عنده علم كل شيء، ولكنها بمعنى الإخبار والوعد، وما يخبر به الله عز وجل فهو حق، ووعده لا يتخلف. وبين الشيخ أن الإمام سبق له في أكثر من موضع أن فسر (عسى) بهذا المعنى، ولكنه عاد وبين أن جعل (عسى) على معناها الحقيقي وهو الترجي لا يعني أن الله عز وجل هو المترجي، ولكن المعنى هو أن ما دخلت عليه كلمة (عسى) يكون مرجوا في ذاته وذلك وفق سنته تعالى في عباده.

وعليه فإن المعنى الحاصل من الآية كما بينه الشيخ، أن تحريض المؤمنين على القتال معه وإعدادهم نفسيا وماديا يجعل الكافرين يكفون بأسهم عن المؤمنين، ويبعدون عن الاعتداء عليهم ثم ضرب مثلا بواقع الجيوش الحديثة فقال: "لأنه لا شيء أَدعى إلى ترك القتال من الاستعداد للقتال، وعلى هذه القاعدة جرى عمل دول أوربية في هذا العصر وبه يصرحون، تبذل كل دولة منتهى ما في وسعها من اتخاذ آلات القتال في البر

<sup>1</sup> تفسير المنار 54/10

والبحر وتتنظيم الجيوش، لتكون القوى الحربية بينهن متوازنة، فلا تطمع القوية في الضعيفة فيغيرها ضعفها بالإقدام على محاربتها"<sup>1</sup>.

ثانيا: الإعداد المادي تسليحا وعتادا

لا بد للجيش المسلم من العتاد الكافي والسلاح الملائم لطبيعة المعركة التي يخوضها، والجيش الذي يقابله، ولذلك وضح الشيخ هذه القضية بشكل مفصل، فنقل عن الإمام في معنى الاستعداد والحذر قوله: "ويدخل في الاستعداد والحذر معرفة الأسلحة واتخاذها واستعمالها، فإذا كان ذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجر الأثقال فيجب تحصيل كل ذلك كما هو الشأن في هذه الأيام"<sup>2</sup>. ثم وضح الشيخ مراد الأمام بقوله: "إنه يجب على المسلمين في هذا الزمان اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيه من المدافع بأنواعها والبنادق والبوراج المدرعة وغير ذلك من أنواع السلاح وآلات الهدم والبناء وكذلك المناطيد الهوائية والطائرات، وأنه يجب تحصيل العلم بصنع هذه الأسلحة والآلات وغيرها وما يلزم لها، والعلم بسائر الفنون والأعمال الحربية وهي تتوقف على ما أشار إليه من العلوم الأخر كتنويم البلدان وخرت الأرض"<sup>3</sup>.

ثم ذكر الشيخ ما ساقه الإمام في هذا المقام وهو وصية الصديق لابن الوليد يوم معركة اليمامة: "حَارِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا يُحَارِبُونَكَ بِهِ، السَّيْفُ بِالسَّيْفِ وَالرُّمْحُ بِالرُّمْحِ"<sup>4</sup> وهذا دليل على أن استعداد الرسول وأصحابه كان وفق حال العدو وقوته، ثم ختم حديثه في بيان الحذر من العدو بقوله: "ويدخل فيه اقتناء السلاح مع العلم بكيفية استعماله والتمرن على الرمي بالمدافع وببنادق الرصاص في هذا الزمان، كما كانوا يتمرنون على رمي السهام، وقد قصر المسلمون في هذا"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 5 ص 247

<sup>2</sup> تفسير المنار ج 5 ص 204

<sup>3</sup> تفسير المنار ج 5 ص 204

<sup>4</sup> ينظر وصية أبي بكر لخالد بن الوليد، وليس بذات اللفظ، ينظر الواقدي، الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، ص 70، وينظر، العقد الفريد، ج 1 ص 116

<sup>5</sup> تفسير المنار ج 5 ص 206

وعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] ذكر أن من أسباب الهلاك التقصير في معرفة فنون الحرب، والدخول فيها دون استعداد ومعرفة بالطرق الحربية التي يعرفها العدو والمخاطرة بغير كفاءة حربية، فقال: "ويدخل في النهي التطوع في الحرب بغير علم بالطرق الحربية التي يعرفها العدو، كما يدخل فيه كل مخاطرة غير مشروعة"<sup>1</sup>.

ولقد استفاض الشيخ في بيان القوة المادية وآلاتها عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] فبين أن إعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف الزمان والمكان، ثم ساق حديث عقبة بن عامر انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تلا الآية الأنفة على المنبر، يقول: "ألا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً<sup>2</sup>، وقال: "وذلك أن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، وإطلاق الرمي في الحديث يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق أو طيارة أو بندقية أو مدفع وغير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفاً في عصره -صلى الله عليه وسلم- فإن اللفظ يشملها"<sup>3</sup>.

ثم أوجب الشيخ على الأمة في العصر الحديث أن تبادر إلى صناعة مختلف أنواع الأسلحة من طائرات ودبابات ومدافع وبنادق ومناطيد وبناء سفن الحرب وغير ذلك من أدوات القتال، وعلى المسلمين أن يتعلمون من العلوم ما لا بد منه من أجل تحقيق هذه الصناعات، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثم ذكر كيف استعمل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المنجنيق يوم فتح خيبر إلى أن قال: "وكل الصناعات التي عليها مدار المعيشة من فروض الكفاية كصناعات آلات القتال"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 1 ص 172

<sup>2</sup> صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، ح 1917، 1522/3

<sup>3</sup> تفسير المنار 53/10

<sup>4</sup> تفسير المنار 54/10

ثم نقل الشيخ عن السيد الألوسي كونه أدرك دخول الآلات الحربية الحديثة والأسلحة والقذائف النارية، أنه عند تفسيره الآية دعا إلى مقابلة الأعداء بالمثل من استعمال البنادق والمدافع<sup>1</sup>، كون النبل ورميها لم يعد له محل، وأننا إذا لم نقابل العدو بالمثل اشتد الوبال والنكال بالمسلمين، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، إلى أن قال: "ولعل فضل ذلك الرمي يثبت لهذا الرمي لقيامه مقامه في الذب عن بيضة الإسلام، ولا أرى ما فيه من النار للضرورة الداعية إليه إلا سببا للفوز بالجنة إن شاء الله تعالى، ولا يبعد دخول مثل هذا الرمي في عموم قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] ثم وقف الشيخ عند مسألة عاب فيها على العلماء التقليديين والذين سماهم هنا ب(المعممين) موقفهم منها، وهي استعمال القذائف والأسلحة النارية في مواجهة الأعداء، فإن ذكر الألوسي للمسألة ورأيه في حل استعمال ما فيه النار، كان دافعه وجود من حرم استعمال هذه الأدوات، وشبهته في ذلك أن فيها تعذيب بالنار وقد حرم الشرع ذلك، وقال الشيخ: "ولكن من الجهل والغباوة أن يعد حرب الأسلحة النارية للأعداء الذين يحاربونها بها من هذا القبيل بأن يقال: إن ديننا دين الرحمة يأمرنا أن نحتمل قتلهم إيانا بهذه المدافع، وألا نقاتلهم بها رحمة بهم، مع العلم بأن الله تعالى أباح لنا في التعامل فيما بيننا أن نجزي على السيئة بمثلها عملا بالعدل، وجعل العفو فضيلة لا فريضة فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40-41] إلى آخر الآيات"<sup>2</sup>.

وهذا كلام دقيق في غاية الوضوح في حل بل ضرورة استعمال جميع الآلات العسكرية الحديثة لردع ومواجهة الأعداء.

ثالثا: إعداد الجيوش عددا وتدريباً

مع كل التقدم الذي وصلت إليه الأمم في الأسلحة الفتاكة الحديثة فإن الذي يحسم المعركة هو الجندي على الأرض، والذي يحسن استعمال هذه الأسلحة المتطورة، وقد نبه الشيخ إلى ذلك في أكثر من موضع، فعند

<sup>1</sup> الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 220/5

<sup>2</sup> تفسير المنار 54/10

قوله عز وجل: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71] بيّن أن المراد من النفير هو النفير إلى الحرب والجهاد في سبيل الله، وأن الثبات جمع ثبّة وهي الجماعة المنفردة، وعلى المسلمين أن ينفروا جماعة في إثر جماعة، أو أن ينفروا جميعا إذا اقتضت الحال ذلك، ثم قال: "فانفروا سرايا وطوائف على قدر الحاجة، أو نفيرا عاما، ويجب هذا إذا دخل العدو أرضنا كما قال الفقهاء"<sup>1</sup>.

ثم نقل الشيخ كلاما عن أستاذه الإمام في غاية الدقة بين فيه معنى النفير ثباتٍ وجميعا، فالثبّة جماعة لا تتقيد بعدد محدد، أما جميعا فالمراد بها المؤمنين كافة دون استثناء، واختلاف النفير يكون بحسب الحاجة وطبيعة التحدي وحال المهاجمين، ثم ذكر الحكمة من هذا التفصيل، وهي أن لا يُتساهل في أخذ الحذر، ثم قال: "إذا احتيج في المقاومة إلى نفر جميع أفراد الأمة وخروجهم للجهاد وجب وهو قوله: ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾... ويتوقف امتثال هذا الأمر على أن تكون الأمة كلها مستعدة دائما للجهاد بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمنونا عليها بالعمل، فيظهر أن المعافاة من الخدمة العسكرية ليست شرفا بل هي إباحة لتترك ما أوجبه الله في كتابه"<sup>2</sup>.

وهذا كلام في غاية الروعة بيّن فيه الإمام كيف سبق الإسلام الدول الحديثة في تقسيم الجيوش وإعدادها، فعلى الأمة أن تكون جميعها جاهزة للحرب متدربة عليها، وهذا ما يسمى في الدول الحديثة بجنود الاحتياط وهم موزعون بحسب قدراتهم وكفاءاتهم، فهناك جيش احتياط كامل من طيارين وقادة المدرعات والسفن الحربية والمشاة وغيرها، ولذلك تفرض بعض الدول التجنيد الإلزامي لكل من بلغ سن الثامنة عشرة لمدة سنتين أو أكثر حتى يكون عنده المعرفة الأساسية في فنون الحرب وقواعدها.

وفي موضع الحديث عن الإعداد، عند قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] بيّن الشيخ أهمية العامل البشري في الحرب، وضرورة وجود الفرسان المرابطين على الثغور وحدود البلاد،

<sup>1</sup> تفسير المنار 206/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 206/5

وهي المواقع التي يمكن أن يتسلل منها العدو لمهاجمة البلاد، ثم قال: "والمراد أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة، قاومه الفرسان، لسرعة حركتهم، وقدرتهم على الجمع بين القتال، وإيصال أخباره من ثغور البلاد إلى عاصمتها وسائر أرجائها"<sup>1</sup>.

ثم أكمل الشيخ حديثه في هذا الموضوع وبين أن إرهاب الأعداء يحتاج إلى إعداد كل ما يستطيع من القوة الحربية عتادا وعددا، فقال: "وأما قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] فمعناه: أعدوا لهم ما استطعتم من القوة الحربية الشاملة لجميع عتاد القتال وما يحتاج إليه الجند، ومن الفرسان المرابطين في ثغوركم وأطراف بلادكم"<sup>2</sup>.

ثم في ختام تفسير سورة الأنفال عاد الشيخ وأكد على أهمية إعداد المقاتلين، بل إعداد كل مكلف ليكون مقاتلا قويا وجنديا احتياطيا، فربما تحتاج الأمة إلى نغير عام يكون حينها القتال فرضا عينيا على الجميع، فذكر في خلاصة السورة القواعد الحربية المستفادة منها، وكان من أول ما قاله في القاعدة الأولى: "وجوب إعداد الأمة كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها فيدخل في ذلك عدد المقاتلة، والواجب أن يستعد كل مكلف للقتال؛ لأنه قد يكون فرضا عينيا في بعض الأحوال، يستدعي ما يسمى بالنغير العام، ولا يمكن هذا في أمم الحضارة إلا بمقتضى نظام عام"<sup>3</sup>.

رابعا: الإنفاق على الجيوش وتسليحها

الإنفاق على الجيوش وتسليحها من أهم السنن العسكرية المؤدية إلى نجاح الجيوش في تحقيق الظفر، وطالما ذكر الله تعالى الجهاد في سبيله مقرونا بالنفس والمال، وإن الدول القوية هي التي تخصص الجزء الأكبر من ميزانيتها للنواحي العسكرية والقضايا الحربية، وفي العصر الحديث تسمى وزارة الدفاع أو الحربية، ولها

<sup>1</sup> تفسير المنار 53/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 55/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 125/10

تتبع العديد من الأجهزة المساندة مثل جهاز الاستخبارات، وأجهزة البحث العلمي والتصنيع المتعلق بالتسليح والإنتاج الحربي والتطوير العسكري.

وقد تحدث الشيخ عن هذا الجانب في أكثر من موضع، وجلاً وجلاً ضرورته وأهميته، فعندما تحدث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245] وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله تعالى،

بعد قوله عزوجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 244] ذكر أن الدفاع عن الحق يتوقف على بذل المال لتجهيز المقاتلين، وإذا كان التجهيز في السابق يتوقف على طبيعة القتال والمقاتلين، ويختلف بين أهل البداوة والحضارة، حيث أن أهل البداوة كانوا يجهزون أنفسهم بأنفسهم ويعين بعضهم بعضاً ولا يكلفون رئيسهم تجهيزهم، وكان الأغنياء يعينون الفقراء، أما الدول الحضارية فتحتاج إلى جيوش كبيرة، وإعداد هذه الجيوش للحرب هجوماً ودفاعاً يتطلب الكثير ممن النفقات بخلاف ما كانت عليه القبائل البدوية سابقاً، إلى أن قال: "وقد كثرت نفقات الدول الحربية اليوم بارتقاء الفنون العسكرية، وتوقف الحرب على علوم وفنون وصناعات كثيرة، من قصر فيها كان عرضة لسقوط دولته؛ لهذا قرن الله تعالى الأمر بالقتال، بالحث على بذل المال، فالمراد بالبذل هنا ما يعين على القتال، وما هو بمعناه من كل ما يعلي شأن الدين، ويصون الأمة ويمنعها من عدوان العادين، ويرفع مكانتها في العالمين"<sup>1</sup>.

ثم فسر المراد من الإنفاق الذي دعانا الله إليه في آخر آية الأعداد عندما قال: ﴿وَمَا تَفْقَهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْفَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60] بالإنفاق على ما يعين على القتال وإعداد القوة والرباط كما أمر الله، فقال: "أي: ومهما تفقوا من شيء نقداً كان أو غيره، قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله يعطكم الله جزاءه وأفيا تاماً وأنتم لا تظلمون"<sup>2</sup>، ثم بين أن من كان مستعداً

<sup>1</sup> تفسير المنار ج2 ص366

<sup>2</sup> تفسير المنار ج10 ص58

للقتال كما يجب لا يلحقه ضيم ولا اضطهاد ولا اعتداء، وإذا اعتدي عليه فلا يظفر به ولا ينال منه، وإن إعداد المستطاع من القوة لا يكون بغير إنفاق الكثير من المال، ولهذا ندب الله إلى إنفاق المال، ورفع مقام المنفقين في سبيله، ثم قال: "فيجب على الأمة بذل ما يكفي للإعداد المذكور في الآية، فإن لم يبذلوا طوعاً وجب على الإمام الحق العادل إلزام الأغنياء ذلك بحسب استطاعتهم لوقاية الأمة والملة"<sup>1</sup>.

وهذا كلام يطابق ما عليه الأمم والدول القوية التي تفرض عند الحاجة الضرائب اللازمة على أموال الأغنياء من أجل تمويل الحرب التي تخوضها ومقاومة الأعداء، ويدل على مدى عمق الفهم عند الشيخ بالسنن الحربية.

ولقد أكد الشيخ هذا الأمر ووضح كيف يجب على الدول القوية تخصيص الميزانية الضخمة للأمور العسكرية فقال في موضع آخر: "والدول المنظمة تقرر في كل عام مبلغاً معيناً من المال في ميزانية الدولة للنفقات الحربية من برية وبحرية وهوائية. وإذا وقعت الحرب يزدون في هذه المبالغ، ويجددون لها كثيراً من الضرائب، بل يجعلون جميع أموال الدولة والأمة ومصالحها ومرافقها تحت نفوذ قواد الحرب يتصرفون فيها بالنظام لا بالاستبداد، والمسلمون أولى منهم بكل ما ذكر"<sup>2</sup>.

ثم إنه بيّن أن البخل والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله يؤدي إلى ضعف الأمة وهلاكها، فعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195] قال: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

بالإمساك عن الإنفاق في الاستعداد للقتال؛ فإن ذلك يضعفكم ويمكن الأعداء من نواصيكم فتهلكون"<sup>3</sup>.

كما أن الشيخ جعل الذين يعكفون على تعلم الفنون العسكرية، كمن يعكف على مصالح الأمة التي لا تقوم إلا بهم، وهؤلاء تجب عليهم النفقة من بيت المال، إذا لم يستطيعوا الجمع بين كسب الرزق وما اشتغلوا به

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 10 ص 58

<sup>2</sup> تفسير المنار ج 10 ص 399

<sup>3</sup> تفسير المنار ج 2 ص 172

من مصالح الأمة، وجعل هؤلاء من المحصرين الذين ذكرهم الله تعالى عند قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 273]، فهؤلاء يجب عليهم أن يتفرغوا لمصالح الأمة وأن يتركوا الكسب لأنفسهم، وعلى الأمة أن تنفق عليهم، ومثل هؤلاء الذين فرغوا أنفسهم لتعلم الخطط الحربية وأساليب القتال والفنون العسكرية، فقال عنهم: "وجب عليهم ترك الكسب وحبس أنفسهم في سبيل الله، وكانوا بذلك محصرين بالاضطرار الشرعي، ووجبت نفقتهم في بيت المال، وإلا فعلى أغنياء الأمة، وإن لم يتعين لذلك أناس مخصوصون كان الأمر من فروض الكفاية كما هو ظاهر، ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية"<sup>1</sup>.

ومن فطنة الشيخ واهتمامه بالسنن العسكرية أن جعل نصيبا من الخمس الذي يؤخذ من الغنائم وفق ما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: 41] فجعله للأمور العسكرية والمهمات الحربية الخاصة، وبين أن من حكمة جعل الخمس على النحو الذي أمر الله به هو أن الحكومة التي تقوم على إدارة شؤون الأمة بحاجة إلى المال الذي يعينها على مهماتها، فقسم المال أقساما وأول هذه الأقسام ما كان لمصالح الأمة العامة، وعلى رأسها إقامة الشعائر الدينية، والدفاع عن حوزة الأمة وهذا ما جعل الله الآية من أجله، ثم قال: "فأما المال الذي يرصد لهذه المصالح فهو في هذا العصر أنواع، يدخل كل نوع منه في ميزانية الوزارة الموكول إليها أمر المصلحة التي خصص لها المال إن كان من الأمور الجهرية، وإلا وكل إلى المخصصات السرية، ولا سيما إذا كان من الأعمال الحربية كالتجسس وما يتعلق به، وهو كثير عند جميع الدول العسكرية"<sup>2</sup>.

وأخيرا ليس غريبا على الشيخ ذي العناية البالغة بالسنن الإلهية في عزة الأمم ونهضتها أن يجعل أهم ما يصرف في السهم الثامن من مصارف الزكاة يصرف على الأمور العسكرية التي تحفظ على الأمة قوتها وهيبتها، وقد بين ذلك بشيء من التفصيل فسيبيل الله المراد في مصارف الزكاة يشمل مصالح الأمة الشرعية

<sup>1</sup> تفسير المنار ج 3 ص 74

<sup>2</sup> تفسير المنار ج 10 ص 8

العامة وبين أن هذه المصالح هي التي يقوم عليها أمر العباد دينا ودولة، وأول وأولى هذه المصالح بالتقديم ما يدخل في الإعداد للقتال سلاحا كان أو غذاء أو أدوية وغير ذلك مما نحتاجه لتجهيز الجنود، إلى أن قال: "ويدخل في عمومه إنشاء المستشفيات العسكرية، وكذا الخيرية العامة، وإشراع الطرق وتعبيدها، ومد الخطوط الحديدية العسكرية لا التجارية، ومنها بناء البوارج المدرعة والمناطيد والطائرات الحربية والحصون والخنادق"<sup>1</sup>.

وهكذا في ختام هذا المبحث تأتي السنن العسكرية تتويجا لما سبقها من السنن في نهضة الأمم، ولقد اخترت أن أجعل الحديث عنها خاتما لسنن النهضة ذلك أنه لا يتحقق نصر عسكري ما لم يسبقه رسوخ إيماني، وسمو أخلاقي، وعدل وصلاح سياسي، وتدبير اقتصادي، وكذلك لا يكون النصر العسكري إلا بسننه وشروطه المعنوية والمادية التي بيّنها الشيخ في تفسيره كما تحدثت عنها آنفا، فإذا اجتمعت هذه السنن وجاءت مكملة لبعضها البعض نهضت الأمة وتحقق لها عزها ومجدها، ودام سؤدها وازدهارها.

وفي ختام هذا الفصل الهام الذي بينت فيه السنن الإلهية في نهضة الأمم، لا بد أن أدعو وأناشد أبناء الأمة إلى المسارعة للأخذ بهذه السنن والمسارعة في فهمها وتطبيقها، فذلك هو سبيل النهضة وطريق الخروج مما نحن فيه من ضر وبلاء، وإن استعادة الاستخلاف في الأرض، وأخذ دورنا في قيادة الحضارة العالمية، لن يكون إلا بإقامة سنن الله، وأختم بقول الشيخ رحمه الله: "ولن يكشف عنهم (عن المسلمين) انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الأرض، ولئن عادوا إليها بإقامة سنن القرآن، ليتمنّ لهم وعده بخلافة الأرض إلى آخر الزمان، فبقدر إقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان، فمن ذا الذي يقيّمها؟".

---

<sup>1</sup> تفسير المنار ج10 ص426

## الفصل الرابع

### السنن في سقوط الأمم في تفسير المنار

كان الحديث في الفصل السابق عن السنن الإلهية في نهضة الأمم، وفي هذا الفصل سأحدث عن السنن في سقوط الأمم وهبوطها، فإن التغيير كما يكون من السيء إلى الحسن، فإنه يكون كذلك من الحسن إلى السيء، وإن آية الأنفال في التغيير واضحة بأنه تغيير من النعمة إلى النقمة بسبب تغيير الناس ما بأنفسهم من الحسن إلى السيء فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53].

وإن الله تعالى يجري الأمور بسننه المضطردة التي لا تخرج عن مشيئته المطلقة، فكل شيء هو من عند الله وهو واضح السنن جميعها سواءً كانت سنن علو أو سنن هبوط، وإن كان الكفار إذا أصابتهم حسنة نسبوا لله وإذا أصابتهم سيئة نسبوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الله رد عليهم بقوله: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: 78] وبهذا يتضح أن الحديث عن سنن النهوض التي وضعها الله تعالى يستوجب الحديث عن سنن السقوط التي وضعها الله تعالى كذلك، وإذا كان الله تعالى قد عقب بعد الآية السابقة بقوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79] فذلك من باب ما جاء في الحديث القدسي: "فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"<sup>1</sup>، وعليه فإنني سأحدث في المباحث الآتية عن السنن في سقوط الأمم وإن كان الله تعالى هو الذي وضعها وأجراها بحكمته ومشيئته إلا أنني سأكتفي بالعنونة لها بالسنن في سقوط الأمم بدلا من السنن الإلهية في سقوط الأمم وذلك من باب الأدب والتأدب مع الله تعالى.

<sup>1</sup> صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح 2577، 1994/4

## المبحث الأول: السنن في الانحراف العقائدي وسقوط الأمم في تفسير المنار

إن الانحراف العقائدي واضطراب الإيمان من أخطر السنن في سقوط الأمم وزوالها، وقد أوضح الشيخ ذلك في تفسيره المنار في العديد من المواضع، وأنا هنا لا أعود على ما ذكرته في الفصل السابق من سنن نهضة الأمم، وإن كان الشيء يعرف بوضوحه، إلا أنني سأذكر ما قاله وبينه الشيخ من سنن خاصة بسقوط الأمم ومؤدية لهذا السقوط بشكل واضح، فقد تحدث عن الانحراف العقائدي رابطاً إياه بضعف الأمم وسقوطها في أكثر من موضع وسوف أبين ذلك على النحو الآتي:

### المطلب الأول: عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وأثره في نفوس المشركين

سأتحدث في هذا المطلب أولاً عن أثر عدم الإيمان بالله في النفوس، ثم عن أثر عدم الإيمان باليوم الآخر: أولاً: الشرك سبب دخول الرعب في قلوب أصحابه

عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151] يبين الشيخ أن الشرك من أسباب دخول الرعب إلى الأمم وبالتالي يؤدي إلى ضعفها وانحطاطها، فمن سنن الله تعالى أن يقذف الرعب في قلوب المشركين، فيكونون في حالة من التخبط والاضطراب، فيقول: "المتبادر لنا أن الآية تعليل أو تصوير لكونه -تعالى- خير الناصرين للمؤمنين الموحدين، مبينة لبعض وجوه تبييننا يقبح لهم الشرك ويزيدهم حبا في الإيمان، وبيانه أنه سيحكم في أعدائهم المشركين سنته العادلة، وهي أنه يلقي في قلوبهم الرعب... وهو شدة الخوف التي تملأ القلب بسبب إشراكهم بالله أصناما ومعبودات لم ينزل بها سلطاناً"<sup>1</sup>.

ثم يزيد الشيخ هذه السنة إيضاحاً ويبين كيف يعمل الشرك في النفوس تثبيطاً وتوهيناً وأرقاً وتردداً، فمن قام اعتقاده على غير برهان، وإيمانه بغير دليل فهو دائم التردد، يسير على غير هدى، ويهيم مع الوهم بغير

<sup>1</sup> تفسير المنار 146/4

علم ولا فهم، فيقول: "ومن كان كذلك غير مطمئن في دينه، ولا متبع للدليل في اعتقاده فهو دائما عرضة لاضطراب القلب واتباع خطرات الوهم، يعد الوسواس أسبابا، ويرى الهواجس مؤثرات وعلا، قياسا على اتخاذه بعض المخلوقات أولياء، وجعلهم وسائط عند الله وشفعاء، واعتياده بذلك أن يرجو ما لا يرجي منه خيرا، ويخاف ما لا يخاف منه ضيرا"<sup>1</sup>.

ثم يوضح الأمر أكثر ويبين أن الرعب سببه الشرك وهو سنة من سنن الله تعالى تحل بالمشركين والمنحرفين عن الهدى والايمان، وإن كان الله عادة ينسب إدخال الرعب في قلوب الكافرين إلى نفسه، ولكنه في هذه الآية يبين لنا أن إدخال الرعب كان من سنن الله تعالى وسببا للشرك والكفر، فيقول: "فالإشراك قد يكون سببا طبيعيا لوقوع الرعب في القلب، وما كان كذلك فإن الله يسنده إلى نفسه وإن لم يذكر السبب؛ لأنه هو واضع الأسباب والسنن، ولكنه قد صرح به هنا ليكون برهانا على بطلان الشرك وسوء أثره"<sup>2</sup>.

وكأن الشيخ يريد أن يقول لنا إن الشرك يفعل فعله في النفوس رعبا واضطرابا كما يفعل الإيمان فعله فيها طمأنينة وثباتا، فالله تعالى هو الذي يسكب السكينة والطمأنينة في نفوس المؤمنين، حيث قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] وهو الله الذي يلقي الرعب في قلوب المشركين بشركهم وانحرافهم، فإذا التقى المشركون مع المؤمنين حقا قذف في قلوبهم الرعب بشركهم وكفرهم.

ثم يختم حديثه عن الآية بقوله: "إن الآية بيان لسنة إلهية عامة... وعلى هذا يكون الإشراك سببا للرعب كسائر الأسباب العادية التي ربط الله بها المسببات كالشرب للري والأكل للشبع، فمن وصل إليه الحق تنزل الباطل في نفسه لا محالة، ومن تمام التشبيه أن تكون بعض الوقائع التي لا يقع فيها الرعب في قلوب المشركين، كالوقائع التي يشرب فيها المرء ولا يروى لعارض مرضي، فسنن الاجتماع كسنن الأجسام الطبيعية لها عوارض وشروط وموانع"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 146/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 146/4

<sup>3</sup> تفسير المنار 147/4

وهذا الكلام في غاية الوضوح في كون الشرك سببا في الرعب والخذلان، وقد أحسن الشيخ التشبيه بين المادي والمعنوي، وبين النفسي والجسماني، فشتان بين من يشرب ماء عذبا زلالا يرويه ويذهب عنه عيّه وسقمه، وبين من يشرب ماء فاسدا مالحا لا يزيده إلا عطشا واعتلالا.

ثانيا: عدم الإيمان باليوم الآخر سبب في الخذلان والركون إلى الدنيا

يتحدث الشيخ عن انحراف عقائدي آخر يؤدي إلى الخذلان والضعف، وإلى ترك الجهاد في سبيل الله، وترك البذل والتضحيات، وأنى لأمة أن تحافظ على مجدها وعلوها بغير البذل والتضحيات وبغير الجهاد بالنفس والمال؟ وهذا الانحراف هو إنكار اليوم الآخر وعدم الإيمان به، فإن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر يعلم أن ما قدمه في الدنيا سيثاب عليه أضعافا مضاعفة في الآخرة، وذلك بخلاف من لا يؤمن بالآخرة فهو شحيح على الدنيا، حريص على الحياة لا يبالي بالذل والهوان، فعند تفسيره قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَّتْ أَبْطَابُ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ [التوبة: 45] بين أن الآية تصريح وتأكيد على أن استئذان الرسول بالتخلف عن الجهاد في سبيل الله نابع من عدم إيمانهم باليوم الآخر، ومن الريب والتردد الحاصل في قلوبهم، فبذل المال من أجل الجهاد يروونه مغرما، وبإنفاقه تقوت عليهم منافعهم الدنيوية التي يرجونها من وراء هذا المال، وهم لا يرجون الثواب في الإنفاق كما يرجوه المؤمنون، وجهاد العدو بالنفس يروونه متاعب وآلاماً وتعرضاً للهلاك الذي لا حياة بعده، ثم قال: "قطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضي كراهتهم للجهاد، وفرارهم منه ما وجدوا له سبيلا، بصد ما يقتضيه إيمان المؤمنين كما تقدم وارتابت قلوبهم أي: وقد وقع لهم الريب والشك في الدين من قبل، فلم تطمئن به قلوبهم"<sup>1</sup>.

وأقول تأكيدياً على أثر الإيمان باليوم الآخر وعدمه في النفوس، شتان بين من يؤمن بأن بعد الموت حياة يلقي فيها المؤمن جنات تجري من تحتها الأنهار، وبين من يعتقد أن لا حياة بعد هذه الحياة، فهذه الحياة بالنسبة له هي كل شيء فإن خسرها خسر كل شيء، فهو حريص عليها، متمسك بها، وإن لنا في أصحاب

<sup>1</sup> تفسير المنار 405/10

رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبرة حيث كانوا يطلبون الشهادة مظانها إيماناً منهم بما ينتظرهم من نعيم مقيم، وخير مثال على ذلك ما قاله الصحابي الجليل عمير بن الحمام قبل الدخول في غزوة بدر، فقد روى مسلم في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نزل بدرًا وأقبل المشركون قال: "قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ"، فقال عمير بن الحمام الأنصاري: - يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قال: «نعم»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها قال: «فَأَتِكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل<sup>1</sup>. فهل يستوي هذا مع من لا يؤمن ببعث ولا جزاء في اليوم الآخر، فيحرص على الحياة كما حرص عمير على الموت؟

### المطلب الثاني: الخرافات واتخاذ الأولياء من دون الله سبب في الضعف والتخلف

كثيراً ما يتعرض الشيخ في تفسيره إلى التصوف الشاذ الذي ينتسب إليه الكثيرون من جهلة المسلمين، فبيّن ما وقعوا فيه من انحراف عقائدي وخلل إيماني، باتخاذهم قبور الأولياء مزارات يقدمون عندها الذبائح والندور، واتخاذهم الشيوخ أندادا وشفعاء لجلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر، ثم يعزو الشيخ إلى هذه الاعتقادات الفاسدة والتصورات الباطلة ما وصل إليه المسلمون من ضعف وتخلف وحرمان من نصر الله تعالى، فينقل الشيخ عن أستاذه قوله: "فليُنظر الناظرون إلى أين وصل المسلمون ببركة التصوف واعتقاد أهلهم بغير فهم ولا مراعاة شرع! اتخذوا الشيوخ أندادا، وصار يقصد بزيارة القبور والأضرحة قضاء الحوائج وشفاء المرضى وسعة الرزق، بعد أن كانت للعبرة وتذكر القدوة، وصارت الحكايات الملفقة ناسخة فعلا لما ورد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على الخير، ونتيجة ذلك كله أن المسلمين رغبوا عما شرع الله إلى ما توهموا أنه يرضي غيره ممن اتخذوهم أندادا له وصاروا كالإباحيين في الغالب، فلا عجب إذا عم فيهم الجهل، واستحوذ عليهم الضعف، وحرّموا ما وعد الله المؤمنين من النصر؛ لأنهم انسلخوا من مجموع ما

<sup>1</sup> صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ح 1901، 1509/3

وصف الله به المؤمنين... فهذا النوع من اتخاذ الأنداد كان من أهم أسباب تأخر المسلمين وسقوطهم فيما سقطوا فيه"<sup>1</sup>.

ويتحدث الشيخ في موضع آخر عن الذين جعلوا تدبير الكون وأمر العباد لطائفة من الأموات والأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء، وينسبون لهذه الطائفة قدرات خارقة لا تكون إلا لله تعالى كالإحياء والإماتة، ويجعلون لهم ما لم يكن للأنبياء والرسول، فكأنهم يشاركون الله في ملكه وحكمه، ويتساءل هل لهؤلاء حظ من الإسلام حين يتعلقون بالأموات في قبورهم اعتقاداً منهم أن بيدهم النصر والخذلان والسعادة والشقاء والغنى والفقير والمرض والشقاء وغير ذلك من الأمور ثم يقول: "هل يعد هؤلاء من أهل الإسلام وأتباع القرآن الذي يخاطب خاتم النبيين والمرسلين - حين لعن رؤساء المشركين الذين حاربوه حتى خضبوا بالدم محياه وكسروا إحدى ثناياه - بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 128]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]؟ هذا تعليم القرآن الحكيم وهذا هديه القويم"<sup>2</sup>.

ثم يعطي الشيخ أمثلة عن شعوب تحمل اسم الإسلام، ولكن فشى فيها الجهل وتغلغل الانحراف العقائدي فأصابهم ما أصابهم من خزي وخذلان، فكانوا يعتقدون بالجن ويعوذون بهم فزادوهم رهقا، فذكر الدجالين الذين يأكلون أموال جهلة العوام بالباطل، بولايتهم للشياطين وولاية الشياطين لهم، وقد خوفوا الناس منهم حتى أوقعوا الرعب في قلوبهم، وأوقعوهم في ضلالات كثيرة، وذكر مفاصد عادة كانت منتشرة في مصر وغيرها من بلاد المسلمين، هي عادة (الزار)<sup>3</sup> وسببها اعتقاد الكثيرات من النساء المريضات بأمراض عادية - ولا سيما إذا كانت عصبية - أن الشياطين قد دخلت في أجسادهن. وأن صناعات الزار يخرجنهم منها بإرضائهم

<sup>1</sup> تفسير المنار، 62/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 98/4

<sup>3</sup> الزار كلمة غير عربية مستعارة من الأمهرية انتقلت من بلاد الحبشة إلى العالم الإسلامي، وهي تطلق على نوع من الجن يتجسدون بكائنات بشرية، ويعتقد الجهلة بإمكانية استحضارهم على يد (الدجالين والعرافين) الذين يأتونهم، يقومون بطقوس عجيبة لاسترضائهم ثم الاستعانة بهم لتحقيق أمنياتهم أو تفريج مصائبهم، وغير ذلك من الاعتقادات الشركية الباطلة، ينظر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج 17 ص 5238

والتقرب إليهم بالقرابين وغيرها. "وهذا نوع من عبادة الجن التي كانت في الجاهلية فأزالها الإسلام بإصلاحه، ولما جهل الإسلام في كثير من البلاد وقبائل البدو عادت إلى أهلها"<sup>1</sup>.

ثم ذكر الشيخ للتدليل على قبح ما كان يصنعه الدجالون من استغلال للضعفاء والبسطاء وأصحاب الحاجات والمصابين بنوائب الدهر، قصة امرأة كانت تأتي إلى بيتهم باللبن كل صباح من ريف الجيزة، -وكثيرا ما كان الشيخ يستشهد بقصص وأحداث وقعت معه وشهدها بنفسه- فيحكي أن ولدها غرق في النيل فسألت عنه بعض الدجالين فأخبرها بأن أحد الأسياد (أي عفاريت الجن) أنقذه ووضعها عنده، فهو يعيش في ضيق وشظف، وأنه هو يمكنه أن يوصل إليه ما تجود به والدته عليه، فكانت تعطيه ما تقدر عليه من الطعام والدجاج والحمام المقلي مع شيء من الدراهم أجرة لنقله، وتعتقد أن ذلك كله يصل إلى ولدها عند العفريت الذي أخذه، ويكون سببا لحسن معاملته له، وربما يطلقه بعد، ثم قال: "ما زال أهل بيتنا ينصحن لها بترك ذلك الدجال المفترى المحتال حتى أقنعها بكذبه بعد أن خسرت كل ما كانت تربحه من بيع اللبن في سبيله"<sup>2</sup>، وليس أضرّ على الأمة ولا أوقع لها في البوار والخسران والسقوط والانهيال من مثل هذه البدع الشركية، والمعتقدات الضالة المنحرفة.

وقد فندّ الشيخ المزاعم الباطلة والمعتقدات الفاسدة التي حملها الكثيرون من خلف المسلمين الجهلة، حيث فهموا من قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: 116] أن حفظ الأمم وبقائها يكون ببركة الأولياء والصالحين، فهم كالأوتاد في الأرض، وأنه لا تهلك الأمم ولا تنهار مادام فيها هؤلاء، فقال: "وقد فهم الوعاظ والفقهاء من خلفنا الجاهل ما كان يفهمه السلف الصالح من بركة الصالحين المتقدمين وحفظ الله الأمم بهم، فظنوا أن المراد بهم الذين يكثرون من الصيام والقيام وقراءة الأوراد والأحزاب"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 328/8

<sup>2</sup> تفسير المنار 328/8

<sup>3</sup> تفسير المنار 201/2

ثم أنكر هذا الفهم المزعوم وضرب مثلاً مما أصاب دراويش السودان أتباع المهدي من أفاعيل الإفرنج وتكليفهم بهم، وبين المعنى الصحيح للآية وما تحفظ به الأمم فقال: "كلا، إن من أصحاب الأوراد من يقوم ليله بورد من تشريع مبتدع هو به عاص لله -تعالى- لعبادته بغير ما شرعه، فكان ممن قال فيهم: ﴿لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]... وكذلك كان دراويش مهدي السودان، وأمثالهم من المسلمين الجاهلين لهداية القرآن، فنكل بهم الإفرنج بمساعدة الفاسقين من المسلمين واستولوا على بلادهم. وقد علمنا من أخبار هذا المهدي أنه كان على علم وبصيرة في صلاحه، ولكن قواده لم يكونوا بعده مثله، وصلاح دراويشه لا بصيرة فيه ولا علم. كلا إن المراد بالصالحين الذين يحفظ الله بهم الأمم هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]... إن الله لا يحفظ الأمم بذواتهم وبركة أجسادهم، ولا بعباداتهم الشخصية القاصر نفعها عليهم، بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وطاعة الأمة لهم. نعم إن الله لا يهلك الأمة كلها بعذاب الاستئصال مادام فيها جماعة من الصالحين، ولكنه يعذبها بذنوبها فيما عدا ذلك"<sup>1</sup>.

ثم بين الشيخ أن الأمور تجري بتدبير الله وحكمته وسننه التي أقام عليها العالم علويه وسفليه، وأن الغفلة عن سنن الله والاعتقاد بالفوز والفلاح لمجرد كوننا مسلمين لهو من الغفلة والتفريط. فذكر غفلة المسلمين عن سنن الله عند قوله عز وجل: تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: 7] ويبين أن الغافلين عن آيات الله هم الذين غفلوا عن سنن الله تعالى وحكمه في خلق الكون، وإن كانوا مسلمين إسما ومؤمنين ادعاءً فهم لا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف، واستفادة العلوم، ومعرفة سنن الله وآياته الكونية، ثم قال: "فأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين، إن كانوا يجهلون حقائق هذه الأمور، ويصرون على الفجور،

<sup>1</sup> تفسير المنار 202/12

اتكالا على شفاة أهل القبور، الذين يدعونهم مع الله، أو من دون الله لمهمات الأمور، وينبجون لهم النسائك، وينذرون لهم النذور، وهي عبادات لغير الله يخرجون بها من حظيرة الإيمان"<sup>1</sup>.

ثم يحمل الشيخ على الذين يبثون نزعات الشرك والاعتماد على الأموات وأهل القبور، فيسميهم بالدجالين الذين يشغلون الناس عن دينهم الصحيح وعن دنياهم الصالحة، ويلعبون بعقولهم ويبتزون أموالهم، فيقول: "فاهتدوا بكتاب الله الحكيم وبسننه في الأمم، واركوا وساوس الدجالين الذين يبثون فيكم نزعات الشرك فيصرفونكم عن قواكم العقلية والاجتماعية، وعن الاهتداء بكلام ربكم إلى الاتكال على الأموات، والاستمساك بحبل الخرافات.. واعلموا أن الله لم يظلم ولا يظلم أحدا فتبلا، فما زال ملككم، ولا ذهب عزكم، إلا بترك هداية ربكم، واتباع هؤلاء الدجالين منكم"<sup>2</sup>.

ويحذر الشيخ من معتقدات في النفع والضرر تصريف عن الاعتماد على الله والتوكل الصحيح عليه، فما يصنعه جهلة المسلمين من تعلق بالتمايم والتعاويد، وتعلق بأضرحة الصالحين أو أوراق المصحف وحبر حروفه، فيتحول هذا التعلق إلى تقديس هؤلاء الصالحين وعبادة القرآن بدلا من عبادة الله بالقرآن، مع الغفلة عن سننه وتعاليمه، فيقول: "اعتقاد أن آية كذا إذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى، وأن من حمل القرآن، لا يقربه جن ولا شيطان، وبارك له في كذا وكذا، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة أكثر مما هو معروف للخاصة، ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول: إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جدا ولكنها ويا للأسف لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها. أقول: ونحو هذا ما يعلق على الأطفال من التعاويد والتنجيس كالخرق والعظام والتمايم المشتمة على الطلسمات والكلمات الأعجمية، المنقولة عن بعض الأمم الوثنية، هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه -إذا جرينا على سنة القرآن- عبادة للقرآن لا عبادة لله به"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 359/9

<sup>2</sup> تفسير المنار 125/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 23/1

عندما يقول الشيخ: ومع صرف النظر عن صحة أو عدم صحة هذا الأمر، فيما يتعلق بالذين يستشفون بماء القرآن أو حمل صحفه، فإنه لا يريد الخوض في مسألة اختلف فيها وتعلق بها العامة أكثر من الخاصة، وهو لا ينكرها صراحة وإن كان كلامه فيه ما يشعر بعدم قبوله لهذه السلوكيات التي تجعل المسلمين يتعلقون بالحروف والكلمات بدلا من المعاني والدلالات، وتجعلهم يتعلقون بالمظاهر الخارجية بدلا من التعلق بروح القرآن وتعاليمه، ولذلك يتبع كلامه هذا بالحديث عن الذين يتخذون القرآن للتطريب والاهتزازات والترنحات الجسدية بدلا من التفاعل القلبي، والإدراك العقلي، فيقول: "الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخييم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب على أصول النغم. والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم، بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن"<sup>1</sup>، وهذا الأمر معروف مشهود في زماننا مع انتشار التسجيلات الصوتية وانتشارها عبر الوسائل الحديثة، وما نسمعه من صراخ وصيحات تعقب الترجيع والتطريب الذي يقوم به القارئ حسن الصوت، وكيف أن الكثيرين ممن يستمعون القرآن يستمعونه لحسن صوت القارئ، وهم لا يعملون بشيء من أوامره وتعاليمه.

وبهذا القدر من الشواهد يتبين أثر العقائد المنحرفة في الأمم وكيف تؤدي إلى ضعفها وتسهم في سقوطها، فإذا كانت العقيدة الصحيحة ومتانتها في النفوس من سنن وعوامل النهضة للأمم، فعلى العكس تماما تجد الشرك والكفر والإلحاد والأوهام والخرافات، من سنن وعوامل السقوط للأمم، وقد أجمل ذلك الشيخ في معرض حديثه عن قوله عزوجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] فقال: "إن للعقائد الدينية الصحيحة والخرافية آثارا في وحدة الأمة وتكافلها وقوة سلطانها أو ضعفه، ولا يظهر الفرق بينهما في الوجود إلا بوقوع التنازع بين أمتين مختلفتين فيها"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 23/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 34/10

وتماما كما هي آثار العقائد على الأمم تكون آثار الأخلاق، فإذا كانت الأخلاق الحميدة الصالحة من سنن النهوض والعلو للأمم فإن الأخلاق الفاسدة من سنن السقوط والانحطاط، وهذا ما سأحدث عنه في المبحث الآتي.

## المبحث الثاني: السنن في الفساد الأخلاقي وسقوط الأمم في تفسير المنار

تكون الأمة في أوج رفعتها وعلو نهضتها، ثم تبدأ تغشو فيها الأخلاق الفاسدة والسلوكيات المنحرفة، فتتخر فيها كما ينخر السوس في الخشب حتى تزيلها عن سامق مجدها، وتسقطها عن مستقر عرشها وعزها، وليس هذا بكشف خاص جاء به الشيخ في تفسيره المنار، بل تحدث عنه علماء الاجتماع ودارسو التاريخ في كتبهم وأبحاثهم، فقد تحدث ابن خلدون عن ذلك في مقدمته فحذر من مساوئ الأخلاق، وبين أهمية الآداب ومكارم الأخلاق للخاصة والعامة<sup>1</sup>، وضع الخرائطي كتابه (مساوئ الأخلاق ومذمومها)، ووضع ابن حزم كتابه (الأخلاق والسير)، وغير ذلك كثير مما وضع في بيان أثر انحراف والأخلاق وفسادها على الأمة، وما يميز الشيخ أنه جلا هذا الأمر كسنة من السنن التي وردت في القرآن الكريم، فتعرض لبيان هذه السنة خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم في العديد من المواضع، وقد استشهد بما قاله الدارسون من قبله، وقد اطع الشيخ على كتب غوستاف لوبون كواحد من أشهر علماء الاجتماع واستدل ببعض أقواله على إثبات هذه السنة فقال: "وإن للأخلاق الشخصية التي يتحقق بكثرة بعضها ما يسمى خلقا للأمة أو الشعب مثل ذلك في حكمها وسلطانها وفي ثروتها وعزتها أيضا، ويظهر ذلك في سيرة كل أمة ودولة ذات تاريخ معروف، ومن اطع على كتب (الدكتور غوستاف لوبون) الاجتماعي الكبير في علم الاجتماع يجد فيها شواهد كثيرة على هذه القواعد"<sup>2</sup>.

وفي هذا المبحث سأبين كيف أبرز الشيخ هذه السنة في سقوط الأمم وانحطاطها من خلال تفسيره

### المطلب الأول: ما أصاب بني إسرائيل بظلمهم وفسادهم وسوء أخلاقهم

عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحُرُوفٍ

<sup>1</sup> ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 378/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 33/10

الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيَتْهُمْ هَذَا فَخَذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ  
فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ [المائدة: 41] تحدث الشيخ عن هذه الآية التي جاءت في سياق الحديث عن بني

إسرائيل وما أصابهم من خزي وهوان، فذكر سنة الله في عدم تطهير قلوب الذين كفروا من بني إسرائيل،  
وبين أن السر في ذلك يرجع إلى ما فشى فيهم من الأخلاق السيئة والطبائع الفاسدة من مكر وخديعة وكيد  
وكذب واتباع للشهوات وطاعة للأهواء وغيرها، ولذلك لم يطهر الله قلوبهم، فقد بلغت الفتنة مبلغا عظيما في  
أخلاقهم فأفسدتها، وإرادة الله في تطهير القلوب متعلقة بما اقتضته سنته العادلة وحكمته البالغة، فسنته تعالى  
أن القلوب إذا تلبست بالباطل والشر، وتعودت المكر والخديعة والكيد وجعلت الدين شبكة للشهوات والأهواء،  
وأصبح الكذب والنفاق من صفاتها واعتادت العصبية والشقاق والخلاف، حتى يصير ذلك ملكات ثابتة  
متأصلة في أخلاقها المتوارثة، فعندها تحيق بها خطيئتها وتلفها ظلمتها فتطبق عليها، وعندها لا تجد للنور  
منفذاً إليها، وهذا ما أصاب اليهود إلى أن قال الشيخ عنهم وعن ونفوسهم: "فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار  
في توفيق الأقدار للأقدار، وهؤلاء الزعماء وأعاونهم من اليهود قد صبوا في قلوب تلك الصفات الرديئة صبا،  
فلا تقبل طبائعهم سواها قطعا"<sup>1</sup>.

وبين الشيخ أن قدر الله تعالى يجري مع حكمته وسنته في العباد التي لا تبديل لها، وإن تطهير القلوب مع  
فساد الطبائع وانحراف الأخلاق لهو أمر مخالف لسنته تعالى وإبطال لقدره المقدر، فقال: "فهذا هو سبب  
عدم تعلق إرادة الله تعالى بأن يطهر قلوبهم مما طبع عليها، لأن إرادته تطهير قلوبهم وهم متصرفون بما  
ذكرنا، إبطال للقدر، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السنن، وكان أمر الله قدرا مقدورا، لا أمرا أنفا، ولن تجد  
لسنته تبديلا"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 323/6

<sup>2</sup> تفسير المنار 323/6

يتحدث الشيخ عن عواقب هذا الفساد وفق ما جاء في الآية: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 41]، فبين أن الخزي في الدنيا هو ما يلحق بهم من خيبة وذل وفضيحة وهوان وذلك عندما يظهر كذبهم ويكشف للناس ويزهق باطلهم، وبين أن هذا الوعيد وهذه السنة ليست خاصة باليهود وإنما هي عامة في كل من عمل عملهم وأفسد إفسادهم، فقال: "وقد صدق وعيد الله تعالى بهذا الخزي على يهود الحجاز كلهم، كما يصدق في كل زمان على من يفسدون كفسادهم، فيفشو فيهم الكذب والنفاق، ويغلب عليهم فساد الأخلاق، ولا يغني عنهم الانتساب إلى نبي لم يتبعوه، ولا تنفعهم دعوى الإيمان بكتاب لم يقيموه"<sup>1</sup>.

ثم حذر الشيخ المسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود فأصابهم ما أصابهم، فلم ينفعهم اعتزاز بالذات وغرور بالنسب، ولم يغن عنهم انتسابهم لنبي أو قوم، فقال: "فما بال الفاسدين المفسدين من المسلمين... لا يعتبرون بما كان من خزي اليهود بخروجهم عن سنة أنبيائهم، وبما حل من وعيد الله بهم... أفلا يقيمون القرآن بالاعتبار بنذره، والحذر مما حذر منه؟"<sup>2</sup>.

وفي ذات السياق والحديث عن فساد وإفساد بني إسرائيل يتوقف الشيخ عند قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ آتَمَائِرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَسِقُونَ﴾ [المائدة: 49] ويبين أن الإعراض عن حكم الله وشريعته، وعدم اتباع ما جاء به الرسل إنما هو بسبب سوء الأخلاق وفسادها حيث وقعوا في الذنوب والمعاصي، وإن بعض هذه الذنوب يوبقهم ويهلكهم، فكيف بجميعها، وإن هذا الإعراض والتولي عن حكم الله هو من مقدمات انحلال روابط الاجتماع، وإن اضطرابهم في دينهم، واستتقالهم لأحكام التوراة، وتحاكمهم إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- طمعا في أن يتبع أهواءهم، ورفضهم لحكمه بالحق، وسعيهم

<sup>1</sup> تفسير المنار 323/6

<sup>2</sup> تفسير المنار 324/6

في مخادعته وفتنته عن بعض ما أنزله الله إليه، وكل هذه مقدمات من الفساد الأخلاقي وانحلال الروابط الاجتماعية ولا بد أن ينتج عن ذلك وقوع العذاب بهم<sup>1</sup>.

ثم إن الشيخ عند تفسير الآية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188] وهي تتحدث عن بني إسرائيل -بحسب السياق والأثر<sup>2</sup>- عندما أصابهم الفرح والبطر والغرور بما أوتوا من علم التوراة، قال: "فإن فساد أخلاقهم، وفرحهم، وبطرتهم، وصغارهم الذي زين لهم حب الحمد الكاذب بالباطل، جعل أرواحهم مظلمة دنسة، فهي التي تهبط بهم إلى الهاوية حيث يلاقون ذلك العذاب المؤلم"<sup>3</sup>.

### المطلب الثاني: ما أصاب المسلمين بسوء أخلاقهم، فلم تحاييهم سنن الله

لقد أصاب المسلمين ما أصابهم من ضعف وتراجع بسبب سوء أخلاقهم وما وقعوا فيه من المعاصي والذنوب، فقد جرت عليهم سنة الله تماماً كما جرت على غيرهم من الأمم، من غير محاباة لهم، بل إن الفساد الأخلاقي أشد أثراً وأسوء عاقبة في المسلمين منه في غيرها من الأمم، ذلك أن الأخلاق في الإسلام ركن أصيل من أركان الدين الثلاثة التي بينها العلماء، وهي العقائد والعبادات والفضائل، فلا دين بغير أخلاق، وإذا انهدمت الأخلاق انهدم من الدين ركن ركين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>4</sup>، وليس هناك دين أو أمة أولت الأخلاق ما أولها دين الإسلام، والآيات والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن نحصيها في هذه العجالة في هذا المقام، وعليه فإن الفساد الأخلاقي إذا وقع في أمة المسلمين فإنه يفعل فعله فيها أكثر مما يفعله في غيرها من الأمم.

<sup>1</sup> تفسير المنار 348/6

<sup>2</sup> روى البخاري عن ابن أبي مليكة، أن علقمة بن وقاص أخبره، أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمى بما لم يفعل معذبا، لنعدن أجمعون، فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه «إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكنتموه إياه، وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألتهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم»، ثم قرأ ابن عباس: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب { آل عمران: 187} كذلك حتى قوله: {يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا} آل عمران: 188»، ينظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن باب (لا يحسبن الذين يفرحون بما أوتوا) ج 6 ص 40 ح 4568

<sup>3</sup> تفسير لمنار 241/4

<sup>4</sup> مسند الزار، ح 8949، 364/15. أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة بلفظ "إنما بعثت لأتمم صالحى الأخلاق" ص 143، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، 513/14 قال المحقق: صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث

ولقد بين الشيخ ذلك في تفسيره، وأكد على أن الصلاة والزكاة وسائر العبادات جاءت لتنتهي عن الأخلاق السيئة، فعندما ترك المسلمون المحافظة على الصلاة وبخلوا في أداء الزكاة ساءت أخلاقهم وفسدت طباعهم وأصابهم ما أصابهم، فعند تفسيره قول الله عز وجل ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238] بين أن أعظم الشعائر الإسلامية إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فالصلاة أساس صلاح النفس، والزكاة أساس صلاح المجتمع، وهدمهما هدم للإسلام وهدم الدولة، ثم بيّن أن التهاون بالصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تطهر النفس والمجتمع وتدعو إلى التكافل والتعاون بين الناس كان له [الأثر البالغ على المدن والقرى في مصر التي يعيش فيها، حيث وانتشرت المنكرات والفواحش، وانتشرت الحانات والمواخير والمراقص ومحلات القمار، وغصت بالناس خاصتهم وعامتهم، ثم عمم الحديث عما وقع من فساد وانحراف خلقي، فقال: "وغير ذلك من فساد الأخلاق وقبح الفعال في الأفراد، وأكبر من ذلك انحلال الروابط المليّة، بل تقطع أكثرها، حتى كادت الأمة تخرج عن كونها أمة حقيقية متكافلة بالمصالح الاجتماعية والتعاون على الأعمال المشتركة التي تحفظ وحدتها... فالأمة الآن في دور الانسلاخ عما كانت به أمة بسيرة سلفها الصالحين، فتكبتها هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وَحَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: 59]، وهذا الانسلاخ هو الغي الذي توعدهم الله تعالى به في الدنيا"<sup>1</sup>.

ثم بين الشيخ أن أثر فساد الأخلاق في الأمة الإسلامية يربو على أثره في الأمم الأخرى، وذلك أن أمة الإسلام تعدّ الأخلاق جزءاً من الدين والشريعة، والفساد فيها إخلال في الدين والشرع، فمن وقع في هذه الآفة كان غير مبال بجرمة الشرع، وبإصراره على المعصية يكون تأثيرها على الذات قويا فلا يقتصر على البدن والجوارح، بل يمتد إلى الروح حتى تُظلم وتفسد، فقال: "فالمعصية لا تفسد الروح إلا إذا كان فاعلها غير مبال بجرمة الشرع، ولا يكون تأثيرها الذاتي قويا إلا بالإسراف فيها والإصرار عليها"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 349/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 62/7

ثم أعطى مثالا على هذا الفرق في التأثير، فقال: "قد سألني بعض الباحثين في علم الأخلاق وفلسفة الاجتماع من المصريين عن السبب في سوء تأثير الزنا في إفساد أخلاق فساق المصريين، وإذلال أنفسهم وإضعاف بأسهم، وعدم تأثيره في اليابانيين مثل هذا التأثير، فأجبت على الفور: إن اليابانيين لا يدينون الله بحرمة الزنا كالمصريين، فمعظم ضرره فيهم بدني، وأقله اجتماعي، ولكن ليس له ضرر روحي فيهم، وأما المصريون فمعظم ضرره فيهم روحي، لأنهم يقدمون على شيء يعتقدون دينا وعرفا بقبحه وفحشه، فهم بذلك يوطنون أنفسهم على دنينة الفحش والاتصاف بالقبح، فلذلك كان من أسباب المهانة والفساد فيهم فأعجب بالجواب وأذعن له"<sup>1</sup>.

ثم حذر الشيخ الأمة من أن تحيد عن وسطيتها التي جعلها الله عليها، فإذا كانت بعض الأمم قد جرفها الفساد الخلقي إلى اللذات الجسدية والغرائز البهيمية حتى خسرت الدنيا والآخرة، وأمم أخرى تركت الدنيا اعتقادا منهم أن الآخرة لا تتال إلا بإهمالها وترك منافعها ومصالحها، فإن الإسلام قد حذر من عواقب الأفتين، فلا غلو في الدين ولا انغماس في شهوات الدنيا، فقال: "فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أمة وسطا، وأناسي كاملين، لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تتال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحها بالمرة ففسدوا وخسروا الآخرة معها، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى اللذات الجسدية كالبهائم ففسدت أخلاقهم وأظلمت أرواحهم، وكانوا بلاء على الناس وعلى أنفسهم ففسدوا الآخرة والدنيا معها"<sup>2</sup>. ثم ذكر بقوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ ﴿٢٠١﴾ [البقرة: 201] وهو الدعاء الذي يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

ولقد عاب الشيخ المقلدين للغرب من أبناء المسلمين دعاء التقليد والتبعية العمياء، وبين كيف يبررون الفساد وسوء الأخلاق بكلام منمق زائف، وبادعاءات باطلة خبيثة، فصاروا يجادلون في الأخلاق الكريمة ويشككون

<sup>1</sup> تفسير المنار 62/7

<sup>2</sup> تفسير المنار 270/2

في حسنها وكونها من الفضائل التي يصلح بها الأفراد وترتقي بها الأمم، فالحياء عندهم ضعف في النفس وكذلك الرحمة، بل أصبحوا يشككون ويمارون في فضيلة العفة، ويستبدلون ذلك بالفساد الذي يعدونه تحضرا وتقدما، ويسمون هذا الفساد عندهم تجديدا للأمة<sup>1</sup>.

وقد ردّ الشيخ على مزاعم هؤلاء المفسدين في عدم مضرّة الإسراف في الشهوات للبدن والنفس، وبيّن أن هذه مزاعم باطلة يردّها وينفيها الأطباء والحكماء حيث أجمعوا على أثر إسراف المرء في الشهوات على بنيته الجسدية وما يورثه من أمراض وضعف، وأنه يفسد الآداب والأخلاق، وطبيعة الإنسان أنه يكثر المرء والجدل حتى في ما هو من الحسيات ومن الضروريات، إلى أن قال: "وإنما الكلام المقبول في كل موضوع لعلماء أهله، ألم تر أنهم يمارون في مضار شرب الخمر، ويدعون نفعها، والأطباء المحققون يثبتون خلاف ذلك"<sup>2</sup>.

وعند تفسير الشيخ قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100] أجمل كلامه في بيان المراد من الآية بأنه ينبغي لمن يستخلفهم الله في الأرض، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك والمُلك أن يتقوا الله، ولا يكونوا من المفسدين الظالمين، ولا من المترفين الفاسقين، وأن يعلموا أنه من المحتم عقاب الأمم على السيئات، وقد خلت من قبلهم المثالات، إلى أن قال: "فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار، فلا هواده فيه ولا ظلم ولا محاباة، والناس في ذلك فريقان: فريق يصاب بذنبه فيتعظ ويتوب إلى ربه، وفريق يصر عليه حتى يطبع على قلبه"<sup>3</sup>.

ثم وضع الشيخ ذلك أكثر في ملخصه لسورة الأعراف وبيّن أن سنن الله واحدة لا تتبدل، وعلى الأمم الوارثة للأرض من بعد أهلها الأصليين أن تعلم أن ما جرى على الأصلاء نتيجة لظلمهم وجهلهم والفساد الذي عمهم والعمى الذي أصاب قلوبهم، سيجري عليهم وفق سنته الماضية في عبادته إذا وقعوا بما وقع به من

<sup>1</sup> تفسير المنار 35/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 36/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 27/9

قبلهم، ثم أعطى مثالا من الأمم التي فقته هذه السنة واتعظت بها فحذرت من أن تنطبق عليها فيصيبها ما أصاب الذين من قبلها، فذكر عن الذين احتلوا وورثوا بلاد المسلمين أنهم اتعظوا بما في الآية من معان، فقد سعوا لأن يكون ظلمهم أقل من ظلم الذين ضيعوا البلاد من حكامها الأصليين، على الرغم من كثرة الذنوب التي وقعوا فيها وفساد الأخلاق والعقائد وسلب المال، إلى أن قال: "وعقولهم تبحث دائما في الأسباب التي يخشى أن تكون سببا لسلبها منهم؛ لأجل اتقائها، وآذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر يتعلق بأمرها وأمر أهلها وشئون الطامعين فيها حذرا منهم أن يسلبوهم إياها"<sup>1</sup>.

ثم تابع كلامه منبها ومحذرا المسلمين أن يصيبهم ما أصاب الأمم التي أهلكها الله بذنوبها فقال: "ينبغي للمسلمين، وهذا كتابهم من عند الله عز وجل، أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم، وزال ملكهم، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم"<sup>2</sup>.

وقد نادى الشيخ أولياء الخلافة الإسلامية في زمانه داعيا إياهم إلى التمسك بفضائل الإسلام وأخلاقه العلية، وعدم الاغترار بمدنية الغرب وعلومه الخالية من الفضائل والأخلاق، فالإسلام أعظم قوة معنوية في الأرض، وإنه هو الذي يمكن أن يحيي مدينة الشرق، وينقذ مدينة الغرب، فإن المدينة لا تبقى إلا بالفضيلة، والفضيلة لا تتحقق إلا بالدين، ولا يوجد دين يتفق مع العلم والمدنية إلا الإسلام، ثم قال: "واشتدت حاجة البشر إلى إصلاح روعي مدني ثابت الأركان، يزول به استعباد الأقوياء للضعفاء، واستذلال الأغنياء للفقراء"<sup>3</sup>.

### المطلب الثالث: أثر فساد الأخلاق في الأمم عامة

فساد الأخلاق يصيب الأمم عامة ويؤدي إلى تحللها وانهارها، وقد تحدث الشيخ عن ذلك ونقل الكثير من الشواهد عن علماء الاجتماع والمؤرخين، وجعل من هذه الشواهد دليلا على ما جاء في القرآن من بيان هذه السنة الإلهية في إهلاك الأمم وسقوطها، فقد تحدث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ

<sup>1</sup> تفسير المنار 9 / 483

<sup>2</sup> تفسير المنار 9 / 483

<sup>3</sup> تفسير المنار 9 / 21

قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَبْغَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ [هود: 116-117] فبين أن

هلاك الأمم يكون بعد خلوها من الصلاح والمصلحين، وانتشار الفساد والمفسدين، وبين أن الأكثرين إذا اتبعوا شهواتهم ولذاتهم التي أترفوا فيها وظلموا أنفسهم وظلموا الناس، قوض الله ملكهم بما وقعوا فيه من الظلم والبطر والإفساد في الأرض، وأن البقية الصالحة إذا قلت قرب انتقام الله، فقال: "وهؤلاء البقية لا تخلو منهم أمة فهم حجة الله على الأقسام، ومتى قلوا في أمة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها"<sup>1</sup>.

ثم راح ينقل ما قاله حكماء أوروبا في هذا الباب، فذكر عن الفيلسوف هربرت سبنسر الإنجليزي<sup>2</sup> كلاما تحدث به إلى الإمام محمد عبده جاء فيه أن الحق قد غاب ومحي من عقول أهل أوروبا، واستحوذت عليها الأفكار المادية فذهبت الفضيلة، وظهرت فيها الأفكار المادية فأفسدت الأخلاق، وأضعفت الفضيلة، ثم تنبأ بمستقبلها فقال: "وسترى هذه الأمم يختبئ بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طامة<sup>3</sup> ليتبين أيها الأقوى، فيكون سلطان العالم"<sup>4</sup>.

ثم يتحدث الشيخ مرة أخرى عما سمعه بنفسه من عقلاء أوروبا من تحذيرات وتخوف مما أصاب بلادهم من فساد الأخلاق وانحراف عن الفضائل وزيف عن طريق الرشاد والصلاح، فبعد أن نقل ما قاله سبنسر للإمام، ذكر عن نفسه أنه ذاك في هذا المعنى سياسيا أوروبا في جنيف من بلاد سويسرة، فوجده يعتقد اعتقاد سبنسر، ثم قال عنه: "أخبرني أن كثيرا من عقلاء أوربة يعتقدون أن فساد الأخلاق بالترف الذي أهلك الأمم الكبرى كالليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك أن يقضي على أوربة، وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الأخيرة<sup>5</sup>، وما هي ببعيدة، ونصح لنا بألا نقلد أوربة في مدنيتهما المادية، وأن نحافظ على آداب ديننا

<sup>1</sup> تفسير المنار 20/9

<sup>2</sup> ولد عام 1820م توفي 1903م شغف منذ حداثة بالعلوم الطبيعية والتاريخ، وبالمناقشات العلمية والسياسية والدينية، كان مهندس سكك حديد بضع سنوات، وشغل بمسألة التطور، كتب في مبادئ البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق وكتب في التربية وتصنيف العلوم وغيرها، ينظر كرم يوسف بطرس (ت 1959 م)، تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية، ط 5، ص 357.

<sup>3</sup> وقد تحقق ذلك فعلا بالحرب العالمية الأولى التي لم تتأخر كثيرا عن الوقت الذي توقعها به هذه الفيلسوف.

<sup>4</sup> تفسير المنار 20/9

<sup>5</sup> وفعلا كانت الحرب العالمية الثانية التي أهلكت الحرث والنسل.

وفضائله، وأن نجمع كلمتنا، ونجعل الزعامة فينا لأهل الرأي والفضيلة منا، ونترصد الدوائر بالأوربيين المعتدين علينا"<sup>1</sup>.

ثم أكمل الشيخ بكلام جميل كله حكمة وعقلانية، فتحدث عن طبيعة الإنسان وكونه حيوان إنسي وحشي بجسده، وملك روحاني بعقله وروحه، وأنه إنما يكمل بكمال العقل والروح، ويعتدل بالتوازن بينهما، ولا تكمل إنسانية الإنسان إلا بهداية الإسلام الجامع لكل ما يحتاج إليه البشر، ولذلك قدم نصيحته لزعماء الترك وهم بقية الخلافة الإسلامية أن يتوقفوا عن انبهارهم بمدنية الغرب وأن يعودوا إلى رشدكم بتحكيم تعاليم الإسلام، فقال: "ولهذا نصحن لزعماء الترك المفتونين بمدينة الإفرنج المادية لجهلهم بما يفتك بها من دود الفساد بأن يقيموا حكم الإسلام وإصلاحه الذي يكفل لهم القوة المادية والعمران، ويقيهم غوائل هذا الفساد"<sup>2</sup>.

وأكمل الشيخ في النقل عن الغربيين، فنقل عن عالم الاجتماع الشهير غوستاف لوبون كلاما دقيقا عن أثر الأخلاق في رقي الأمم وانحطاطها وفي حالها قوة وضعفا، وكان هذا العالم قد ذكر في كتبه الكثير من قواعد وسنن الاجتماع والعمران، واستدل على كلامه بكلام غيره من الباحثين والفلاسفة، وأورد شواهد ومقارنات بين الأمم التي كانت عندها بقية من أخلاق مع الأمم التي فسدت أخلاقيا وانهارت اجتماعيا وكانت أكثر مقارناته بين الإنكليز والفرنسيين، فكان مما قاله: "إن فساد الأخلاق الذي أهلك الأمم التاريخية الشهيرة كالفرس واليونان والرومان والعرب قد دب إلى الإفرنج، وكان بدء فتكه باللاتين ولا سيما الفرنسيين منهم، فقل نسلهم، وصاروا يرجعون القهقري أمام الإنكليز وإخوانهم الأميركيين في كل شيء، دع الألمان الذين فاقوا الفريقين"<sup>3</sup>.

ثم عقب الشيخ على ما قاله غوستاف لوبون مؤكدا على هذه السنة الواضحة في سقوط الأمم وانهارها ومتعجبا من غفلة المسلمين عنها وبخاصة المتعلمين والمتقنين منهم، فكيف يغفل أكثر المتعلمين عن هذه المسألة الواضحة وبخاصة في هذا العصر الذي اتسع فيه علم الاجتماع، وألفت فيه الكثير من المصنفات،

<sup>1</sup> تفسير المنار 21/9

<sup>2</sup> تفسير المنار 21/9

<sup>3</sup> تفسير المنار 34/10

ونشرت في الصحف العديد من المقالات والكتابات في الأخلاق وأثرها في الأمم والأفراد، إلى أن قال: "وإننا لنرى الألوفا في بلادنا يتمثلون بقول أحمد شوقي بك أشهر شعراء العصر: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا"<sup>1</sup>

يتمثلون به معجبين؛ لأنهم يفهمون مدلول ألفاظه، وشرف موضوعه، ولكن أكثرهم لا يفقهون حكمته التفصيلية العملية، وماذا يكون من تأثير فساد كل خلق من أخلاق الفضائل في أعمال الأفراد، ثم في ضعف الأمة وانحلالها"<sup>2</sup>.

ثم أكمل الشيخ حديثه فبين حال المسلمين مع غيرهم في العصر الأول فذكر ما كان عليه المسلمون في العصور الأولى من التمسك بعري الحق وإقامة موازين العدل، من دون محاباة أو تمييز بين مؤمن وكافر وبين قريب وبعيد وذلك تطبيقاً لنصوص القرآن الكريم، وذكر ما وقعت فيه الأمم من فساد في الأخلاق أدى إلى ضعفها وسقوطها فقال: "ما كان عليه جميع الأمم التي فتحوا بلادها، وأقاموا شريعتهم فيها من ضعف وازع الدين وفساد الأخلاق والآداب، وقد قرر ذلك مؤرخو الإفرنج وغيرهم وجعلوه أول الأسباب الاجتماعية لسرعة الفتح الإسلامي في الخاقين"<sup>3</sup>.

وهذا كلام في غاية الأهمية لما فيه من الدلالة الواضحة على فعل سنة الله في سقوط الأمم عندما تفسد أخلاقها وتسوء سيرتها، وقد استشعر الصحابي الجليل أبو الدرداء هذه السنة الماضية في الأمم حين فتح المسلمون قبرص: "فقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا سبايا كثيرة، وغنموا ما لا جزيلاً جيداً، ولما جاء بالأسارى جعل أبو الدرداء يبكي، فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة، وقال ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره؟"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الموسوعة الشوقية، الأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقي جمع وترتيب، قصيدة صحت واستركتي شيمتي الأدب، ص 371

<sup>2</sup> تفسير المنار 34/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 198/7

<sup>4</sup> ابن كثير، البداية والنهاية، 172/7.

وهكذا يظهر بوضوح مدى اهتمام الشيخ بالجانب الأخلاقي من السنن الإلهية، فإذا كنت قد بينت في الفصل السابق أثر تهذيب الأخلاق وتركيتها في نهضة الأمم ورفيها، فقد ظهر لنا هنا أثر فساد الأخلاق وتدسيتها في سقوط الأمم وانحطاطها، ولا يمكن لأمة فسدت تربيتها الأخلاقية ونشأ فيها جيل من العابثين المترفين الفاسدين أن يصلح حالها، وإنما يبدأ الفساد في منابت الأطفال عند الآباء والأمهات والتربية منذ الصغر، وقد أحسن القول السيد فليكس فارس مترجم كتاب (هكذا تكلم زرادشت) للفيلسوف الألماني فردريك نيتشة حيث رد في تمهيده للكتاب على المؤلف الذي دعا إلى الإنسان المتفوق وبشّر به ودعا إلى التخلص من الضعفاء، فقال: "لا صلاح لأمة فسدت منابت أطفالها، وهذه عبر التاريخ ماثلة لعيان من يريد أن يرى، أما كانت كل الأمم التي اندثرت واستعبدت تمر أولاً في مرحلة تدني الأخلاق وانطلاق الشهوات عابثة بأشرف ما خلق الله في الإنسان"<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> نيتشة فردريك، هكذا تكلم زرادشت، ص17

## المبحث الثالث: السنن في الظلم والاستبداد السياسي وسقوط الأمم في تفسير المنار

لم تأت مقولة ابن خلدون في مقدمته "الظلم مؤذن بخراب العمران"<sup>1</sup> من بنات أفكاره أو أنه اهتدى إليها بعد طول بحث وعناء، بل هي سنة في سقوط الأمم تحدث عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكَ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: 13] ﴿وَتِلْكَ الْأُمَّةَ نَاهَمَ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: 59] وهي بيّنة ظاهرة في تاريخ الأمم وفي دالتها البيانية صعودا وهبوطا، وقد ساق ابن خلدون في أخبار الأمم رواية عن المسعودي حكاها في أخبار دولة الفرس عن الموبدان وهو من الحكماء عندهم وقد عرض بمثال للملك لينكر ما كان عليه من الظلم والغفلة، وليبين له عاقبة الظلم على الدولة، وكان المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: "إن بوما ذكرا يروم نكاح بوم أنثى وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعك ألف قرية وهذا أسهل مرام". فتنبّه الملك من غفلته وخلا بالموبدان وسأله عن مراده فقال له: "أيها الملك إن الملك لا يتمّ عزّه إلا بالشرّعة والقيام لله بطاعته... ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرّب وجعل له قيما وهو الملك، وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها"<sup>2</sup> ولا زال في وعظه للملك حتى تنبه من غفلته وتراجع عن ظلمه.

وقد تحدث الحكماء والمؤرخون سابقا ولاحقا عن أثر الظلم والاستبداد السياسي في سقوط الأمم وانهارها، وكان الشيخ محمد رشيد رضا من الذين بينوا ذلك كسنة من سنن سقوط الأمم وانهارها، وإذا كنت قد تحدثت في الفصل السابق عن العدل كسنة إلهية من السنن السياسية في نهضة الأمم، فإنني سأبين هنا كيف تعرض الشيخ في تفسيره المنار لبيان وتوضيح أثر الظلم والاستبداد والعلو والطغيان في ضعف الأمم وانحطاطها، وأن ذلك من أخطر السنن الإلهية التي تحدث عنها القرآن الكريم.

<sup>1</sup> ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، 353/1، لقد عنون ابن خلدون بهذه المقولة فصله الثالث والأربعين من الباب الثالث في مقدمته.

<sup>2</sup> ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر 354/1

## المطلب الأول: الظلم ذل للشعوب وفساد للعمران

لقد سار الشيخ على طريق من سبقه في بيان عاقبة الظلم وكيف كان سببا رئيسيا في زوال الأمم واندثارها، وكيف يؤدي إلى إذلال الرعية وفساد العمران، وذهب الى أن العقاب على الظلم أثر لازم له لزوم المعلول للعلل، والمُسبَّب للسبب، ثم قال: "ومن أثره وعاقبته في الدنيا أنه مهلك الأمم ومخرب العمران"<sup>1</sup>، وإذا أردنا أن نعرف لماذا أسند القرآن إلى الظلم هذا الدور في خراب القرى والأقوام، ولماذا جعل عقاب الأمم وهلاكها أثرا طبيعيا لظلمها فما علينا إلا الرجوع "إلى سنن الله تعالى في العمران وطبائع الاجتماع البشري التي تثبتها وقائع التاريخ، فهي التي تفسر لنا أن البغي - وهو من أخص ضروب الظلم للناس - يرجع على فاعله، ذلك بأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الأفراد، وإيقاد نيران الفتن والثورات في الأقوام"<sup>2</sup>.

وبين الشيخ أن الظلم إذا فشى وانتشر في الأمم كان هلاكها وفسادها بسببه ظاهرا وباطنا، أو سوريا ومعنويا وذلك واضح مشاهد من خلال حوادث التاريخ وأخبار وعواقب الظالمين، فقال: "فقرأنا وشاهدنا أن البلاد التي يفسد فيها الظلم تهلك زراعتها، وتتبعها ماشيتها، وتقل ذريتها، وهذا هو الفساد والهلاك الصوريان، ويفشو فيها الجهل، وتفسد الأخلاق، وتسوء الأعمال حتى لا يثق الأخ بأخيه، ولا يثق الابن بأبيه فيكون بأس الأمة بينها شديدا، ولكنها تذل وتخضع للمستعبدين لها. وهذا هو الفساد والهلاك المعنويان، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعبء، ما فيه ذكرى ومزدجر"<sup>3</sup>.

ثم ذهب الشيخ إلى التفصيل في بيان عواقب الظلم فعند تفسيره قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ

مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا

خَزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ [البقرة: 114]، تحدث الشيخ عما أعده الله تعالى للظالمين من خزي

في الدنيا قبل الآخرة، وأعظم هذا الخزي فساد العمران المفضي إلى الذل والهوان، خاصة إذا كان ظلم الحاكم

<sup>1</sup> تفسير المنار 222/11

<sup>2</sup> تفسير المنار 281/11

<sup>3</sup> تفسير المنار 199/2

واستبداده متعديا إلى المساجد والمقدسات فينتهك حرمتها ويمنع حرية العبادة فيها، فيقول: "أما خزّي الدنيا فهو ما يُعقِبُه الظلم من فساد العمران، المفضي إلى الذل والهوان.. إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولا في حكمه، والفتاح الظالم غير أمين في فتحه، وإذا أردت تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين"<sup>1</sup>.

ولقد اطلعت على كلام الشيخ في هذه السنة العظيمة في الوقت الذي تصدر فيه سلطات الاحتلال الإسرائيلي قرارها في تقييد دخول المصلين إلى المسجد الأقصى المبارك إلى حد المنع الكلي في شهر رمضان المبارك، وهذا نوع واحد من أنواع الظلم الكثيرة التي يمارسها الاحتلال، مما يؤذن بقرب زواله واندثاره.

وقد شرح الشيخ في موضع آخر عن هذه السنة الإلهية المتمثلة في أن الظلم والاستبداد موصل إلى الذل والهلاك، فذكر كيف يسري الفساد إلى أخلاق الشعوب ويتسلل الذل إلى نفوسها، فيصبح الخنوع والهوان سجية راسخة في طباع الشعوب التي يطول فيها أمد الظلم حتى تنتشره في كيانها وتعتاد عليه في طباعها، وبالتالي لا تقوى على مواجهة أعداء أو دفع معتدين، وقد تعرض الشيخ لذلك عند حديثه عما أصاب بني إسرائيل من ضعف وجبن وخور حين قالوا لموسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ

أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَلِيلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ [المائدة: 24-25]، فقال: "إن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتساس بالظلم

والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتألف الخضوع،

وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة حتى تكون كالغرائز

الفطرية، والطباع الخلقية"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 1/ 357

<sup>2</sup> تفسير المنار 6/ 278

بل إن هذه الشعوب المقهورة التي اعتادت الظلم إذا حاولت إخراجها من واقعها المهين، ورفع نير ما اعتادته من بيئتها الدنية عن رقبتها فإنها تأبى ذلك، وتتقلت منك إصرارا على البقاء فيما اعتادت عليه، وقد ساق الشيخ مثلا لاستمراء الشعوب ما اعتادت عليه من ذل وهوان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَّاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَفْعَنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَعْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا أَخَذُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا"<sup>1</sup>.

وخير مثال ضربه الشيخ لما يصيب الشعوب من خنوع للظلم واعتياد لبيئته، ما أصاب بني إسرائيل بسبب ظلم الفراعنة الذي طال فيهم حتى أفسد فطرتهم حتى طبعت بطابع المهانة والذل، فرغم ما شاهدوه من آيات دالة على وحدانية الله وقدرته وعلى صدق نبيهم موسى عليه السلام وعلى صدق ما جاء به، كانوا عندما يصيبهم الجوع والنصب أو يكفون أمرا شاقا يتململون من موسى ويتطيرون به، ويتذكرون مصر ويتحرك فيهم حنين العودة إليها، وقد علم الله أن هذه النفوس المهينة التي تعودت إكبار الظالمين، والرزوح تحت نير ظلمهم لا يمكنها ولا تطيعهم على دخول أرض الجبارين، ولا بد أن ينشأ في نور الآيات الإلهية وعدالة الشريعة وحرية البادية جيل جديد، وبذلك جرت سنته العادلة في بني إسرائيل وسائر الأمم والشعوب، وبعد أن بين ما أصاب بني إسرائيل قال: "فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله تعالى لنا، ونعلم أن إصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد، إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها"<sup>2</sup>.

وعند قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 116-117] أطل الشيخ الحديث في بيان عاقبة الظلم وكيف جرت سنة الله تعالى

<sup>1</sup> صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ح 6483، 102/8 صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقتة صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في

تحذيرهم مما يضرهم، ح 2284، 1789/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 6/ 279

في إهلاك المتلبسين به وإقصائهم عن مسرح الأحداث ومصاف الأمم العزيزة، ومن المعلوم أن هذه الآيات جاءت في آخر سورة هود تلخيصاً لها، وتعقيباً على ما أصاب الأمم والأقوام الذين ورد ذكر قصصهم في السورة، فيقول الشيخ في معنى الآية الأولى: "فهلا كان -أي وجد- من أولئك الأقوام الذين أهلكتناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض، جماعة أصحاب بقية من النهي والرأي والصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض، وهو الظلم... فيحول نهيمهم إياهم دون هلاكهم، فإن من سنتنا ألا نهلك قوماً إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم... والظلم والإجرام يظهر في الكبراء والرؤساء، ويسري بالتقليد في الدهماء، فيكون سبب الهلاك باستئصال، أو فقد الاستقلال"<sup>1</sup>.

ثم بين الشيخ أن هذه السنة من سنن الله تعالى قد جرت على الأمم قديمها، وتجري على حديثها، فشعوب الغرب لا تغني عنهم معرفتهم بهذا السنة، ومحاولتهم انتقائها، فحكماؤهم الذين ينهون عن الفساد في الأرض، يصرحون بأنهم سيهلكون كما هلك الذين من قبلهم، ولن تغني عنهم قوتهم شيئاً.

ثم فسر الظلم في الآية الثانية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ على ثلاثة أوجه جميعها تبين أن من سنة الله إهلاك الظالمين<sup>2</sup>.

الأول: أنه ليس من شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الأمم بظلم منه في حال كون أهلها مصلحين في الأرض مجتنبين للفساد والظلم، وإنما يكون هلاكهم بظلمهم وإفسادهم فيها.

الثاني: وهو أن الظلم هنا بمعنى الشرك، وليس من سنة الله أن يهلك القرى لمجرد شركها إذا كان أهلها مصلحين في أحكامهم الاجتماعية والعمرانية، وأحكامهم المدنية والتأديبية، بل لا بد أن يضموا الإفساد في الأعمال والأحكام، إلى الشرك وهو الظلم المؤذن بخراب العمران.

<sup>1</sup> تفسير المنار 158/12

<sup>2</sup> ينظر تفسير المنار 159/12

الثالث: أن الله لا يهلك الأمم بظلم قليل من أهلها، إذا كان الجمهور الأكبر منهم مصلحين، وأورد الشيخ في هذا السياق حديثاً عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسأل عن تفسير هذه الآية فقال: "وأهلها ينصف بعضهم بعضاً"<sup>1</sup> وأشار إلى أن تنكير الظلم جاء للتقليل والتحقير.

وبعد أن ذكر الأوجه الثلاثة مال إلى الوجه الثاني، فقال: "وذكر المفسرون في الوجه الثاني القول المشهور المعبر عن تجارب الناس، وهو أن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم"<sup>2</sup>، رغم أنه صحح الأوجه الثلاثة، وبين أنه يجوز إرادتها كلها، فمن أركان بلاغة القرآن جمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، وأن يكون بعضها واضحاً في هذه المعاني وبعضها خفياً ويراد من إخفائه أن يذهب به الذهن والفكر كل مذهب، وهذا مما يتنافس فيه البلغاء<sup>3</sup>.

ثم بين الشيخ أن الظلم والاستبداد واختلال النظام في الأمة مدعاة لانتشار الفسق والفجور وانحلال أخلاق الأمة حتى تسوء أعمالها، وتتحل قواها، ويفسد أمرها وتضعف منعتها، ويتمزق نسيج وحدتها، حتى تحسبها جميعاً وهي شتى، وهذا الحال يغري بها الأمم القوية فتستولي عليها وتستأثر بخيراتها، وهذه سنة مطردة في الأمم، إذ إن الشعوب التي ارتضت الظلم من ملوكها وحكامها، لا تنبالي بظلم الأجنبي واستذلاله لها، واستشهد الشيخ بقوله في مقصوده<sup>4</sup>:

من سأسه الظلم بسوط بأسه      هان علىه الذل من حيث أتى<sup>5</sup>

وبين أن السبيل إلى تقادي الهلاك والسقوط في هاوية الخسران هو مقاومة الظلم والظالمين وإن كان في ذلك نيل الأذى والتعرض للمخاطر وتهديد الظالمين، فقد كانت هذه حال الأنبياء مع أقوامهم، وهذه هي حال دعاة

<sup>1</sup> الطبراني، المعجم الكبير، ح 2281، 308/2 والديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ح 7203، 414/4، واخرجه الخرائطي في مساوي الأخلاق موقفاً على جرير بن عبد الله، ح 614، ص 286

<sup>2</sup> تفسير المنار 160/12

<sup>3</sup> تفسير المنار 160/12

<sup>4</sup> المقصورة الرشيدية، قصيدة مطولة للشيخ محمد رشيد رضا، مليئة بالحكم، عارض بها المقصورة الدريدية، ينظر مجلة المنار 1/25 والمقصورة الدريدية هي قصيدة شهيرة لمحمد بن الحسن بن دريد الأزدي، وهو من أئمة اللغة والأدب، ولد في البصرة، وقيل عنه: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء، توفي في سنة 321هـ، العموي، العقد التليد في اختصار الدر النضيد، ص 129

<sup>5</sup> تفسير المنار 278/8

العدل والإصلاح مع الظالمين في كل زمان، فقال: "وكذلك يفعلون بدعاة الإصلاح وكل من يرشد الشعوب إلى مقاومة الظلم والاستبداد، والرياسة الطاغية المتكبرة في كل زمان ومكان. فهذا الإرشاد الرباني في كتاب الله -تعالى- عام دائم لا نهاية له، ولا غنى عنه. وقد غفل أهل القرآن عنه"<sup>1</sup>.

وفي مثل هذا الكلام دليل واضح على ما أصاب ويصيب كثيراً دولنا العربية والإسلامية من ذل وهوان وضعف وتبعية للأمم المستعلية في الأرض من شرقية وغربية، كيف لا ودعاة الإصلاح والعدل والإيمان يرسفون بالقيود في غياهب السجون، وكلما ظهر عالم يدعو إلى الله بحق ويطالب بإقامة العدل وشرع الله تعالى سارعت أجهزة السلطة الظالمة المسماة بـ(الأمنية) -وهي لا يهملها أمن البلاد إنما أمن الحاكم وسلطته المستبدة- من أجهزة شرطة ومخابرات لإلقاء القبض عليه وتغيبه في مكان حيث لا يعلم به إنس ولا جان! وبنظر مقابل ذلك في عصرنا الحاضر إلى الأمم الغربية وقد وقعت في ظلم مشهود وطغيان ظاهر لا ريب فيه على الشعوب الأخرى، وانتساءل عن هذه الأمم الظالمة كيف لا يعجل الله لها العقوبة ولا تجري عليها سنة الله في المنظور القريب رغم وقوعها في الظلم والطغيان واستعلانها على الأمم والشعوب المختلفة عنها؟ والحقيقة ان سنة الله تعالى في الظلم جارية مطردة على الجميع، ولكن سرعة جريانها أو تأخره متعلق بمدى الظلم والمجاهرة به، ومدى التقاء هذه السنة مع السنن الأخرى من سنن السقوط، فربما يقعون فيما يوجب السقوط من ناحية ويعملون بما يوجب الرقي والتقدم من ناحية أخرى، ولربما يعالجون سنة السقوط وأمراضها بأدوية من الإصلاح الاجتماعي والسياسي فتؤخر انتشار المرض وتأثيره، ولكنه لا يلغي استمراره حتى يأتي أجل الله.

وبمثل هذا التبيان الذي سبق يتحدث الشيخ ويجب على التساؤل الذي ذكرته آنفاً، فبيّن أن لدى هذه الدول كثيراً من القوى المعنوية والمادية التي تقاوم بها سرعة تأثير هذه الأدوية، ويمثل لذلك بالجسد الذي دبّ فيه المرض، ولكنه يأخذ الأدوية ويسلك طرق الوقاية التي تقاوم المرض وتؤخر سرعة تأثيره فيه، وذكر من هذه

<sup>1</sup> تفسير المنار 185/12

القوى الواقية للأمم النظام ومراعاة سنن الاجتماع حتى في الظلم نفسه، فيخفونه ويلبسونه لباس العدل، ويبرزون فسادهم في صورة الإصلاح، وفي البلاد المستعمرة يوجدون لهم أنصارا من المظلومين أنفسهم، بل يقنعون الكثيرين منهم، بأن سيادتهم عليهم خير لهم من سيادتهم لأنفسهم، حتى قال شاعرهم:

لقد كان هذا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى صار ظلماً منظماً<sup>1</sup>

ثم ذكر الشيخ جواباً آخر نقله عن أستاذه الإمام فقال: "وقد قلت للأستاذ الإمام مرة: ما بال باطل هؤلاء الإفرنج في شئونهم السياسية والدينية ثابتاً نامياً لا يدمغه الحق؟ -أو ما هذا معناه- فقال: إنه ثابت بالتبع للنظام الذي هو أقوى الحق، أي فهو يزول إذا قذف عليه بحق مؤيد بنظام مثله أو خير منه، فهذا ما ينبغي أن يعمل له المستعبدون لهم في الشرق، مع مباراتهم في العلوم والفنون دون الترف والفسق"<sup>2</sup>.

وهذا الكلام في غاية الروعة والدقة، فالحياة لا تعرف الفراغ، والله تعالى لا يستبدل الباطل بالباطل ولا الظالمين بالظالمين، فالظلم يبقى بسلطته وسلطانه حتى يأتي أهل العدل بسلطانهم فيدفعه الله بهم، وكذلك الحق ما دام غائباً سيبقى الباطل حاضراً معربداً، فإذا اجتمع أهل الحق والتقوا حوله دمع الله بهم الباطل وأزهقه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا آصَبْتُمْ بِهِ﴾ [الأنبياء: 18].

### المطلب الثاني: أثر استبداد الحاكم وسوء سياسته في الرعية

من الواضح أن الشيخ يعيش أحداث زمانه متفاعلاً معها، وذلك أنه في كثير من أفكاره يعبر عن الظروف والأحوال التي تعيشها الأمة في عصره، وعماً أصابها من تراجع عن ركب الحضارة الإنسانية، وكيف تمت تنحيتها عن قيادة العالم، بعد أن غاب اعتبارها بسيرة سلفها، ولم تعتبر كذلك بما تراه من حال الأمم الأخرى

<sup>1</sup> من قصيد شكوى مصر من الاحتلال، لحافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، 25/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 360/8

المتغلبة عليها، وقد كانت أقل منها علما وثروة وقوة وعزا وقد صارت اليوم في أعلى الهرم تنظر إليها من موقع الكبرياء والاستعلاء وتخطبها من موقع السيادة بالأمر والنهي.

ولا شك أن الاستبداد السياسي له الدور الأكبر فيما وصلت إليه الأمة، ويعزو الشيخ ذلك إلى الفشل في التربية على حرية التفكير واستقلالية الرأي، ومتأثرا بما يشاهده من حال الأمم الغربية ويبين أن الاستبداد يبدأ من البيوت ويقارن بين التربية الغربية والتربية عندنا في هذا الجانب، فإذا كان الغرب ينشأ الأبناء فيه على حرية التفكير والإرادة الشخصية، ويعمل الآباء والأمهات على تحقيق هذه التربية الاستقلالية في شتى النواحي العلمية والعقلية والعملية والإدارية، وتقر عيونهم برؤية أبنائهم يعملون بما اختاروه لأنفسهم بكامل إرادتهم، ويقومون بما يعتقدون أنه الأفضل لهم ولأمتهم، يبين أنه في المقابل نجد الآباء والأمهات عندنا يريدون لأبنائهم أن يكونوا نسخة عنهم، وأن يتعلقوا بهم في الحب والبغض وفي العمل والإرادة، وتقر عيونهم برؤيتهم يفكرون ويدركون بعقول الآباء والأمهات لا بعقولهم الخاصة، فليس للأبناء وجود مستقل ولا حرية شخصية، ثم تساءل فقال: "فهل تخرج هذه التربية الاستبدادية الجائرة أمة عزيزة عادلة، مستقلة في أعمالها، وفي سياستها وأحكامها؟ أم البيوت هي التي تغرس فيها شجرة الاستبداد الخبيثة للملوك والأمراء الظالمين، فيجنون ثمراتها الدانية ناعمين آمنين؟"<sup>1</sup>.

وسأكرس الحديث في هذا المطلب على نقطتين اثنتين أبرز من خلالهما ما تعرض له الشيخ من أثر استبداد الحاكم، وسوء سياسته في الرعية على الأمة، فأحدث أولا عن استبداد الحاكم وثانيا عن سوء سياسته بروج الشفاعة والمحسوبية عنده.

أولا: استبداد الحاكم وأثر ذلك على الأمة

إن استبداد الحكام ودكتاتوريتهم بمفهوم عصرنا، لهو نوع من أخطر أنواع الظلم المؤذن بخراب الديار والعمران، فالحاكم عندما يتعامل على أنه الأمر الناهي، وأنه صاحب الرأي السديد الرشيد من غير أن يكثرث إلى رأي

<sup>1</sup> تفسير المنار 73/5

أهل الرأي، ولا يخضع لشورى أهل الحل والعقد، فالرأي ما يرى، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد، يكون بذلك قد سلك الطريقة الفرعونية: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] المؤدية إلى خزي الدنيا والآخرة.

وقد بين الشيخ ذلك ونقل عن أستاذه بيان حال الحاكم المستبد عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205]، أنه فسر التولي بالولاية والسلطة، ثم قال: "إن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشده إلى مصلحة، أو يحذره من مفسدة؛ لأنه يرى أن هذا المقام الذي ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأياً وأرجحهم عقلاً، بل الحاكم المستبد الذي لا يخاف الله تعالى يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله في السلطة، فيجب أن يكون أفن رأيه خيراً من جودة آرائهم، وإفساده نافذا مقبولاً دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له: اتق الله في كذا؟"<sup>1</sup>.

ثم بين أن مثل هؤلاء الحكام لا يقبلون النصيحة حتى ولو تبين فساد رأيهم، وذكر تجربة شخصية له مع أحدهم، حيث عرض عليه النصيحة ممهداً لها بحديث المصطفى -عليه الصلاة والسلام-: "الَّذِينَ النَّصِيحَةُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ"<sup>2</sup>، ولكن هذا الحاكم عظم عليه الأمر، وكان ذلك آخر عهد الإمام به إذ لم يرض أن تقدم له النصيحة كما تقدم لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ثم قال الإمام: "وقد كان العلماء ينصحون للخلفاء والملوك المسلمين، فيأخذون بالنصح بحسب مكانهم من الدين، وأما الطغاة البغاة الذين ليس لهم من الإسلام إلا ما يخدعون به العامة من إتيان المساجد في الجمع والأعياد والمواسم المبتدعة، فإنهم يؤذون من يشير إشارة ما إلى أنهم في حاجة إلى تقوى الله في أنفسهم، أو في عيال الله الذين سلطوا عليهم... وإذا كان هذا شأن أكثر الملوك والأمراء الذين يُنسبون إلى الدين ويدعون اتباعه، فهل تجد دعوى فرعون الألوهية غريباً عجيباً؟!"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 200/2

<sup>2</sup> صحيح البخاري كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" 21/1 ذكره عنواناً للباب من غير إسناد.

صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح55، 74/1

<sup>3</sup> تفسير المنار 200/2

وأوضح الشيخ أن الاستبداد سبب من أسباب ذهاب الملك وضياعه، فعندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿قُلْ

اللَّهُمَّ مَلِكِ الْمُلْكِ تَوْتَى الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26] بيّن أن إتيان الملك يكون

وفق سننه تعالى كما يكون نزعه كذلك، فقد أخرج من العرب الأميين خاتم النبيين، وجعلهم خير أمة عندما

أعدّم الله بسننه في الاجتماع، وذلك بارتقاء الفكر واستقلاله، وبقوة الإرادة واستقلالها، في حين أخرج من

سلائل الأنبياء والصدّيقين الأشرار المفسدين من بني إسرائيل بسننه كذلك، إلى أن قال: "صارت هذه الأمة

أقوى أمم الأرض استعدادا لقبول الدين الذي هدم بناء التقليد والاستعباد، واستبدل به بناء الاستدلال

والاستقلال، من حيث كان بنو إسرائيل كغيرهم من الأمم يرسفون في قيود التقليد للأحبار والرهبان، مرتكسين

في أغلال الاستبداد من الملوك والحكام، فما أعطى -سبحانه- ما أعطى ونزع ما نزع إلا بإقامة السنن التي

هي قوام النظام ومناط الإبداع والإحكام"<sup>1</sup>

وبيّن الشيخ أن الأمة الإسلامية كانت خير أمة، وأعظم وأعز أمة عندما سارت بهدي القرآن وأحاديث الرسول،

إلا أن الاستبداد أذهب بأسها وأفسد حالها فقال: "وقد كان المسلمون بإرشاد هذه النصوص أعظم أمة حربية

في العالم فما زال استبداد الحكام يفسد من بأسهم، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يفل من غربهم، حتى

سبقتهم الأمم كلها في ميادين الكفاح"<sup>2</sup>.

وقد تحدث الشيخ في موضع آخر عن الفساد السياسي وسوء الإدارة وأثر ذلك على الأمة، فإذا وسدت أمرها

إلى غير أهلها وحادت عن كتاب ربها، وتسلط عليها المتغلبون المستبدون فلا يجروا أحد على أمرهم ونهيبهم

إلا وتعرض للأذى سجنًا أو نفيًا أو للهلاك قتلا وإعدامًا، وبذلك يتضح لنا السبب في اضمحلال تلك الإمارات

العظيمة والدول الواسعة، وقد وقع ما بقي منها تحت إشراف ووصاية الأمم الغالبة التي لم تغلب ولم تقو ولم

تعز إلا عندما جعلت أمرها بيد مجموع الأمة، ووسدت أمرها إلى من هو أهل له، في حين ترك المسلمون

<sup>1</sup> تفسير المنار 226/3

<sup>2</sup> تفسير المنار 98/2

ذلك، وتركوا أوامر دينهم الذي يأمرهم بالشورى والأمانة والعدل في الحكم، وانحرفوا مع تقدم الزمن إلى تقديس الزعماء والحكام والرؤساء المستبدين، وغفلوا أو غُيِّبوا عن نظام الإسلام الصحيح كما هو في القرآن والسنة، فجهلوا حقوقهم، ثم قال عن مكر الدول المتغلبة وكيدها في بلاد المسلمين: "أفسدوا عليها بعض أولي الأمر منها، وأسقطوا قيمة الآخرين بضروب من المكائد الدينية والدنيوية"<sup>1</sup>. ومن الواضح أن ما ذكره الشيخ من مكائد الدول المتغلبة في زمانه، لا زال قائماً إلى يومنا هذا، فمساندة الحكام المستبدين ودعمهم، وإشاعة الظلم والفوضى، وملاحقة دعاة الحرية والشورى والإصلاح السياسي والإداري هو ديدنهم ومخططهم من أجل منع تقدم الأمة ونهضتها.

وأقول: وإن غالب الدول العربية والإسلامية يطارد فيها الدعاة والعلماء الأحرار، وإن معظم الرؤساء والحكام قد وصلوا إلى سدة الحكم إما عبر الانقلابات العسكرية، أو من خلال الانتخابات المزيفة التي تمنح الرئيس نسبة 99.9% من الأصوات ودون منافس، وبالتالي فلا صلاح للأمة مالم ترق إلى مستوى من العدالة والشورى في اختيار الرئيس وأولي الأمر من غير قهر أو تسلط، وأن يكون الحاكم من داخل الأمة حريصاً عليها يحبها وتحبه بعيداً عن الاستبداد والظلم الذي يجعل الأمة متوجسة منه وهو متوجس منها، ويبغضها وتبغضه، وصدق النبي المصطفى -صلى الله عليه وسلم- حين قال: "خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"<sup>2</sup>.

وقد تحدث الشيخ عن كيفية سريان الاستبداد إلى كيان الدولة الإسلامية، حتى خرج بها عن عدل الخلافة الراشدة، إلى أن وصل الظلم والاستبداد ببعض ملوك المسلمين إلى الحد الذي صاروا فيه عارا على الإسلام والإنسانية، ويعيد الشيخ بداية الانحراف عن السياسة الرشيدة العادلة في الحكم إلى بني أمية، ويحمل حملته على معاوية بن أبي سفيان ومن تبعه من خلفاء بني أمية خلا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فإن ظلمهم واستبدادهم جعل الأمة تترك سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكرهة وخائفة من بطشهم،

<sup>1</sup> تفسير المنار 175/5

<sup>2</sup> صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأمة وشراهم، ح 1855/3 1481

وذكر مقولة نسبت إلى عبد الملك بن مروان: "من قال لي اتق الله ضربت عنقه"<sup>1</sup> إلى أن قال: "فقد كانت شجرة بني مروان الخبيثة هي التي سنت في هذه الأمة سنة الاستبداد، فما زال يعظم ويتفاقم حتى سلب الأمة أفضل مزاياها في دينها ودنياها بعد الإيمان"<sup>2</sup>.

ويحملهم المسؤولية عن توقف انتشار الحكم الإسلامي وعدم انصهار الشعوب في بوتقة الإسلام ولغته، فيقول: "ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الأمم، فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه"<sup>3</sup>.

ويبين الشيخ في موضع آخر أن الأمويين هم الذين هدموا قاعدة الحكم بالشورى، وساروا بطريقة الاستبداد الذي أرادوا من خلاله المحافظة على سلطتهم وبقاء الملك في أسرته، ولم يعف الشيخ العباسيين من الاستمرار بهذه السياسة الاستبدادية، فقال: "ثم رسخت السلطة الشخصية في زمن العباسيين لما كان للأعاجم من السلطان في ملكهم وجرى سائر ملوك المسلمين على ذلك وجاراهم عليه علماء الدين بعد ما كان لعلماء السلف الصالح من الإنكار الشديد على الملوك والأمراء في زمن بني أمية وأوائل زمن العباسيين، فظن البعيد عن المسلمين وكذا القريب منهم أن السلطة في الإسلام استبدادية شخصية، وأن الشورى محمودة اختيارية"<sup>4</sup>. وللحقيقة إن مثل هذا الغلو والمبالغة في تحميل المسؤولية لبني أمية عن توقف المد الإسلامي، وعن سريان الظلم والاستبداد، فيه ما فيه من تجاهل لدور الأمويين في اتساع وامتداد الدولة الإسلامية من أقصى بلاد الشرق وحتى الأندلس في الغرب، مع ما في كلامه من حق لجهة كونهم رجحوا العصبية للنسب على الاختيار الشوري للحاكم، وهذا أصل المشكلة التي بدأت في زمن الأمويين.

<sup>1</sup> ذكرت سابقاً أن هذه المقولة لم تثبت ولم تصح عن عبد الملك بن مروان.

<sup>2</sup> تفسير المنار 50/4

<sup>3</sup> تفسير المنار 214/11

<sup>4</sup> تفسير المنار 169/4

ثانيا: سوء سياسة الحاكم المستبد برواج الشفاعة والمحسوبية

بين الشيخ أن الحاكم المستبد تروج عنده الشفاعات والوساطات والتفريق بين الرعية، فيحابي البعض على حساب البعض الآخر، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ردّ شفاعة حبه أسامة بن زيد رضي الله عنه في المرأة المخزومية، بل إنه غضب لهذه الشفاعة وقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدِّدَ اللَّهُ؟» ثُمَّ قَامَ فَأَخْتَطَبَ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»<sup>1</sup>، وكذلك كل من يحكم بالعدل لا تقبل عنده الشفاعات ولا الوساطات إلا إذا علم شيئا لم يكن يعلمه عن مظلمة بحق المشفوع له وتبين له أنه يستحق ما يُطلب له، فلا تكون الشفاعة عنده إرضاء للشافع في مخالفة العدل والحق ومخالفة المصلحة العامة، فإن الحاكم الظالم المستبد تكون الشفاعات الباطلة عنده من أركان نظامه ويستعين بها على تثبيت حكمه، فقال الشيخ: "فالملك المستبد بسلطانه يعطي هذا، ويعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده"<sup>2</sup>، وهذا من سنن السقوط والانحطاط لا محالة.

وقد أفاض الشيخ في بيان ذلك عند تفسير قول الله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ۝﴾ [النساء: 85] وبين أنه لا شيء أفتك بالأمة وأفسد لها من مثل هذه الشفاعات وهذا الظلم فقال: "وأما الحاكم المستبد الظالم فهو الذي تروج عنده الشفاعات ؛ لأنه يحابي أعوانه المقربين منه ليكونوا شركاء له في استبداده، فيثق بثباتهم على خدمته وإخلاصهم له، وما الذئاب الضارية بأفتك بالغنم من فتك الشفاعات في إفساد الحكومات والدول، فإن الحكومة التي تروج فيها الشفاعات يعتمد التابعون لها على الشفاعة في كل ما يطلبون منها لا على الحق والعدل، فتضيع فيها الحقوق، ويحل الظلم محل العدل، ويسري ذلك من الدولة إلى الأمة فيكون الفساد عاما"<sup>3</sup>، ثم

<sup>1</sup> صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ح 3475 ج 4 ص 135 وصحيح مسلم، كتاب الحقوق، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في

الحدود، ح 1688، 1315/3

<sup>2</sup> تفسير المنار 425/9

<sup>3</sup> تفسير المنار 251/5

استطرد الشيخ معرجاً على ما وقعت فيه حكومات المسلمين في زمانه فذكر أنه نشأ في بلاد لا يقضي صاحب المصلحة مصلحته عند الحكام والمسؤولين إلا بالوساطات أو بالرشوة، وهذا بلا شك من أهم السنن والأسباب التي أدت إلى استباحة بلادهم من قوى الاستعمار والاستكبار العالمي حينها.

وكان الشيخ قد تحدث في موضع آخر عن الفرق بين الحاكم العادل والحاكم المستبد من ناحية الشفاعة، ففي حين لا يقبل الحاكم العادل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بحيثيات الحكم، فإذا أخطأ في حكمه ثم تنبه إلى الصواب، وعرف أن الحق خلاف ما حكم به تراجع بلا تردد، فإن الحاكم الظالم: "يقبل شفاعة المقربين عنده في الشيء، وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب منه على العدالة"<sup>1</sup>.

ثم ختم الشيخ كلامه في هذا الباب بأنه لا صلاح للأمة ولا لحكوماتها إلا بترك الاعتقاد والتعامل بالشفاعات والوساطات بين الرعية والأمراء، فقال: "ولا يقوم عندنا دليل على صلاح حكومتنا إلا إذا زال هذا الاعتقاد، وصارت الشفاعة من الوسائل التي لا يلجأ إليها إلا أصحاب الحق بعد طلبه من أسبابه، والدخول عليه من بابه، وظهور الحاجة إلى شفيع يظهر للحاكم العادل ما لم يكن يعلمه من استحقاق المشفوع له لكذا، أو وقوع الظلم عليه في كذا"<sup>2</sup>.

ولا شك أن الشيخ قد أصاب كبد الحقيقة في بيان ما أصاب الأمة في زمانه ولا زال يصيبها في زماننا، فالمناصب والوظائف في بلادنا مخصصة للمقربين من الرؤساء والحكام ولو كانوا غير أكفيا، فليست القاعدة عندنا ما جاء في كتاب الله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26] وإنما هي

خير من استأجرت الموالي القريب، وأنى لأمة هذا حالها أن تغلح وتتهض؟

<sup>1</sup> تفسير المنار 255/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 252/5

### المطلب الثالث: أثر التزاوج بين سلطة العلماء وسلطة الحكام

وسأتحدث هنا عن التزاوج بين سلطة الدين المتمثلة بعلماء الدين وسلطة الدنيا المتمثلة بالحكام، ثم التزاوج

بين سلطة الإعلام المتمثلة برجال الفكر والإعلام وبين الحكام، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: التزاوج بين سلطة الدين وسلطة الدنيا

إن أخطر ما تقع فيه الأمة من ظلم واستبداد، حين يصبح هذا الظلم واقعا ويتم تبريره باسم الدين، وحين يتم استعباد الناس وإذلالهم بالسلطة الدينية، بدعوى أن الحاكم سلطان الله في الأرض يضي على نفسه القداسة والواسطة عند الله، أو أن يتم الظلم بالسلطة الدنيوية، سلطة الظلم والاستبداد، فيجعل الحاكم من تحت سلطته عبيدا مسخرين له ليس لهم من أمرهم شيء، والأخطر من ذلك كله أن يتم التزاوج بين العلماء والأمراء فيفتي العلماء بسلطتهم الدينية بما يرضي الأمراء في تثبيت وتنفيذ سلطتهم الدنيوية.

وقد حذر الشيخ من ذلك في أكثر من موضع في تفسيره المنار، وجعله من أهم أسباب اضمحلال الأمم وزوالها، وبين أن ليس في الإسلام سلطة دينية لاهوتية، ولا يرضى المؤمنون بالخضوع لغير الله تعالى، فقال: "فالإيمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، وهي دعوى القداسة والواسطة عند الله، ودعوى التشريع والقول على الله بدون إذن الله"<sup>1</sup>، وكذلك لا يرضى بظلم واستبداد الحكام والأمراء الذين يحكمون بأهوائهم، وإنما يكون الحكم الرشيد عندما يكون العلماء مبلغون بالحق والأمراء منفذون بالعدل، فأكمل بالقول: "وإنما أئمة الدين عنده مبلغون لما شرع الله، وأئمة الدنيا منفذون لأحكام الله، وإنما الخضوع الديني لله ولشرعه لا لشخصهم وألقابهم"<sup>2</sup>.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ﴾ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ

ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿٧٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحَمَّدُوا بِمَا لَمْ

<sup>1</sup> تفسير المنار 91/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 92/2

يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٧﴾ [آل عمران: 187-188] حذر الشيخ من

تعلق أرزاق العلماء ورتبهم بأيدي الأمراء والحكام، لما في ذلك من المضرة والمفسدة، ودعا إلى استقلال العلماء فقال: "فيجب أن يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال دون الحكام - لا سيما المستبدين منهم - وإنني لا أعل معنى لجعل الرتب العلمية، ومعايش العلماء في أيدي السلاطين والأمراء، إلا جعل هذه السلاسل الذهبية أغلالا في أعناقهم يقودونهم بها إلى حيث شاءوا من غش العامة باسم الدين، وجعلها مستعبدة لهؤلاء المستبدين، ولو عقلت العامة لما وثقت بقول، ولا فتوى من عالم رسمي مطوق بتلك السلاسل"<sup>1</sup>

ذكر الشيخ ذلك وهو يعلم أن الملوك لا غنى لهم عن العلماء الذين يخدمون مصالحهم ويبررون لهم استبدادهم، ويفتونهم بما يوافق أهواءهم، وهؤلاء الحكام المستبدون يعملون بكل وسيلة لتقريب العلماء وجذبهم إليهم لا سيما الإغراء بالمال والرتب والمناصب، وقد أشار الشيخ إلى ذلك بقوله: "وقد عني الملوك المستبدون بعد ذلك بجذب العلماء إليهم بسلاسل الذهب والفضة والرتب والمناصب، وكان غيرهم أشد انجذابا"<sup>2</sup>.

وقد صور الشيخ هؤلاء العلماء الذين يداهنون الحكام طمعا في دنياهم أدق صورة في كيفية إخراج الفتاوى على مقاسات الحكام ووفق أهوائهم ومبتغاهم، فقال: "فأولو المطامع والأهواء يفتنون الملوك والأمراء وكبار الأغنياء بما يساعدهم على إرضاء شهواتهم، والانتقام من أعدائهم، أو ظلم رعاياهم ومعاملتهم، بضروب من الحيل والتأويل يصورون به النوازل بغير صورها، ويلبسون به المسائل أثوابا من الزور تلتبس بحقيقتها"<sup>3</sup>.

وأكمل الشيخ حديثه في هذا الجانب مبينا كيف صار أصحاب الشهادات العلمية والأوراق الرسمية والرتب الدينية، والمتزينين بالأوسمة اللامعة الذين يلهجون بالثناء على الحاكم ويسبحون بحمده صباح مساء، يضللون كل من يسعى للإصلاح وتحقيق العدالة في البلاد ويفسقونه؟ ثم تساءل قائلا: "فهل يوثق بعلم عالم مقرب من المستبدين أو بدينه؟"<sup>4</sup>، وذكر الفرق بين هؤلاء وبين العلماء الأوائل الذين نأوا بأنفسهم عن الحكام

<sup>1</sup> تفسير المنار 232/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 175/5

<sup>3</sup> تفسير المنار 345/10

<sup>4</sup> تفسير المنار 233/4

الظالمين وفروا منهم فرارهم من العقارب والأفاعي، وكيف كانوا يذكرون ما أخبر عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "سيكون بعدي أمراء -زاد في رواية يكذبون ويظلمون- فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد على الحوض"<sup>1</sup>. وكذلك قوله: "سيكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم يحدثونكم فيكذبونكم، ويعملون فيسيئون العمل، لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبائحهم وتصدقوا كذبهم، فأعطوهم الحق ما رضوا به، فإذا تجاوزوا فمن قتل على ذلك فهو شهيد"<sup>2</sup>.

ثم استطرد في ذكر الأحاديث المحذرة من ممالأة الحكام، ونقل كذلك بعض أقوال السلف في تحذير العلماء من غشيان أبواب الأمراء، فنقل كلاما عن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما، وكلاما عن الأوزاعي رحمه الله وغيرهم<sup>3</sup>، ومن جميل ما نقله الشيخ في هذا الموضوع قول الشاعر:

قُلْ لِلْأَمِيرِ نَصِيحَةٌ      لَا تَرْكَنْنَ إِلَى فُقَيْهِ  
إِنِ الْفُقَيْهِ إِذْ أَتَى      أَبْوَابَكُمْ لَا خَيْرَ فِيهِ<sup>4</sup>

إلى أن قال: "من سعادة الدنيا الحقيقية التي تحصل للأمة بمحافظه العلماء على الكتاب، وتبيينه لها، وإرشادها به إلى ما يهذب أخلاقها، ويعلي آدابها، ويجمع كلمتها، ويحول بينها وبين مطامع المستبدين فيها حتى تكون أمة عزيزة قوية متكافلة متضامنة، أمرها شورى بين أهل الرأي، وأولي الأمر من أفرادها"<sup>5</sup>.

لقد بين الشيخ أنه كانت في الأمة بقية من العلماء الصالحين الذين رفضوا إغراءات السلطان، وصبروا على المحنة ولم يقبلوا مداهنة الأمراء في استبدادهم وأهوائهم ومعتقداتهم، فذكر الإمام أحمد وما تعرض له من الضرب المبرح ليقول بخلق القرآن، وذكر الإمام مالك وعلوه وإبائه رغم الأذى الذي لحق به فلم تلت له قناة، ولكن العديد من العلماء في المقابل قد وقعوا في شرك الحكام وإغراءاتهم فاستمتع بعضهم ببعض، وعملوا على إخضاع العامة من الناس وترويضهم لما يقع عليهم من ظلم واستبداد، ومن جميل ما قاله الشيخ في

<sup>1</sup> سنن الترمذي، ح 2259، 525/4 قال الترمذي حديث صحيح غريب وفي الهامش حكم الألباني عليه صحيح، ومسند أحمد ج 17 ص 287 ح 11192.

<sup>2</sup> المعجم الكبير للطبراني ح 910، 362/22

<sup>3</sup> ينظر تفسير المنار 234/4

<sup>4</sup> ينسب هذا الشعر للقاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي، الضرير، المقرئ، المتوفى: 590 هـ، ينظر الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 913/12

<sup>5</sup> ينظر تفسير المنار 235/4

هذا التزاوج بين الأُمراء والعلماء قوله: "ذلك أن الظالمين من الأُمراء قد استعانوا بالظالمين من الفقهاء على إقناع العامة بأنهم أئمة الدين الذين يجب اتباعهم حتى في الأمور الدينية، وحالوا بينهم وبين كتاب الله الذي ينطق بأن عهد الله بالإمامة لا ينال الظالمين"<sup>1</sup>.

ثم ذكر الشيخ أن من أسباب التقارب بين العلماء والأُمراء التعصب المذهبي والنزاع والشقاق فيما بين العلماء، فبين أن الأمة لا يصلح حالها ولا تستقيم على الطريقة إلا باتباع كلام العلماء الصادقين الذين خرجوا من ظلمة الشقاق وضيق الخلاف إلى نور الوفاق وبحبوة الوحدة، ذلك أن العلماء إذا توحدت كلمتهم واتفقوا على الحق بالدليل والبرهان ألزموا الحاكم ولم يجد بدا من اتباعهم، فعوام الأمة إذا رأوا اتحاد العلماء اتبعوهم، والعوام تبع للخواص، وهذه خير وسيلة لوقف الظلم واستبداد الأُمراء والحكام، ولكن عندما يقع الخلاف والشقاق بين العلماء، يجد الأُمراء في ذلك أرضية خصبة، لاستمالة من يجدونهم أقرب إلى ممالأتهم حرصاً على جاههم ووجاهتهم بين الناس، فمن أسباب التزاوج بين العلماء والأُمراء تعصب العلماء لمذاهبهم التي ينتسبون إليها، فهم يستفيدون من الأُمراء تأييدهم لمذاهبهم مقابل تبريرهم لأفعال الأُمراء واستبدادهم، فقال: "والسبب في بقاء الغلب لسلطان الخلاف والنزاع فشو الجهل، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي إليها ينتسبون، وجاهها يعيشون ويكرمون، وتأييد الأُمراء والسلطين لهم استعانة بهم على إخضاع العامة، وقطع طريق الاستقلال العقلي والنفسي على الأمة؛ لأن هذا أعون لهم على الاستبداد، وأشد تمكيناً لهم مما يهونون من الفساد والإفساد"<sup>2</sup>.

ثم ذكر الشيخ سبباً آخر من أسباب التصاق العلماء بالأُمراء ألا وهو قلة بضاعة من ينسبون أنفسهم إلى العلماء فلا يملكون من العلم ما يؤهلهم للاجتهاد واستقلال الرأي، فيقلدون من سبقهم إذ ليس لهم رأي يتبع، وكثيراً ما كان يعيب الشيخ على المقلدين ويعدهم من أقرب الناس إلى الظلمة المستبدين، فقال: "ما قال بوجود التقليد وتحريم الاستقلال إلا بعض المقلدين الذين يعترفون بأنهم ليس لهم قول يتبع ولا أمر يطاع،

<sup>1</sup> تفسير المنار 377/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 205/2

وكان ذلك دسيسة من الملوك والأمراء المستبدين، ليزلوا الناس ويستعبدهم باسم الدين، وكذلك كان، وقد علمت أن قبول الاستبداد واتباع القرآن ضدان لا يجتمعان<sup>1</sup>.

وقبل أن أختم الحديث عن هذه السنة من سنن السقوط وقد عرضها الشيخ أحسن عرض ولكنه لم يذكر السبيل لدفع هذه السنة وتحاشيها، أو منع وقوعها، ولو فعل ذلك لكان أجدى وانفع، وإنني أقول في هذا المقام: إن استقلال العلماء في أرزاقهم عن الحكام والأمراء أمر لا بد منه حتى يكونوا أحرارا في اجتهادهم وصادقين في فتاويهم ولا تأخذهم فيما يقولون لومة لائم، عليه فلا يجب أن يعتمد العلماء في أرزاقهم ورواتبهم على ما تفرضه لهم خزينة السلطات الحاكمة، وإنني أدعوا أن تفرض الأموال المستقلة من هيئات خاصة بالعلماء وحملة العلم الشرعي، وأن توقف لهم الأوقاف التي تكفيهم وتغنيهم عن الحاجة للناس سواء الخاصة منهم أو العامة، فكما لا يُقبل للعالم أن يكون عالم سلطان خاص، كذلك لا يُقبل له أن يكون عالم عامة يسعى في كسب هتافهم ويغره تصفيق الناس له، فيلقي بالمقولات الشعبية، رغبة بالصيت والسمعة.

وعليه لا بد أن يكون العالم مستقلا في دنياه ومستقلا في دينه، بمعنى أن تخرج فتاويه عن صدق اجتهاد وعميق فهم، وأصالة أدلة، فيقول رأيه من غير مدهانة ومواربة كما قالتها امرأة عجوز في وجه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حتى أقر لها وقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر<sup>2</sup>.

ثانيا: المزوجة بين سلطة الإعلام وبين الحكام

شبيها بالسلطة الدينية وانحيازها إلى الأمراء كذلك كانت السلطة الإعلامية تسبح بحمد الحكام والأمراء، وفي ذلك ما فيه من زيادة تسلط الحكام على العباد واستمرار استبدادهم وتفردهم بالسلطة، فتحدث الشيخ عما راج في عصره من المحامد الكاذبة والثناء الباطل على الحكام وقد انتشر ذلك في الصحف التي أتقن كثير من أصحابها مثل هذه الجريمة، فجعلوا مدح الأمراء والحكام بغير ما يستحقون مهنة يتكسبون من خلالها، فظن

<sup>1</sup> تفسير المنار 241/5

<sup>2</sup> ذكر الحادثة الغزالي في المستصفى، ص 361 ونكر ابن كثير الرواية في تفسيره عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: قال عمر بن الخطاب: لا تغالوا في مهور النساء، فقالت امرأة: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله يقول: وأتيم إحداهن قطارا- من ذهب- قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود، فلاجل لكم أن تأخذوا منه شيئا، فقال عمر: إن امرأة خاصمت عمر فخصمته، وقد أورد الرواية من عدة طرق أخرى، ينظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم، 213/2.

الحكام أن العامة قد اعتقدت أن السيئة منهم حسنة، ولم يعد للثناء الحق والحمد والشكر على عمل صحيح فائدة لاختلاط حمد النفاق بحمد التشجيع الواجب المستحق الذي هو من وسائل التربية الصالحة، والإصلاح الاجتماعي والشخصي، وفسر ذلك بقوله: "فإن حب الحمد غريزة من أقوى غرائز البشر التي تنهض بالهمم، وتحفز العزائم إلى الأعمال العظيمة النافعة رغبة في اقتطاف ثمار الثناء عليها، فإذا كان الإنسان يدرك هذا الثناء الذي يستحقه العاملون بدون أن يكلف نفسه عناء العمل للأمة ونفع الناس بكذب الجرائد في حمده، والثناء عليه بالباطل قعدت همته ووهت عزيمته، وأخذ إلى الراحة، أو اشتغل بالعمل للذته فقط"<sup>1</sup>.

ثم دعا الشيخ إلى عدم الوثوق بهذه الجرائد، فإذا كان علماء السلاطين لا ثقة بعلمهم وفتاويهم فمالكو الصحف ومحرروها أولى أن لا تثق بما يكتبونه من أخبار وآراء ما داموا من أولياء الحكام إلى أن قال: "وقد صارت حاجة الملوك والأمراء المستبدين إلى حمد الجرائد توازي حاجتهم إلى حمد رجال الدين في غش الأمة، أو تزيد عليها؛ ولذلك يغدقون عليهم النعم، ويقربونهم، ويحلونهم بالرتب، وشارات الشرف التي تعرف بالأوسمة، أو النياشين، كما يحرص على إرضائهم كل محبي الشهرة بالباطل من الأغنياء، والوجهاء"<sup>2</sup>.

وهكذا يستعين المستبدون ببطانة السوء التي تزين لهم ظلمهم وباطلهم، وبكل من يرضى بفسادهم ويعينهم على استدامة حكمهم وجبروتهم، وقد تحدث الشيخ عما وصل إليه حال حكام المسلمين فقال: "ولكن الملوك المستبدين يقربون إليهم المنافقين فيزيدونهم فسادا، ويجرئون غيرهم، بل يرغبونه في النفاق وخيانة الأمة جهارا، حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تتال بالنفاق، ويذاد عنها أهل الصدق والإخلاص، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"<sup>3</sup>.

ولا شك أن البضاعة الفاسدة تكون أكثر رواجاً في سوق الغش والخيانة، فإذا كان الحاكم غير ناصح لرعيته، ولا مشفق عليها، ويصدق فيه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت

<sup>1</sup> ينظر تفسير المنار 238/4

<sup>2</sup> ينظر تفسير المنار 238/4

<sup>3</sup> تفسير المنار 115/11

يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة"<sup>1</sup>، فإنه يأتمن الخائن ويخون الأمين، ويكثر عنده التملق والنفاق، وهذا سبيل السقوط والتردي، وقد بين الشيخ ذلك فقال: "وأما أعمال النفاق الدنيوية في أيام الملوك والأمراء الظالمين الفاسقين، فإنها تكون أكثر رواجاً ونتاجاً من أعمال الصادقين المخلصين. ولا دليل على فساد الملوك والأمراء والرؤساء أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم"<sup>2</sup> ثم ذكر الحديث "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف متفق عليه"<sup>3</sup>.

ولا بد من التنبيه في هذا المقام إلى واقع الفساد الإعلامي الذي جعله الحكام في معظمه مجيراً لصالحهم، فوسائل الإعلام في بلادنا لا تصدر إلا برضى الحاكم وطغمته، ووفق الخطوط المرسومة لها، وضمن الحدود التي لا يجوز أن تتجاوزها، فإعلامنا في معظمه إعلام رسمي ناطق باسم الحاكم والحكومة، ففي حين يعرف الإعلام في الدول المتقدمة المتحضرة بالسلطة الرابعة، فتراقب الحكام وتظهر فسادهم وتقوم اعوجاجهم، بل تفضح تجاوزاتهم وانحرافاتهم وتُسقط عروشهم، فإنّ رجال الإعلام الصادقين في بلادنا إذا ما أرادوا القيام بواجبهم على الوجه الصحيح نقداً وتقويماً وإصلاحاً، فإما أن تغلق صحفهم إن كانت لهم صحف، أو يلاحقون أو يغتالون، أو يسجنون أو ينفوا من الأرض.

وعليه فإن وسائل الإعلام الرائجة في بلاد المسلمين هي التي وللأسف تروج للحاكم، وتقدم المنظرين وأصحاب الأقلام الذين يمجدون الحاكم ويدافعون عنه، ويقدمون أجدداته، وغالباً ما يُقدم هؤلاء باسم المحللين أو الباحثين والمفكرين، وما هذا الفكر والتحليل إلا ما يخرج من دهاليز السياسة الفاسدة.

وإنني أذكر في ختام هذا المبحث أنني قد كتبت مقالا فكريا قبل عدة سنوات تحت عنوان (التزاوج بين الفكر والسياسة وعلاقة المفكر بالسياسي)<sup>4</sup>، وأعني بالمفكر العالم سواء كان عالماً دينياً أو اجتماعياً أو غير ذلك،

<sup>1</sup> صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ح 142، 125/1

<sup>2</sup> تفسير المنار 464/10

<sup>3</sup> صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجندة، ح 3336، 133/4

<sup>4</sup> ينظر صحيفة الميثاق، أيلول 2019م

وأعني بالسياسي الحاكم وحكومته، وقد طرحت في افتتاحية المقال على القارئ السؤال: هل يمكن للسياسي

أن يستغني عن المفكر، وهل يمكن للمفكر أن يتحرر من ربة السياسي؟

وقد أوضحت أن مصطلح (علماء السلاطين) لا يقتصر على الفقهاء وعلماء الدين، وإنما ينسحب كذلك على

مختلف المفكرين والمنظرين في مختلف العلوم غير التجريبية، خاصة الاجتماعية والنفسية والسياسية، وعلى

رجال الصحافة والإعلام، وقد أوضحت أن أخطر ما تقع فيه الأمة هو التواطؤ بين النخبة المتعلمة المثقفة

وبين الطغمة الحاكمة المستبدة، وهذا ما عناه الشيخ فيما أوضحته أنفا من سنن الاستبداد السياسي.

ولا شك أن ما ذكر أنفا عن رجال الصحافة والإعلام، وعن المفكرين والمنظرين ينسحب تماما على رجال

الفن من ممثلين ومغنين غيرهم حيث يسخرون أعمالهم وفنهم للدعاية للحاكم، ومهاجمة كل من ينتقده

ويخالفه.

## المبحث الرابع: السنن في الفساد المالي وسقوط الأمم في تفسير المنار

أخطر ما تصاب به الأمم ويهدد كيائها، أن يصبح المال فيها مشاعا لا حرمة له، يتداوله الناس بالباطل على مختلف طبقاتهم، إن كانوا من الخاصة أو العامة، فيأخذونه من غير حله وينفقونه في غير محله، وبهذا يصير المال فاسدا ومفسدا، ولا يتوقف ضرر الفساد المالي على الاقتصاد وحده، بل يؤدي إلى مشكلات اجتماعية، وسياسية، وأمنية، وغيرها.

ولأجل ذلك عظم الإسلام حرمة المال وجعل صيانتها وحفظه من الضرورات الخمسة التي تقع ضمن مقاصد الشريعة الغراء، وقد جاءت الآيات تحذر من السرقة وأكل أموال الناس بالباطل ومن الإسراف والتبذير، وكذلك جاءت أحاديث كثيرة في هذا الباب من أهمها قوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ رَجَالًا يَتَحَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>1</sup>، وقوله: "إِنَّ هَذَا الْمَالَ حَضِرَةٌ حُلُوءٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِسْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"<sup>2</sup>.

وبين الله تعالى أن المال فتنة فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>3</sup> [التغابن: 15]، وفي هذه الفتنة سقط الكثير من الناس، وعندما يزداد السقوط ويعم وينتشر، فإنه يؤدي إلى سقوط عام، في المجتمع والأمة، وهكذا يكون الفساد المالي من أخطر أنواع الفساد، ومن أوضح السنن الإلهية في سقوط الأمم وانهارها.

وقد تنبه الشيخ محمد رشيد إلى سنن الفساد المالي وأثرها في سقوط الأمة، ونبه إليها في تفسيره المنار، فبين كيف دعا الإسلام إلى تطهير المال من خلال الصدقة وبذل بعض ما في اليد، والبعد عن أكله بالباطل، فالذي يتربى على الإيمان، يظهر نفسه من مفاصد البخل وآثار الدناءة ومضار الجشع والطمع والأثرة، ويحذر من نهب الأموال بالإثم ومن السرقة والخيانة والربا وما شابه ذلك، وهذا التطهير للأفراد يستلزم تطهير

<sup>1</sup> صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى: {فَأَنْ لَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ} الأنفال: 41 ح 3118/4 85

<sup>2</sup> مسند الإمام أحمد بن حنبل، ح 15574، 341/24، في الهامش قال المحققون، إسناده صحيح على شرط الشيخين

المجتمع المؤمن من الآفات ومن كل ما يؤدي إلى العداوة والبغضاء والحقد والحسد، ثم الفتنة والحرب، إلى أن قال في أهمية المال وتفاوت الناس في كسبه وإنفاقه: "الأموال قوام حياة الناس وقطب الرحي لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتمثير، والإسراف والنقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه.. ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في الاستعداد والأخلاق والأعمال"<sup>1</sup>.

وقد فصل الشيخ وتوسع في بيان سنة الله تعالى في الفساد المالي وأثره على الأمة، وسأعرض ذلك في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: فساد المال من حيث أخذه بالباطل وأثر ذلك على الأمة

تحدث الشيخ عن السنن في الفساد المالي من حيث أخذه بالباطل وكيف أن هذا الأخذ المحرم سبب في هلاك الأمم وفساد المجتمعات، وسأبين ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: المراد من أكل المال بالباطل

تحدث القرآن الكريم عن أخذ الأموال بالباطل أو ظلماً بغير حق، وسمى ذلك أكلاً لها، ففي سورة البقرة قال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]، وفي سورة النساء قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10] وقال أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29] وتسمية أخذه بالباطل أكلاً لأن المراد من المال في الغالب هو الأكل، قال

البقاعي: "ولا تأكلوا" أي يتناول بعضكم مال بعض، ولكنه عبر بالأكل لأنه المقصد الأعظم من المال"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 22/11

<sup>2</sup> البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 94/3

وقد أكد الشيخ الحكمة من تسمية أخذ الأموال بالباطل بالأكل، فبين أن المراد بالأكل مطلق الأخذ، وأن التعبير بكلمة أكل بدلا من أخذ تعبير موجود في لغة العرب قبل نزول هذه الآيات ومنشأ ذلك أن الحاجة للمال في الغالب من أجل الأكل، وإن كان البعض يقدم أحيانا أهواءه على الأكل وينفق ماله في ذلك فهذا لا يبطل أن الحاجة الأساسية للمال هي الطعام وإصلاح البنية في الأعم الغالب<sup>1</sup>.

ثم أنتقل إلى بيان الباطل المراد أكل المال به، فبين أنه كل ما لم يكن في مقابلة شيء حقيقي، إذ حرم الشرع أخذ الأموال من غير أن يقابل ذلك شيء حقيقي معتد به ورضاء المأخوذ منه، وحرّم إنفاقها فيما لا نفع فيه أو وجه صحيح، ثم نقل عن الإمام أنواعا كثيرة من هذا الباطل الذي تؤكل به الأموال، فذكر من ذلك الصدقة على القادر على كسب يكفيه، ومن ذلك الربا كونه أخذا من غير مقابل واستغلالا للمحتاج، ومنه الاعتداء وغصب المنفعة من الناس، كأن يتم تسخير العمال في أعمال معينة ثم لا يعطوا أجورهم، ثم ذكر أمثلة كثيرة من حالات الاعتداء والغش والخداع وذكر ما يفعله السماسرة من تزيين الرديء في أعين الناس والبضاعة الفاسدة والمزجاة، ويدلسون عليهم ويغررون بهم حتى يورطوهم<sup>2</sup>.

وذكر الشيخ الميسر الذي حرمه الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحُمُورُ الْمَيْسُورُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90] كنوع من أنواع أكل المال بالباطل وذكر أن الإمام قد نبه إلى أثر الميسر على العمران بكلام لم يسبقه إليه أحد من المفسرين، حيث قال عنه: "وهو إفساد التربية بتعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال الياسرين (المقامرين) للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 157/2

<sup>2</sup> تفسير المنار 158/2

<sup>3</sup> تفسير المنار 261/2

وعند تفسيره آية النساء ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَأْكُلُوا ءَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ [النساء: 29] نقل الشيخ عن الأستاذ الإمام، أن الآية جاءت في سياق الحديث عن الحقوق المالية لليتامى والنساء والأقارب، فجاءت هذه الآية لتذكر قاعدة عامة للتعامل المالي بين الناس، وبين أن في إضافة الأموال إلى الكل لا إلى البعض، تنبيه إلى ما تم إقراره في مواضع عدة من ضرورة التكافل بين أبناء الأمة الواحدة في المصالح والحقوق، فكأنه يقول لنا إن ما يملكه الفرد من مال هو مال الأمة، فإذا رضي أكل مال الآخرين بالإثم والعدوان فقد أباح للآخرين ان يأكلوا ماله وان يهضموا حقوقه، لأن المرء يُدان بما به يدين، ثم بيّن الإمام أن مما تشير إليه هذه الإضافة أن من يحوز المال ويملكه يجب أن ينفقه أو ينفق منه على المسكين والفقير والمحتاج، فكما لا يجوز لصاحب الحاجة أن يأخذها بالباطل غصبا أو سرقة فلا يجوز لمن يملك المال أن يشح ويبخل به على من هو محتاج له<sup>1</sup>.

وعقب الشيخ على كلام أستاذه ببيان ضرورة التكافل في المجتمع الإسلامي، وكيف أوجب الإسلام حقا للفقراء في مال الأغنياء، وكيف حث على الإنفاق والعطاء، وبيّن أن تعاطي المال بين الناس يكون بالتراضي وعن طيب نفس حتى يكون دافعهم إلى الإنفاق من داخلهم، فيعظم عندهم العطاء مروءة و نجدة وسخاء ورحمة في الأمة، ولم يبح الشرع للمحتاج أخذ حاجته من غير إذن ورضى صاحب المال، ولأن في هذا الأخذ بالباطل مضرتين، الأولى وقف ما ذكرنا آنفا من فضائل وقطع أسبابها، والثانية أن يتكل الكسالى على عمل وأرزاق غيرهم، وفي ذلك ما فيه من هبوط بالقيم الإنسانية وانحراف في نظام المجتمع، ثم علل كلامه ووضحه بقوله: "إن الناس خلقوا متفاوتين في الاستعداد، فمنهم المغمول<sup>2</sup> المخلد إلى الكسل والخمول، ومنهم محب الشهرة والظهور وتذليل صعاب الأمور، فإذا أبيع للكسالى البطالين، أن يفتاتوا على الكاسيين المجدين، فياخذوا ما شاءوا أو احتاجوا من ثمرات كسبهم بغير رضاهم ولا إذنهم، أفضت هذه الإباحة إلى الفوضى في

<sup>1</sup> تفسير المنار 33/5

<sup>2</sup> هو الإنسان الخامل، ينظر، رضا أحمد، معجم متن اللغة، 328/4

الأموال، والضعف والتواني في الأعمال، والفساد في الأخلاق والآداب، كما لا يخفى على أولي الأبواب، فوجب ألا يأخذ أحد مال أحد إلا بحق، أو يبذل صاحب المال ما شاء عن كرم وفضل<sup>1</sup>.

ثانيا: مفسدة أكل المال بالدين

بيّن الشيخ أن من أقبح أنواع أكل المال بالباطل أن يأكل العلماء وأهل الدين المال بدينهم وما يقدمونه أو يخفونه من علم وفتاوى، وما يوهمون به الناس أنه من الدين، وما هو من الدين: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 78]، وفي هذا الفساد المالي ما فيه من العواقب على الأمة، فقد أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من ذل وهوان لأنهم كانوا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، وليس ذلك قاصرا على اليهود، فكل من فعل فعلهم يصيبه ما أصابهم، وقد نقل عن الإمام أن من أراد رؤية مثالا أو نسخة مطابقة لحال يهود ذلك الزمان فعليه أن يمعن النظر فيما بين يديه من تصرفات بعض علماء المسلمين وشيوخهم، ثم جاء الإمام بوقائع كان عليها يهود ذلك الزمان وطابقتها مع حال المسلمين اليوم، فذكر ما يفعله القضاة والمأذنون والعلماء والوعاظ من أمور فسقوا بها عن أمر الله، وتأولوا أفعالهم بأنهم يريدون منها مصلحة الأمة واغتروا بذلك، فأصابهم ما أصاب علماء اليهود الذين أفتوا بأكل الربا ليحصل الغنى لشعبهم، وبعض هؤلاء يفعل ذلك عمدا وهو يعلم أنه مبطل، ويظن أن تنفعه الأمانى وتغره الشفاعات ومكفرات الذنوب<sup>2</sup>.

وقد ذكر ما كان شائعا في زمانه من أكل للأموال بالباطل باسم الدين حيث كان بعض الدجالين يوهمون الناس بما يفعلونه من باطل أنه الحق، فقال: "ومن هؤلاء الموهمين باعة التولات<sup>3</sup> والتنجيس والتمايم، وكذا العزائم، وختمات القرآن، والعدد المعلوم من سورة (يس) أو بعض الأذكار<sup>4</sup>".

<sup>1</sup> تفسير المنار 34/5

<sup>2</sup> تفسير المنار 299/1

<sup>3</sup> التولات جمع تولة وهي ما تحمله المرأة ليجبها زوجها، التولة والتولة شيء يشبه السحر يجب المرأة إلى زوجها، ينظر، ابن عباد، المحيط في اللغة، 380/2. والتنجيس والتمايم ما يحمل لنحو ذلك أو للعين من الخرز والعظام التي تعلقها النساء على الأطفال للحفظ من الشياطين،

<sup>4</sup> تفسير المنار 158/2

وحمل الشيخ على الذين يشترون آيات الله ثمنا قليلا، ولم تقتصر حملته على أبحار ورهبان أهل الكتاب بل كانت أشد وأقسى على مشايخ المسلمين الذين يستغلون جهل العامة، فيأكلون أموالهم باسم الدين، فعند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34] ذكر من أنواع أكل أموال الناس بالباطل، المال الذي يقدمه البسطاء لمن يظنونه عابدا زاهدا ورعا في هذه الحياة ويعتقدون بنفع دعائه، فيبدلون لهم المال طلبا لدعائهم وشفاعتهم في قضاء الحاجات وشفاء المرضى، ويعتقدون أن دعاءهم لا يرد وأن شفاعتهم مقبولة عند الله، ومن ذلك ما يعطى من الأموال والهدايا للسدنة عند القبور والقباب المقامات المعروفة للأولياء والصالحين أو الأنبياء، وما يحمله الجهلة ممن لا يفقهون معنى التوحيد الخالص إلى تلك الأماكن، والمسلمون في ذلك يتبعون من سبقهم من أهل الكتاب، فقال الشيخ: "النصارى بينون الكنائس والأديار بأسماء القديسين والقديسات، فتحبس عليها الأراضي والعقارات، وتقدم لها النذور والهدايا تقربا إلى تلك الأسماء أو المسميات، وهذا وما قبله مما اتبع المسلمون فيه سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، مصدقا للحديث النبوي<sup>1</sup> الصحيح"<sup>2</sup>.

وقام الشيخ ببيان بعض حيل وأساليب الأبحار والرهبان في أكل أموال الناس بالباطل، فذكر ما يحصل عند بعض فرق النصارى حيث يأخذ الرهبان هبة أو ثمنا مقابل غفران الخطايا والآثام، ويبررون ذلك بما يسمى سر الاعتراف، حيث يأتي الشخص رجلا كان أو امرأة إلى الكاهن الذي أذن له رئيسهم الأكبر أن يسمع أسرار المذنبين التائبين وأن يغفر لهم، حيث يخلو بالمعترف الذي يحدثه بكل ما فعل -أو فعلت- من منكرات وفواحش على شتى أنواعها ويطلبون منه غفرانها، وذكر ما يؤخذونه مقابل الفتاوى التي يحلون بها الحرام ويحرمون بها الحلال، فبطمعهم وأهوائهم يقدمون الفتاوى المطلوبة للحكام والسلاطين وأصحاب الثروات

<sup>1</sup> عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لتبتعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلخوا جحر ضب لسلكتموه"، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: "قمن"، صحيح البخاري، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح 3456، 169/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 344/10

لمساعدتهم في إشباع شهواتهم، والنكاية في خصومهم، أو ظلم الرعية، يفعلون ذلك متحايلين على الشرع متأولين لباطلهم، ويصورون النوازل الواقعة على غير حقيقتها، وعندما تحدث عما توعد الله به من يفعلون ذلك، بين أن الآية ليست خاصة في أهل الكتاب وحدهم وإنما تشمل من شابههم، وهي تحذير للمسلمين أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم، فيحل عليهم ما حل بهم، فالآية لم تنزل في أهل الكتاب وحدهم بل جاءت: "تحذيراً للمؤمنين من الإخلاق إلى هذه السفالة. وسيأتي عن أبي ذر . رضي الله عنه . أنها فينا وفي أهل الكتاب جميعاً<sup>1</sup>، وهو المختار عندنا، فإن اللفظ مطلق فيجب جريانه على إطلاقه وعمومه، وأولئك الأبحار والرهبان يدخلون فيه أولاً وبالذات بدلالة السياق، لأنهم هبطوا في المطامع المادية إلى أسفل الدرجات"<sup>2</sup>.

وكان الشيخ عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174] قد نقل عن أستاذه ما أصاب اليهود من تقطيعهم في الأرض وتسليط أعدائهم عليهم بسبب كتمانهم لآيات الله وشرائعهم بها ثمنا قليلا، وأن العذاب الأليم قد أصابهم في الدنيا قبل الآخرة، ثم بين أن هذا الحكم لا يجري على اليهود وحدهم، ثم قال: "قال المفسرون: إن هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب لأن الغرض تقرير الحكم وهو عام كما يدل لفظه، وكما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين، وكما هو ظاهر معقول من اطراد سنة الله تعالى في تأييد أنصار الحق وخذل أهل الباطل فإنها واضحة جلية للمتأملين"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> ينظر الرواية عن أبي ذر، ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، 151/17

<sup>2</sup> تفسير المنار 349/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 83/2

### ثالثاً: السحت والرشوة مفسدة للمال

تحدث الشيخ عن مفسدة خطيرة في المال، تصيب نسيج المجتمع بالتحلل وعقده بالانفراط، ألا وهي الرشوة، فالرشوة تأتي من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل، بمعنى أنها تقع من الرعية للحكام، والعكس صحيح فتكون من الحكام للرعية، فالعامة من الناس يبتغون من وراء الرشوة التزلف إلى الحاكم لنيل منصب أو شفاعة في أمر ما، والحاكم يبغي من خلال الرشوة ان يتواطأ معه العامة في باطله، أو يسكتوا عن ظلمه واستبداده.

وقد ذكر الشيخ الرشوة كوجه من وجوه أكل أموال الناس بالباطل فقال: "ومنها الرشوة وهو ما يأخذه صاحب السلطة الدينية أو المدنية رسمية أو غير رسمية من المال وغيره، لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق، أو إحقاق باطل هو في معنى الأخذ على الفتوى، وهما مما اتبع فيه بعض فقهاء المسلمين وحكامهم سنن أهل الكتاب أيضاً"<sup>1</sup>، فيظهر هنا أن الرشوة لا تقتصر على الحكام، بل يأخذها المحكومون وخاصة رجال الدين الذين يخفون ما أنزل الله ولا يقومون بتبليغه للعامة أيا كان موضوعه، أو يكتمون المعنى تأويلاً أو تحريفاً أو وضعاً له في غير محله اجتهاداً باطلاً منهم، فيستبدلون الحق بثمن قليل من متاع الحياة الزائل، وهذا المتاع يبينه الشيخ فيقول: "كالرشوة، والجعل على الفتاوى الباطلة، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع الموقته إذ اتخذوا الدين تجارة. والثمن القليل منه استعادة الرؤساء من المرءوسين"<sup>2</sup>.

وقد تحدث الشيخ عن السحت الذي اعتاد أحبار اليهود أكله، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42] نقل عن الصحابة -رضي الله عنهم- تفسيرهم للسحت بالرشوة، فابن مسعود فسره بالرشوة في الدين، وابن عباس بالرشوة في الحكم، وعلي بالرشوة

<sup>1</sup> تفسير المنار 346/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 82/2

مطلقاً، ونقل عن عمر قوله: "بابان من السحت يأكلهما الناس، الرشاء في الحكم، ومهر الزانية"<sup>1</sup>، ثم خاض في مبحث لغوي حول أصل كلمة السحت، ليخلص بعد ذلك إلى أن السحت هو استئصال الشيء، والمراد به هنا ما يستأصل دين الإنسان وشرفه لشدة قبحه وعظيم ضرره، ولما فيه من سوء العاقبة والأثر السيء، ثم قال: "وسمي الكسب الخسيس والحرام سحتاً؛ لأنه يستأصل المروءة أو الدين، والرشوة تستأصل الثروة، وتفسد أمر المعاملة، وتستبدل الطمع بالعفة، وكان أحبار اليهود ورؤسائهم في عصر التنزيل كذابين أكالين للسحت من الرشوة وغيرها من الخسائس، كدأب سائر الأمم في عهد فسادها وانحطاطها"<sup>2</sup>.

وهكذا يقرر الشيخ أن السحت غالباً ما يأتي بمعنى الرشوة، وأن الرشوة تُفسد المعاملة وتستأصل الثروة، وتساهم في فساد الأمم وانحطاطها، ثم بيّن أن ما أصاب أحبار اليهود قد أصاب المسلمين، وأصاب رؤساء الدين فيهم، وكثيراً من حكاهم الشرعيين والسياسيين، حتى يرتشون من طلاب العلم كي يشهدوا بالباطل لهم أنهم أصبحوا من أعلام العلماء ويمنحونهم ما يسمى شهادة العالمية، وذكر الشيخ واقعة حصلت مع الإمام إذ تقدم إليه أحد طلاب الأزهر ليساعده في الامتحان المؤهل لشهادة العالمية، وعرض على الإمام ثلاثين جنياً، وذلك لعلمه أنه لا يمكنه النجاح بنفسه وأنه غير مؤهل للشهادة، فما كان من الإمام إلا أن انفعل انفعالاً شديداً ولم يتمالك نفسه فقام بضربه ضرباً مبرحاً، وقال: "أتطلب مني في هذه السن أن أغش المسلمين بك لتفسد عليهم دينهم بجهلك، بهذه الجنيئات الحقيرة في نظري العظيمة في نظرك، وأنا الذي لم أتدنس في عمري، حتى ولا بقبول الهدية ممن أنقذتهم من الموت؟! ولو كنت ممن يتساهل في هذا لكنت من أوسع الناس ثروة"<sup>3</sup>.

وتحدث الشيخ في موضع آخر عن أثر الرشوة في إضعاف الأمم، وإزالتها عن عرش عزتها وقوتها، فعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْدَانِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا

<sup>1</sup> ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، باب في الوالي والقاضي يهدى إليه، ح 21956، 4/443، وليس فيه جملة في الحكم، ولكنها وردت عند السيوطي في الدر المنثور والحديث عنده موقوف على ابن عمر رضي الله عنه- ينظر، السيوطي، الدر المنثور، 3/81

<sup>2</sup> تفسير المنار 6/325

<sup>3</sup> تفسير المنار 6/325

أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَشَنَّةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ [الأنفال: 27-28]، تحدث عن الذين يتحلون بالإيمان، وينتهكون حرمة دينهم خيانة لله ولرسوله، ويخونون البلاد والأمة بئمن بخس يأخذونه من الأعداء، أو تزلفا لهم حرصا على أموالهم وأولادهم قبل أن تتم وتستقر سلطتهم في بلاد المسلمين، ثم قال: "وقد أسقطت الخيانة دولة<sup>1</sup> كانت أعظم دول الأرض قوة وبأسا بارتكاب رجالها الرشوة من أهلها، ومن الأجنبي حتى مُسخت فصارت دويلة صغيرة فقيرة"<sup>2</sup>.

وليس هناك كلام أوضح من هذا الكلام في بيان خطورة الفساد المالي المتأتي من الرشوة، وكون ذلك من السنن الإلهية في سقوط الأمم وانهارها.

### المطلب الثاني: فساد المال من حيث إنفاقه في الباطل وأثر ذلك على الأمة

المال في أصله هو مال الله، وإن الإنسان مستخلف فيه وممتحن، قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكَمْ﴾ [النور: 33]، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] فإذا ساقه الله تعالى لإنسان فحصل عليه لا يعني ذلك أنه أصبح ذا حرية مطلقة في التصرف به كما يشاء، فالله تعالى مراقب ومحاسب لنا فيما نفعل فيه، وإن أخطر ما نفعله أن ننفقه في الباطل بطرا وإسرافا وترفا.

وقد تحدث الشيخ محمد رشيد في تفسيره عن هذا الإنفاق في الباطل وجعله من سنن الفساد المالي المؤدية إلى فساد النفوس والمجتمعات وإهلاك الأمم، وسأبين ذلك في هذا المطلب على النحو الآتي:

أولا: مفسدة الترف

بدأت الحديث عن الترف قبل الإسراف لأنه هو السبب في الإسراف والباعث عليه، وهو نوع من البطر، فعندما تحدث الشيخ عن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي

<sup>1</sup> يعني الشيخ بذلك الخلافة العثمانية التي وصلت قلب أوروبا ثم تراجعت وتحولت إلى الدولة التركية.

<sup>2</sup> تفسير المنار 537/9

الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ [هود: 116]، بين أن الذين ظلموا وهم الأكثرون، اتبعوا ما أترفوا فيه، أي ما رزقناهم وآتيناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا، ثم فسّر الترف بقوله: "يقال: أترفته النعمة أي أبطرته وأفسدته، والبطر: الطغيان في المرح وخفة النشاط والفرح"<sup>1</sup>، ثم بين أن الإجرام تولّد عن الترف فتلبس به الظالمون، ورسخوا فيه، لأن الترف قد سيطر على عقولهم وسخرها لترجيح ما أعطوا من متاع الدنيا على اتباع الرسل، ثم قال: "إن العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما في دعوة الرسل عليهم السلام من الخير والصلاح، لو لم يمنع من استعمال هدايتها الافتتان بالترف، والتفنن في أنواعه، بدلا من القصد والاعتدال فيه، وشكر الله المنعم به عليه، فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان"<sup>2</sup>.

لقد تحدث الشيخ عن الترف وكونه سببا في هلاك الأمم، فقال: "وأطباء الاجتماع مجمعون على أن الإسراف في الفسق والترف مفسد للأمم، وأن الظلم والبغي بغير الحق، والغلو في المطامع والعلو في الأرض، والتنازع على الاستعمال، كل ذلك من أسباب الهلاك والدمار"<sup>3</sup>، وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا فَكُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِمْ يَوْمَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 6] تحدث عن إهلاك الأمم بذنوبها بعد أن أنعم عليها بالتمكين في الأرض والإمداد بالرزق من خيرات السماء والأرض، وأنه بعد الهالكين أنشأ مكانهم قوما غيرهم ليعمروا الأرض ويكونوا أجدر بمقابلة نعم الله بالشكر لا بالكفر، ثم بين أن الذنوب التي تصيب الأمم فيهلكها الله بها قسما، الأول معاندة من بعث إليهم وتكذيبهم فيما أتوا به، والثاني جحود نعم الله وكفرانها أشرا وبظرا وكبرا واستعلاء، واحتقار العامة وظلم ضعفاء الناس ومهادنة أقيائهم، ثم تجاوز حدود الله إسرافا وفسقا وفجورا، واغترارا بما آتاهم الله من غنى وثروة فكل ما سبق من الجحود لنعم الله ووضعها في ما لا

<sup>1</sup> تفسير المنار 158/12

<sup>2</sup> تفسير المنار 158/12

<sup>3</sup> تفسير المنار 360/8

يرضى الله تعالى، ثم جاء بالآيات الدالة على إهلاك الأمم بالتترف والبطر فذكر قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16] ثم قال بعد ذلك: "وفي هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم"<sup>1</sup>.

وتحدث الشيخ في موضع آخر عن الآية الأخيرة التي ذكرت آنفا، فقرر أنها من سنن الاجتماع البشري التي مضت في الأمم<sup>2</sup>، وذكر من تفاسير (أمرنا مترفيها) قول بعض المفسرين: كثرناهم<sup>3</sup>، بمعنى أن كثرة المترفين في الأمة سبب في استحقاقها الهلاك والدمار، ثم بيّن لاحقا أن عقاب الأمم بذنوبها في الدنيا مطّرد، ولكن لها آجالا ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها في القوة والضعف، ثم قال: "فإذا ظهر الظلم واختلال النظام ونشأ الترف وما يلزمه من الفسق والفجور في أمة من الأمم تمرض أخلاقها فتسوء أعمالها وتتحل قواها، ويفسد أمرها وتضعف منعنها، ويتمزق نسيج وحدتها، حتى تحسب جميعا وهي شتى - فيغري ذلك بعض الأمم القوية بها، فتستولي عليها، وتتناثر بخيرات بلادها، وتجعل أعزة أهلها أذلة. فهذه سنة مطردة في الأمم على تفاوت أمزجتها وقواها"<sup>4</sup>.

وقد وضح الشيخ أن الترف مهلك للأمم القوية وإهلاكه للأمم الضعيفة أشد، فتحدث عن الترف الذي أصاب بلاد الغرب وبيّن أنه سيؤدي بها إلى الهلاك وإن كانت تؤخر ذلك بما عندها من قوة وأخذ بأسباب وسنن أخرى تساعدها على البقاء، في حين أن بلاد المسلمين أسرع إلى الهلاك، لكونها بلاد ضعيفة لم تأخذ بأسباب القوة، وقد اتبع الترف فيها الأكثرون من الملوك والزعماء وأصحاب المناصب فقال الشيخ: "فإذا كان فسق الإتراف يهلك الأمم القوية، فكيف تبقى مع اتباعه وفساده الأمم الضعيفة؟ وكيف يزول والمتبعون له

<sup>1</sup> تفسير لمنار 258/7

<sup>2</sup> تفسير لمنار 29/8

<sup>3</sup> روى الطبري هذا المعنى عن ابن عباس وعن عكرمة والحسن والضحاك وقتادة، ينظر، الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 530/14

<sup>4</sup> تفسير المنار 278/8

هم الملوك والأمراء، والزرعاء والحكام، والكتاب والخطباء، وهم الأكثرون الظاهرون، والناهون عن فسادهم الأقلون الخاملون؟<sup>1</sup>.

وبين الشيخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129] أن الترف عندما يتلبس بالملوك، يسارع الهلاك إلى الأمة، فعندما يقع الملك في الترف ويصبح همه الاستمتاع بلذاته الجسدية وتأخذه النشوة بعظمة سلطانه وهو يرى حاشيته المترفة مثله ومن اتخذهم وزراء وبطانة سوء، فيتبعهم العامة من الناس ويقلدونهم فيما يعملون إذ أنه كما قيل الناس على دين ملوكهم، وهكذا يغلب الفساد الصلاح ويكون الفسوق والانحراف أعم من الاستقامة والاتباع. وبهذا هلكت الأمم باضمحلال أهلها وتسلط الأقوياء عليها، واستدل بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَمْرًا مُمْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]، ثم قال: "ولما كان الملك المترف يفسد الأمة حتى تهلك، كان الملك الصالح يصلح الأمة الفاسدة باتخاذ الوزراء والقواد والبطانة والحاشية له من الصالحين المصلحين الذين يقيمون ميزان الحق والعدل، ويكونون قدوة للناس في العفة والاعتدال والقصد"<sup>2</sup>، وهكذا يظهر من كلام الشيخ أن سنن النهوض تقابلها سنن السقوط، فكما أن صلاح الملوك والقادة والبطانة من أسباب صلاح الأمة ونهضتها فإن فسادهم وترفهم من أسباب فسادها وسقوطها.

وقد أكد الشيخ على هذا المعنى عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَهْدِي لِّلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصَابَتْهُمُ ذُنُوبُهُمْ وَنَطَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100] فبين أنه ينبغي لمن يستخلفهم الله في الأرض، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك والملك أن يتقوا الله، ولا يكونوا من المفسدين الظالمين، ولا من المترفين الفاسقين، وأن يعلموا أن من المحتم عقاب الأمم على السيئات، وقد

<sup>1</sup> تفسير المنار 159/12

<sup>2</sup> تفسير المنار 90/8

خلت من قبلهم المثلات، ثم قال: "والمراد فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار، فلا هواده فيه ولا ظلم ولا محاباة"<sup>1</sup>.

ثانيا: مفسدة الإسراف

حذرنا الله تعالى من الإسراف في أكثر من آية في القرآن الكريم، وبين أنه لا يحب المرفين فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31] ذلك أن الإسراف من سنن سقوط الأمم وهلاكها، وقد وضح الشيخ محمد رشيد ذلك خلال تفسيره في أكثر من موضع، وكنت قد ذكرت آنفا أن الشيخ جعل الإسراف من دواعي الترف، ولذلك وجدته كثيرا ما يقرن بينهما، وذلك إشارة إلى أن الإسراف غالبا ما يكون فيما حرمه الله تعالى من منكرات أو مبالغة في إشباع الغرائز والشهوات، وبين أن ذلك مما له الأثر البالغ في ضعف الأمة وتفرقها، وذكر: "فشو الفسق والإسراف في الترف والنعيم المفسد للأخلاق.. الذي تأثم به الأمة كلها"<sup>2</sup>، ثم أكمل وذكر خلال حديثه في ختام سورة الأنفال عن السنن الإلهية في أفراد البشر وأمهم في السنتين الثالثة والرابعة أن الافتتان بالأموال والأولاد يؤدي إلى الإسراف، وإن ذلك مدعاة لضروب من الفساد، فقال: "فإن حب المال والولد من الغرائز التي يعرض للناس فيها الإسراف والإفراط إذا لم تهذب بهداية الدين، ولم تشذب بحسن التربية والتعليم"<sup>3</sup>.

وعندما عدد الشيخ ما بدر له من أهم أصول الإصلاح الإسلامي في المسألة المالية ذكر أن الإسلام "ذم الإسراف والتبذير، والبخل والشح والتقتير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير، أي للأفراد وللأمة والدولة"<sup>4</sup>. وبين الشيخ في موضع آخر أن الأمة بإسرافها في الترف تكون مرتكبة لأسباب الهلاك، مستدعية لها بلسان حالها وفعلها إن لم يكن بلسان قولها، ولا يمكن لها أن ترد الهلاك أو تؤخره إلا كما قال الشيخ: "بأن تترك

<sup>1</sup> تفسير المنار 27/9

<sup>2</sup> تفسير المنار 122/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 122/10

<sup>4</sup> تفسير المنار 25/11

الفواحش والآثام، والظلم والبغي، والفساد في الأرض، والإسراف في الترف المفسد للأخلاق، وخرافات الشرك المفسدة للعقول والأعمال"<sup>1</sup>.

وقد جعل الشيخ الإسراف من الرذائل العملية التي ترتكبها الأمم وذلك خلال حديثه عما ارتكبه الأقوام التي ورد ذكرها في سورة هود فقال في ملخص السورة: "وأما الرذائل العملية التي اشتهر بها أولئك الأقوام فأجمعها للفساد إسراف بعضهم في الشهوة البدنية، وإسراف آخرين في الطمع المالي"<sup>2</sup>.

وتحدث الشيخ عن المبذرين وأنّ الله سماهم (إخوان الشياطين) لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال، ثم انتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29]، وبين أن ختام الآية جاء يبين عاقبة المسرف الذي حاد عن حد الاعتدال في النفقة فقال: "فعل الإسراف في الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ومحسورا في نفسه، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى، ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه، والمحسور المغموم أيضا. وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة، يوقعه إسرافه في العدم والفقر الخ"<sup>3</sup>، وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الأمم، فعندما تقع الأمة وأمراؤها في الإسراف ويخرجون عن حد الاعتدال، فإنها معرضة لأن تنحسر عنها قوتها وأن تقع في الضعف والعوز.

ولا بد من التنبيه هنا أن الهروب من الإسراف لا يعني الوقوع في البخل، فإن المال غير مذموم لذاته، كما بين الشيخ، وإن بذل المال في وجوه الخير من آيات الإيمان، وإن الله تعالى نكر النبي بفضله عليه إذ كان عائلا فأغناه، وجعل المال قوام الأمم ومعززا لأركان الدين فيقوم به ركنان من أركانه<sup>4</sup>، وهو من أعظم وسائل

<sup>1</sup> تفسير المنار 359/8

<sup>2</sup> تفسير المنار 188/12

<sup>3</sup> تفسير المنار 205/11

<sup>4</sup> يعني بالركنين، الزكاة والحج

التقرب والتزلف إليه عز وجل، وجاء بقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي"<sup>1</sup>، ثم قال: "وهو تعالى ينهى عن الإسراف والتبذير في إنفاقه كما ينهى عن البخل به"<sup>2</sup>.

وهكذا يتبين لنا أن الترف والإسراف من وجوه إنفاق المال بالباطل الذي حرمه الله تعالى وجعله من سنن سقوط الأمم واندثارها، وقد اقتصرنا على الحديث عن الترف والإسراف لكون الترف يشمل وجوه الإنفاق المحرمة التي يراد منها إشباع الغرائز والشهوات، وعندما تتحول الأمة إلى أمة مادية غرائزية، وتستعمل نعمة الله في غير ما أحله لها وتسرف في هذا الاستعمال، من غير أن تعرف حق الله في هذه النعم، تكون بذلك أمة جاحدة كافرة بأنعم الله، ولا بد أن تجري عليها سنة الله المطردة التي قد جرت على الأمم السابقة، وقد صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمٍ كَانَتْ أُمَّةً مُّطْمَئِنِّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]، وهل

هناك أشد وأقسى على الأمة من أن يبذل الله تعالى رزقها وأمنها إلى جوع وخوف؟.

<sup>1</sup> صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ح 2965، 4/ 2277

<sup>2</sup> تفسير المنار 202/3

## المبحث الخامس: السنن في الضعف العسكري وسقوط الأمم في تفسير المنار

لم تكن معارك المسلمين كلها فوزا وانتصارات، فقد وقعت في الأمة عبر تاريخها الطويل العديد من الهزائم والانكسارات، وكان من أول هذه الهزائم هزيمة معركة أحد التي جاءت بعد عام واحد من نصر بدر، فلئن ذاق المسلمون حلاوة النصر، فقد تجرعوا مرارة الهزيمة لتكون دروسها أشد وضوحا وأعمق أثرا في النفوس، فإذا كان للنصر سننه وأسبابه وعوامله، فكذلك للهزيمة سننها وأسبابها وعواملها، ويعد كتاب (عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي) للدكتور شوقي أبو خليل<sup>1</sup> من أفضل ما كتب في هذا الجانب، فقد شدد على بيان المعارك التي خسر وهزم فيها المسلمون، ثم بيان أسباب وعوامل الهزيمة والخسران.

ويتحدث الشيخ محمد الخضر حسين عن أهمية الروح العسكرية في تحقيق النصر أو جلب الهزيمة، فإذا قويت هذه الروح في قوم كان النصر حليفهم، وإذا ضعفت كانت عاقبتهم الهزيمة والخسران، وقد بين أن قوة الروح العسكرية في القوم تكون إذا طُبعوا على خُلُق الشجاعة، واستتارت أذهانهم بمعرفة فنون الحرب، وملكوا من وسائل الدفاع ما يقتضيه حال العصر، وعلى العكس تماما تضعف هذه الروح في قوم امتلأت قلوبهم بالجبين والرعب، وأهملوا الإعداد واتباع نظم الحرب وفنون القتال، فقال -رحمه الله-: 'فالظفر في الحرب بعيد من الجبناء، وبعيد ممن لا يعدون للحرب عُدَّتْها، وبعيد ممن يهملون النظم التي يملئها العلم، أو يستمدُّها القُواد الأذكىء من الوقائع نفسها'<sup>2</sup>.

ولا شك أن هذه الأصول في قوة الروح العسكرية وضعفها مستنبطة من القرآن الكريم، إذ أن القرآن الكريم قد اعتنى بهذه الأصول الثلاثة عناية كبيرة، فأرسل الحُكْم التي تُرَبِّي في النفوس خُلُق البطولة، وحفز الدواعي لإعداد وسائل الحرب، ونَبَّه لاتباع النظم التي تخفِّف وطأة الحرب، وتقرَّب من النصر، وهذا ما نطلق عليه الجانب العسكري من السنن الإلهية في نهضة الأمم وسقوطها.

<sup>1</sup> الدكتور شوقي أبو خليل من مواليد بيسان في فلسطين وهاجر مع أسرته عام 48م واستقر في سوريا ودرس التاريخ ودرسه وله عشرات المؤلفات الصادرة عن دار الفكر، ومنها هذا الكتاب الذي أصدره عام 1979م. ينظر موقع دار الفكر آفاق معرفة متجددة،

<https://web.archive.org/web/20100927110149/http://fikr.com/?Prog=article&Page=details&linkid=978>

<sup>2</sup> ينظر الخضر حسين، محمد (الروح العسكرية في الإسلام). موسوعة الأعمال الكاملة للإمام، ج1/10 ص41.

وإذا كانت القوة العسكرية وسننها الإلهية باعثة لنهضة الأمة وعزتها، فإن الضعف العسكري ومسبباته من السنن المؤدية إلى سقوط الأمم واندثارها، وإذا كنت قد تحدثت في الفصل السابق عن السنن العسكرية في نهضة الأمم فإني سأحدث هنا عن السنن العسكرية في سقوط الأمم، وذلك وفق ما جاء في تفسير المنار، من خلال المطالب الآتية:

### المطلب الأول: التنازع سبب في الضعف الفشل

أكثر ما يوهن الجيوش ويؤدي إلى الضعف والفشل العسكري هو التنازع والاختلاف وانعدام الطاعة من المرؤوسين للرؤساء وقد بين الشيخ ذلك مستنبطاً إياه من آيات القرآن، وخاصة قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46] فبين الشيخ عند تفسير الآية خطورة الاختلاف وما يسببه من تنازع يؤدي إلى الهزيمة والفشل، وما في ذلك من خيبة وتراجع عن إنفاذ الأمر والوصول إلى الهدف، وإن أكثر أسباب التنازع الضعف والجبن، ثم فسّر ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بقوله: "وتذهب ريحكم فمعناه تذهب قوتكم، وترتخي أعصاب شدتكم فيظهر عدوكم عليكم. والريح في اللغة الهواء المتحرك، وهي مؤنثة وقد تذكر بمعنى الهواء، وتستعار للقوة والغلبة إذ لا يوجد في الأجسام أقوى منها، فإنها تهيج البحار، وتقتلع أكبر الأشجار، وتهدم الدور والقلاع"<sup>1</sup>. ونقل عن بعض المفسرين قولهم عن الريح إنها تستعار للدولة، لشبهها بها في نفوذ أمرها. ويقولون: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة، وجرى أمره على ما يريد. كما يقولون: ركبت ريحه أو رياحه إذا ضعف أمره وولت دولته<sup>2</sup>.

ثم عاد الشيخ وأكد على التحذير من هذه السنة المؤدية للضعف العسكري عند تلخيص السورة وبيان القواعد الحربية المستفادة منها، فذكر في القاعدة السادسة عشر أن التنازع والتفرق سبب الفشل وذهاب القوة، ولا بد من اتقاء هذا التنازع والتفرق، وقال: "وهذا ما تجري عليه الدول القوية ذات النظام المبني على الشورى في

<sup>1</sup> تفسير المنار 23/10

<sup>2</sup> ينظر الكشاف للزمخشري ج 2 ص 226 وينظر روح المعاني للألوسي 211/5

تنازع الأحزاب، فإنها تبطل هذا التنازع، وتوقف عمل مجالس الشورى النيابية في زمن الحرب، وتكتفي بالشورى العسكرية، وهي مشروعة في الإسلام<sup>1</sup>.

ونقل الشيخ عن أستاذه الإمام كلاما بالغ الأهمية في السنن الإلهية الفاعلة في الأمم حيث بين أن الأمم الفقيرة الذليلة هي الأمم التي لا تتقي أسباب سخط الله ونقمته، وذلك وفق شرعه العادل وسنته الحكيمة، وليس من سنته عز وجل أن يهب الأمم عزا وثروة وقوة وسلطانا من غير عمل وتدبير، وإنما يعطي كل أمة بعملها ويسلبها بقصورها وزللها، إلى أن قال: "فجعل وقوع الظلم سببا في وقوع البلاء على الأمة من ظلم منها ومن لم يظلم، ومن الظلم ترك مقاومة الظلم حتى يفسد ويكسب له السلطان الذي يذهب بكل سلطان، وكقوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46] ولأجل هذه السنة أمر بالاستعداد على قدر الطاقة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] ولا قوة مع الخلاف والنزاع والتفرق والانقسام<sup>2</sup>.

وفي موضع آخر بين الشيخ أن التنازع خلق شيطاني بدأه ابليس في اعتراضه على الله تعالى عندما أمره بالسجود لآدم -عليه السلام- وهذا الخلق يعني أن الطاعة تكون في المغنم دون المغرم وفي ما نحب ونهوى وليس في ما نبغض ونكره، وإن الجند عندما لا يطيعون القائد إلا فيما يحبون وكذلك أي مرؤوسين لا يطيعون رئيسهم إلا على هذه القاعدة الإبليسية، فسيفضي ذلك إلى التنازع والتناحر والضعف وذهاب الريح، ثم إلى الفشل والانكسار، فقال: "فإن الرئيس لأية حكومة أو جيش أو جمعية أو شركة إذا كان لا يطيعه المرؤوسون له إلا فيما يوافق أهواءهم، وآراءهم، لا يلبث أمرهم أن يفسد بأن تختل الحكومة وتسقط، وينكسر الجيش ويهلك، وتتحل الشركة وتفلس، وهكذا يقال في كل مصلحة يقوم بإدارتها كثرة، يرجع نظامها إلى جهة واحدة، كبورج الحرب وسفن التجارة ومعامل الصناعة"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> تفسير المنار 129/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 219/2

<sup>3</sup> تفسير المنار 293/8

وتأكيدا على التحذير من هذه السنة الخطيرة في أسباب الفشل وذهاب القوة يقول في موضع آخر: "أمر الله -تعالى- المؤمنين بالثبات وبكثرة ذكره الذي يشد عزائمهم وينهض هممهم، وبالطاعة له -تعالى- ولرسوله، وكان هو القائد في تلك الواقعة -وطاعة القائد ركن من أركان الظفر- ونهاهم عن التنازع وأنذرهم عاقبته وهي الفشل وذهاب القوة"<sup>1</sup>.

### المطلب الثاني: الغرور والوهن ودورهما في الضعف والفشل

تحدث الشيخ عن عدة عوامل نفسية تؤدي إلى الضعف والفشل، وتسبب الهزيمة والتقهقر في المعركة أمام العدو، فتحدث عن الغرور والبطر من ناحية وعن الوهن والخوف من ناحية أخرى وكلاهما مؤدٍ إلى الهزيمة والفشل:

#### أولاً: الغرور والبطر

لا يتوقف النصر على الأسباب المادية وحدها، بل لا بدّ من الأسباب المعنوية وهي ما أطلقت عليه في الفصل السابق القوى المعنوية في النصر وقدمتها على القوى المادية، فإذا اغتر الجيش بالقوى المادية وغفل عن القوى المعنوية، أصابه البطر، كان ذلك سببا في التراجع والفشل، وقد أصاب العجب والبطر المشركين في غزوة بدر فهزموا شرّ هزيمة، وحذر الله تعالى المسلمين من أن يكونوا كالمشركين فيصيبهم ما أصابهم، ولكنهم عندما لم يلبثوا أن وقعوا في هذا المرض النفسي فأصابهم الغرور والعجب، قبل غزوة حنين، فكان الفرار نصيب المعجبين المغترين بكثرتهم، حتى أبوا إلى رشدهم والتقوا حول نبيهم فمنحهم الله النصر والظفر.

وقد تحدث الشيخ عن ذلك مبينا له كسنن من سنن الله تعالى في النصر والهزيمة، فعند قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ [الأنفال: 47] بين أنه تعالى يريد من المؤمنين امتثال ما أمروا به من الفضائل والانتهاء عما

<sup>1</sup> تفسير المنار 194/3

نهبوا عنه من الرذائل، وألا يكونوا كأعدائهم الكافرين حيث خرجوا من مكة وغيرها من البلاد باستنفار أبي سفيان لهم بطرا واغترارا بما عندهم من نعم وقوة لم يكونوا أهلا لها، فطمعوا بمرءاتهم الناس بهذه القوة والنعم أن يُعجبوا بهم وبما عندهم من قوة وغنى وشجاعة ومنعة وبصدهم عن سبيل الله، فيحمدونهم ويثنون عليهم<sup>1</sup>، ثم نقل عن البغوي تفسيره للآية في معالم التنزيل، حيث قال: "نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر، ولهم بغي وفخر" وذكر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخِيَلِهَا وَقَحْرِهَا، تُحَادُثُكَ وَتَكْذِبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرِكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي"<sup>2</sup>، ثم ذكر قول أبي جهل بعد أن دعاه أبو سفيان للرجوع وقد نجى بالقافلة التي خرجوا لحمايتها، حيث قال: "والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكان موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم ثلاثا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا". وعقب البغوي على ذلك بقوله: "قوافوها فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. فهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وسلم"<sup>3</sup>.

ثم عاد وأكد أن البطر ومرآة الناس سبب في الفشل والهزيمة، وأن العكس بالعكس صحيح، فاتقاء البطر ومرآة الناس في الحرب من القواعد العسكرية التي يجب مراعاتها وقد ذكر ذلك في القاعدة السابعة عشر ضمن القواعد الحربية المستخلصة من سورة الأنفال.

أما الغرور والعجب وكونه من أسباب الهزيمة، فقد بيّن ذلك الشيخ عند حديثه عن قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: 25]، فبين أن الهزيمة أول الأمر في حنين وقعت بأسبابها وهي الغرور والعجب، تماما كما وقعت الهزيمة في أحد بأسبابها وأهمها مخالفة أمر القائد، فبعد أن

<sup>1</sup> تفسير المنار 24 / 10

<sup>2</sup> الطبري تاريخ الرسل والملوك، 441/2، الحديث ضعيف، البرزنجي، صحيح وضعيف تاريخ الطبري، 82/7

<sup>3</sup> البغوي معالم التنزيل في تفسير القرآن، 366/3

أورد ما روي عن الربيع بن أنس، قال: "قال رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة. فشق ذلك على النبي . صلى الله عليه وسلم"<sup>1</sup>، وذكر وقوع الهزيمة وقال: "وقعت بأسبابها فكانت عقوبة على هذا الغرور والعجب الذي تشير إليه الكلمة، وتربية للمؤمنين حتى لا يعودوا إلى الغرور بالكثرة؛ لأنها ليست إلا أحد الأسباب المادية الكثيرة للنصرة، وما تقدم بيانه من الأسباب المعنوية في سورة الأنفال أعظم، وقد قال تعالى حكاية عن المؤمنين الكاملين الذين يعلمون قيمة أسباب النصر المعنوية كالصبر والثقة بالله والاتكال عليه: ﴿

قَالَ الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249] وكذلك وقعت الهزيمة بأسبابها في يوم أحد عقوبة وتربية كما تقدم في محله"<sup>2</sup>، فبين الشيخ أن كثرة المسلمين التي أعجبتهم وغرتهم لم تكن كافية لانتصارهم، ولم تغن شيئاً عنهم ولم تمنع الهزيمة ولا عار الغلب حتى ضاقت الأرض عليهم بما رحبت ولم يجدوا فيها ملجأ ولا ملاذا فولوا ظهورهم لعدوهم مدبرين لا يلوون على شيء.

ثانياً: الوهن

جاء النهي عن الوهن في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، الأول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139] والثاني: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 104] والثالث: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 35]، وعرف الشيخ الوهن بأنه الضعف في العمل وفي الأمر وكذا في الرأي<sup>3</sup>، وعندما يسكن الوهن قلوب أمة ما يكون ذلك

<sup>1</sup> ي البيهقي، دلائل النبوة 123/5. والحديث ضعيف حيث جاء في هامش الكشف والبيان، وأخرج البيهقي في "دلائل النبوة" من طريق يونس بن بكير، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع: أن رجلاً قال يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأنزل الله .. الحديث، وهذا الإسناد ضعيف، لضعف الربيع بن أنس خاصة ما روى عنه أبو جعفر الرازي، لأن في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً كما في "تهذيب التهذيب" 1/ 589 - 590، وعلة أخرى أيضاً وهي الإرسال؛ إذ أن الربيع لم يدرك هذه الواقعة، الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 248/13

<sup>2</sup> تفسير المنار 220/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 147/4

مدعاة لتجرؤ الأمم الأخرى عليها، وعلى المسلمين محاربة الوهن والتخلص منه مهما أصابهم البلاء والشدة والكره، فقد جاء النهي عن الوهن أول مرة في سياق الحديث عن غزوة أحد، فبعد أن أصاب المسلمين ما أصابهم فيها، جاء قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

قال الشيخ في معنى الآية: "أي لا تضعفوا عن القتال وما يلزمه من التدبير بما أصابكم من الجرح والفتل في أحد ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم، ويصح أن يكون هذا النهي إنشاء بمعنى الخبر، أي إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهنا لأمركم ومضعفا لكم في عملكم ولا موجبا لحزنكم وانكسار قلوبكم... بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتا بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم والبصيرة وإحكام العزيمة واستيفاء الأسباب في القتال وغيره"<sup>1</sup>، أي أن سنن الله في النصر والظفر تقتضي الصبر والحزم والعزم، أما الوهن فليس إلا من سنن الفشل والذل والإنكسار.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146] بين الشيخ ما تشير إليه الآية من عدم تسرب الوهن إلى نفوس السابقين من النبيين وأتباعهم رغم ما أصابهم من المحن والقتل والجرح فقال: "﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النبي نفسه؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربه لا في سبيل شخص نبيهم"<sup>2</sup>، أي لم يتسلل إليهم مرض الوهن المؤدي إلى الذل والهوان فمن سنة الله أن من أصابه هذا المرض أن يؤدي إلى خسارته وهلاكه، وعلى المسلمين أن يتعلموا هذه السنن وأن يتنبهوا إليها فهي تجري على الجميع مسلمين وغير مسلمين فختم الشيخ بقوله: "فعلينا أن نعتبروا بحالهم، فإن دين الله واحد، وسنته

<sup>1</sup> تفسير المنار 119/4

<sup>2</sup> تفسير المنار 141/4

في خلقه واحدة ؛ ولذلك هديتم إلى السنن وأمرتم بمعرفة عاقبة من سبقكم من الأمم، فاقتدوا بعمل الصادقين الصابرين"1.

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 104] يبين الشيخ أن الآية تحت على العزيمة وعلو الهمة في ابتغاء الكافرين ومهاجمتهم، وبذلك يتخلصون من الوهن الذي يكون بالقعود والتزام الدفاع بدلا من الهجوم، وقد قيل: "خير وسيلة للدفاع الهجوم" فيقول: "ولا تهنوا في ابتغاء القوم، أي: عليكم بالعزيمة وعلو الهمة مع أخذ الحذر والاستعداد حتى لا يلجم بكم الوهن - وهو الضعف مطلقا أو في الخلق أو الخلق كما قال الراغب<sup>2</sup>، في ابتغاء القوم الذين ناصبوكم العداوة أي طلبهم، فهو أمر بالهجوم بعد الفراغ من الصلاة، بعد الأمر بأخذ الحذر وحمل السلاح عند أدائها، وذلك أن الذي يلتزم الدفاع في الحرب تضعف نفسه وتهن عزيمته، والذي يوطن نفسه على المهاجمة تعلق همته، وتشتد عزيمته، فالذهي عن الوهن نهى عن سببه، وأمر بالأعمال التي تضاده، فتحول دون عروضه"<sup>3</sup>.

وقد تحدث الشيخ في موضع آخر عن الوهن وأثره في تآكل بلاد المسلمين، وزوال ملكهم عن كثير من الممالك التي خضعت لهم، وأن ذلك كان بالسنن والأسباب التي وضعها الله تعالى، فعندما تحدث عن تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65] ذكر حديث ثوبان قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك

<sup>1</sup> تفسير المنار 141/4

<sup>2</sup> المفردات في غريب القرآن، ص 887

<sup>3</sup> تفسير المنار 317/5

لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبجح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال: من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضاً"<sup>1</sup>، ثم بين أن وعد الله في الحديث في بلوغ ملك أمته مشارق الأرض ومغاربها قد تحقق وفق السنن التي وضعها الله تعالى.

ثم أجاب عما قد يتبادر إلى الذهن من سؤال عن وقوع التسلط من الأعداء واستباحة بيضة المسلمين والواقع الذي يظن البعض أنه مخالف للوعد الذي جاء في الحديث، فقال: "ويمكن أن يجاب عن حديث ثوبان هذا بجواب آخر... وهو أن الله تعالى لا يسלט عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبجح بيضتهم ما داموا مستمسكين بعروة الإيمان الوثقى، وقائمين بحقوقه ومنها الأسباب التي وعدهم الله تعالى النصر ما داموا مستمسكين بها، وقد بينها لهم في كتابه، وتقدم كثير منها فيما مر من التفسير"<sup>2</sup>، ثم أيد كلامه بحديث آخر عن ثوبان يفسر فيه ما أصاب المسلمين، فقال: "ويؤيد ذلك حديث آخر عن ثوبان نفسه، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"<sup>3</sup>.

وهذا كلام واضح في أن الوهن سبب فعال في تداعي الأعداء وجلب الهزيمة ووقوع الذل والخسران، فشتان بين قوم كانوا يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة، وملئت قلوبهم شجاعة وإقداماً وأنفة، حتى صدق فيهم قول الشاعر:

حَمَلُوا قُلُوبَ الْأُمَمِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ      وَلَوَّأَ عَمَائِمَهُمْ عَلَى الْأَقْمَارِ  
إِنْ خَوْفُوكَ لَقِيَتْ كُلَّ كَرِيهَةٍ      أَوْ أَمَّنُوكَ حَلَّتْ دَارَ قَرَارِ<sup>4</sup>

<sup>1</sup> قال الشيخ رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي وغيرهم بزيادة عما هنا، ينظر تفسير المنار 413/7 والحديث رواه مسلم بهذا النص في صحيحه، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح2889، 2215/4، ولا أعلم لماذا لم يتكر الشيخ ذلك.

<sup>2</sup> تفسير المنار 413/7

<sup>3</sup> سنن أبي داود باب تداعي الأمم على الإسلام ح 4297، 354/6، قال الأرئؤوط في الهامش حديث حسن.

<sup>4</sup> هذه الأبيات لأبي إسحاق الصابي، ينظر، العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 29/12

وبين قوم ملاً الوهن نفوسهم فتعلقت بحب الدنيا، وكرهت الآخرة، فصاروا يحسبون كل صيحة عليهم، وصدق فيهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع"<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث: الخلل بين القيادة والجيش سبب في الضعف والفتل

القيادة فن ومهارة وحسن إدارة وتدبير، وهذه الأمور في القيادة العسكرية أكثر أهمية وضرورة، والجيش في المعركة لا بد أن يكون على ارتباط كامل مع القيادة، ولا بد من الثقة المتبادلة والطاعة الكاملة من الجنود للأمر، وقد أكد الشيخ على ذلك فقال: "فإن طاعة الجيش للقائد من شروط الظفر"<sup>2</sup>، وإن الحرب تحتاج دقة وعلم وخبرة ولا بد للقائد أن يكون على مستوى من التأهيل يناسب المنصب الذي يتولاه، وإن تعيين القادة دون تأهيل أو على أسس غير سليمة ولا اعتبارات ومحسوبيات خاصة لهو من عوامل الضعف والفتل، ويكون القائد بذلك عرضة للزلل والأخطاء القاتلة التي تؤدي إلى الهزيمة والخسران، وفي زماننا هذا أصبحت الحرب أكثر تعقيداً ودقة، وتحتاج أكثر تأهيلاً وعلماً، وقد نبّه الشيخ إلى ذلك فقال: "الحرب صارت صناعة دقيقة وفنا من العلم لا بد فيها من حضور العقل وجودة النظر، فرب غلطة من قائد تذهب بجيشه وتظفر به عدوه"<sup>3</sup>.

ثم بين الشيخ أهمية انضباط الجيش والتزام الجنود بتنفيذ أوامر القائد، حيث أن القائد بمثابة الرأس المدبر والجنود بمثابة الأعضاء المتحركة والمنفذة لما يصدر عن الدماغ، وقد شبه الشيخ الجنود بالآلات العاقلة التي لا بد لها من السمع والطاعة فقال: "فالضباط مدبرون والجنود آلات عاقلة في أيديهم لا نجاح لها إلا بالسمع والطاعة مع الفهم"<sup>4</sup>، وهذا الانضباط والتماسك بين القادة والجنود عامل أساسي في صلابة الجيش وقوته، وإن وقوع الخلل وإشاعة الشك بين القادة العسكريين وأتباعهم ونزع الثقة من بينهم كل ذلك يؤدي إلى الضعف والفتل وخاصة عندما تدخل العناصر المحبطة والمحبطة من المنافقين والذين يطلق عليهم (الطابور الخامس).

<sup>1</sup> مسند الإمام أحمد ح 8263، 15/14، قال الأرئوط في الهامش إسناده صحيح،

<sup>2</sup> تفسير المنار 386/2

<sup>3</sup> تفسير المنار 264/2

<sup>4</sup> تفسير المنار 264/2

لقد تحدث الشيخ عن الخلطة في الجيش الإسلامي وما يحدثه المنافقون من ضرر وضعف في المعنويات اضطراب في الرأي وفساد في العمل وتراجع في القتال عند خروجهم في صفوف المسلمين وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَعُونَكُمْ إِلَّا فِتْنَةً فِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47]، بين معنى الخبال الذي يحدثه المنافقون في صفوف المسلمين وبين معنى الإيضاع والفتنة التي يبغونها المسلمين فقال: "لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود في جماعتكم أيها المؤمنون ما زادوكم شيئاً من الأشياء إلا خبالاً، أي: اضطراباً في الرأي، وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال، وخللاً في النظام، فإن الخبال كما قال الراغب: هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون، والمرض المؤثر في العقل والفكر<sup>1</sup>. والمراد: ما زادوكم قوة ومنعة وإقداماً، كما هو شأن القوة العددية المتحدة في العقيدة والمصلحة، بل ضعفاً وفشلاً ومفسدة"<sup>2</sup>، وضرب الشيخ مثالا لذلك بما وقع يوم حنين، فكان المنافقون أول من فروا من المعركة ولحق بهم ضعاف النفوس والإيمان ومن حديثي الإسلام من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم، فأوقع ذلك الاضطراب والخلطة في الجيش ففسد نظامه، حتى فر عامة المؤمنين من غير تدبر أو روية، وهكذا شأن الجماعات البشرية في هكذا أحوال.

وهذا كلام واضح في أن الكثرة العددية إذا لم تكن متحدة وعلى قلب واحد فإنها تنقلب وبالا على الجيش، ومن المعروف أن الخوف يتسلل من نفس إلى أخرى، وإن الهزيمة تبدأ بفرد واحد أو قلة من الأفراد ثم تنتشر في الآخرين، فعندما يرى الجنود جندياً يفر فجأة من أرض المعركة فإنهم يرتاعون ويضطربون وتدور بهم الدوائر وتجتاحهم الهواجس والظنون، فيتداعون إلى الفرار وتقع بهم الهزيمة.

وعندما تحدث الشيخ عن ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا﴾ ذكر المعنى اللغوي للإيضاع كما جاء في التاج<sup>3</sup> فهو أهون سير الدواب، وقيل: ضرب من سير الإبل دون الشد، وقيل: هو فوق الخبب. ونقل عن الأزهري<sup>4</sup>:

<sup>1</sup> المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص274

<sup>2</sup> تفسير المنار 408/10

<sup>3</sup> الرُّبَيْدِيُّ، تاج العروس من جواهر القاموس، 338/22

<sup>4</sup> تهذيب اللغة للأزهري 47/3

ويقال: وضع الرجل إذا عدا أي: أسرع، ثم بيّن الشيخ أن خلال الأشياء هو ما يفصل بينها من فروج ونحوها، ثم أوضح المعنى العام فقال: "والمعنى: ولأوضعوا ركائبهم -أو- ولأسرعوا في الدخول في خلالكم وما بينكم سعيا بالنميمة، وتفريق الكلمة يبعونكم الفتنة أي: حال كونهم يبعون بذلك أن يفتنوك بالتشكيك في الدين، والتثبيط عن القتال، والتخويف من قوة الأعداء وفيكم سماعون لهم أي: وفيكم أناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم والعقل كثيرو السمع لهم؛ لاستعدادهم لقبول وسوستهم"<sup>1</sup>.

وهكذا يبين الشيخ أن من أخطر الأمور التقاء المنافقين مع ضعفاء الإيمان في داخل جيش المسلمين، فالمنافقون يثيرون الفتنة والشك وضعفاء الإيمان يصغون ويقبلون، وبين الشيخ أن هذا هو المعنى المتبادر إلى الذهن لا أن يكون المنافقون خارج الجيش وضعفاء النفوس والإيمان داخله يسمعون وينقلون لهم ما يعينهم من الأخبار، وإن كان الطبري قد رجح هذا المعنى وقدمه الزمخشري كذلك معتمدين على كلمة (سماع) إلا أن الشيخ قال: "وقيل: أناس نامون يسمعون لأجلهم ما يعينهم من أقوالكم فيلقونها إليهم، وهو بعيد وإن رجحه الطبري وقدمه الزمخشري، وسماع بالتشديد صيغة مبالغة لا يختص بما قاله الطبري فيها؛ فإن أولئك المنافقين الذين استأذنوا لم يكونوا معروفين متميزين بحيث تكون لهم هيئة مجتمعة في الجيش تتخذ الجواسيس لتنظيم عملها"<sup>2</sup>.

ويختم الشيخ حديثه عن هذه الآية، وتعقيباً على قوله تعالى: (والله عليم بالظالمين) بأن الله تعالى قد علم أن خروجهم شر لا خير فيه وضعف لا قوة<sup>3</sup>، وبذلك تتبين سنة الله تعالى في أن الخلل والضعضة داخل الجيش مدعاة للهزيمة والخسران، وإن أكثر من يوجدون الخلل داخل الجيش هم المنافقون وضعفاء النفوس والإيمان، وهؤلاء أسرع إلى الفرار والتولي يوم الزحف، وفي ذلك ما فيه من إشاعة الفوضى والاضطراب داخل الجيش، ولذلك حرم الله تعالى التولي عند الزحف ولقاء الكافرين أشد تحريم، فقال: ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ

<sup>1</sup> تفسير المنار 408/10

<sup>2</sup> تفسير المنار 409/10

<sup>3</sup> تفسير المنار 409/10

ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ

مُتَحَرِّفًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ [الأَنْفَال: 15-16] وقد جعل

الشيخ تحريم التولي من الزحف قاعدة من القواعد الحربية التي ذكرها آخر سورة الأنفال، وقال: "وهو أكد من إيجاب الثبات في القتال"<sup>1</sup> فقد جعل عدم التولي مقدما على الثبات، وإن كان كلاهما من سنن النصر والهزيمة، ليبين لنا أن أول ما يجيب أن يبدأ به القائد هو تطهير الصف الداخلي وتنظيمه، والعناية به من أن يتخلله الضعف والخور، كون ذلك من أخطر سنن الضعف العسكري المؤدية إلى سقوط الأمم.

وأقول إن أخطر ما يضعف الجيوش ويلحق الهزيمة بها هو اختراق هذه الجيوش وفهم خططها وزعزعة أركانها وإثارة الفتنة من داخلها، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم العبر في تجنب هذه السنة من سنن السقوط، وإحلالها في غيره فقد كان يحذر ويحذر من المنافقين، وجاءت سورة التوبة تقضح خططهم ونواياهم، وكان صلى الله عليه وسلم إذا خرج في غزوة ورى عنها إلا غزوة تبوك<sup>2</sup>، ومقابل ذلك استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم اختراق جيوش العدو وفهم خططها لإثارة الشك والبلبله والفتنة في داخلها، وكمثال على ذلك ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، فقد أرسل حذيفة بن اليمان لاستطلاع أخبار العدو<sup>3</sup>، وأرسل نعيم بن مسعود لإثارة الفتنة والشك في صفوفه<sup>4</sup>، وهذا ما تفعله المخابرات العسكرية في الجيوش الحديثة، فكل جيش قوي لا بد ان يكون أحد أجهزته جهاز خاص للمعلومات الأمنية، يحافظ على سرية خططه وقدراته، ويسعى لاختراق خطط العدو ومعرفة قدراته.

<sup>1</sup> تفسير المنار 129/10

<sup>2</sup> "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ، فَعَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرِّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَقَارًا، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوً عَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ" صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فوري بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس". صحيح البخاري، ح4/2948، 48/4.

<sup>3</sup> دعا الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لياتيه بخبر الأحزاب فقال: "يَا حَذِيفَةُ، فَأَذْهَبْ فَأَدْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُخَدِّشْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا". مسند الإمام أحمد، ح23334، 358/38. وقال الأرنؤوط حديث صحيح، وهذا إسناد حسن لولا إرساله.

<sup>4</sup> ينظر خبر نعيم بن مسعود وإيقاع الفتنة والشك بين الأحزاب وبنى قريضة في غزوة الخندق، سيرة بن هشام 229/2.

## الخاتمة

لقد استبان لي من خلال دراستي هذه أن هناك كثير مما يمكن أن نقدمه للأمة من خلال الإقبال بها على مائدة القرآن، وإن دراستي للسنن الإلهية كما جاءت في تفسير المنار قد فتحت أمامي الكثير من الآفاق، وأثارت الكثير من الأفكار التي أعتقد أنها ستسهم في تعزيز ما يقدمه الباحثون من دراسات تهدف إلى نهضة الأمة والأخذ بيدها لاستعادة دورها في موقع الشهادة على غيرها من الأمم،

ويمكن استعراض أهم النتائج والتوصيات على النحو الآتي:

### أولاً: النتائج

- 1- كان لارتباط الشيخ محمد رشيد رضا الوثيق بأستاذه الإمام محمد عبده وإطلاعها على أفكار زعماء مدرسة الإصلاح وأواخر القرن التاسع عشر الأثر البالغ في عنايته بالسنن الإلهية في رقي الأمم وانحطاطها في تفسيره للقرآن الكريم.
- 2- تحدث الشيخ محمد رشيد رضا عن السنن الإلهية حديث عالم بمعناها ومفهومها، فكان هو وإمامه الشيخ محمد عبده من أوائل الذين عرفوها، فبينما أنها طرق قديمة وقواعد ثابتة، ونظام عام لا يتبدل، تجري أحكامه على الأمم والاجتماع البشري دون محاباة أو تمييز، وكل الذين تحدثوا في السنن الإلهية من بعدهما كانوا يحومون ويدندنون حول هذا المفهوم.
- 3- لقد كان لواقع الحال السياسي والديني والفكري الذي كانت تعيشه الأمة زمن الشيخ الأثر البالغ عليه، فقد كانت الأمة في حالة من الضعف والتشردم، بعيدة عن روح الإسلام ومنهجه، قد انتشرت فيها الأفكار الخبيثة الهدامة، مما دفع الشيخ أن يعمل بكل ما أوتي من قوة، وما آتاه الله من فكر حاد وذهن متوقد، من أجل تحصين الأمة، وتخليتها من كل خبيث وضار، وتحليلتها بكل مفيد نافع، فدرس وفسر القرآن الكريم تفسير مشخص للداء باحث عن الدواء.

4- لتفسير المنار الدور الأبرز في بعث مصطلح السنن الإلهية فقد ورد الحديث عن السنن فيه مئات المرات ولا أبالغ إذا قلت إنه هو واضع لبنات علم السنن القوية، فقد جاء التفسير بمثابة دراسة شاملة للسنن الإلهية في الاجتماع وال عمران، وكانت عنايته بهذه السنن بمستوى لم يصل إليه أي تفسير سابق وحتى أي تفسير لاحق على الرغم من زيادة عناية المفسرين بهذه السنن في العصر الحديث، وكان هذا التفسير هو الذي فتح الباب لكل الذين جاؤوا من بعده لدراسة السنن الإلهية واستكشافها.

5- العقيدة الصلبة والإيمان القوي سنة أساسية من السنن الإلهية في نصر الأمة وتحقيق نهضتها، وقد أبرز الشيخ في تفسير المنار هذه السنة في العديد من المواضع، فحيث وجدت العقيدة الصحيحة والإيمان الخالص وجد النصر والتمكين، فهي واحدة بوحدة أو شرط بشرط، فلا نطلب عزة ونصرا بغير عقيدة وإيمان، ولا نطلب القوة والغلبة بغير توحيد الله وتقواه، ونكره، وموالاته على الوجه الذي أمرنا به ودعانا إليه.

6- حاجة الأمة إلى الأخلاق كحاجتها إلى العقيدة، وإن الأخلاق هي روح الأمة وعمادها وهي من أعظم السنن الإلهية في نهضة الأمم وعلوها، فالاجتماع وال عمران لا يكون بغير الأخلاق، ومن ينشد نهضة الأمة بغير الأخلاق كمن يريد انطلاق المركبة بغير وقود، وحيثما وجدت الأخلاق المهذبة والسلوكيات الحميدة والآداب الزكية وجد المجتمع المتماسك والأمة القوية والحياة الطيبة، وقد أبرز تفسير المنار ذلك بشكل واضح

7- من أهم سنن النهضة في سياسة الأمة وجود الحكم الرشيد العادل، ومن ذلك وجود الحاكم الصالح الذي يفيض قلبه بمحبة البلاد والرحمة والشفقة على سكانها، ويكون ذا أصل راسخ في الأمة، يملك مؤهلات القيادة من الاستعداد الفطري والعلم وحسن التدبير، ويختاره المسلمون من بينهم ويبايعونه.

8- وسع تفسير المنار مفهوم أولي الأمر الذين فلم يقصره على الأمراء وحدهم، بل جعله يشمل جميع أهل الحل والعقد، وهم الموثوقون من علماء الأمة ورؤسائها في مختلف المجالات والقطاعات، كقيادة الجيوش

ورؤساء النقابات المختلفة وقادة الأحزاب إلخ... وطاعة هؤلاء إذا اتفقوا على أمر ما هي إطاعة أولي الأمر.

9- يبيّن التفسير ان الدولة الإسلامية تقوم على سلطات ثلاث، هي التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهذا شبيه بالدولة الحديثة التي تقوم على هذه السلطات، وقد حددها الشيخ محمد رشيد بثلاث جماعات، جماعة المبيينين للأحكام وسماهم الهيئة التشريعية وجماعة المنفذين وسماهم الهيئة التنفيذية، وجماعة المحكّمين في حال التنازع، وهؤلاء هم الهيئة القضائية.

10- مبدأ الشورى في النظام السياسي الإسلامي مبدأ واجب التطبيق، أما آليات تطبيقه فذلك خاضع لاختلاف الزمان والمكان واتساع الأمة واختلاف أحوالها، وكذلك خاضع لتقدم النظام البشري، وتعدد الوسائل والإمكانيات ووسائل تطبيق هذا المبدأ، ولم يتحدث الشيخ عن الخلاف الفقهي في كون الشورى ملزمة أو غير ملزمة وذلك اكتفاء منه بالحديث عن الوسائل وآليات التطبيق، وأن القرآن والسنة لم يحددا لنا طريقة معينة لتطبيق الشورى وتُرك ذلك للأمة وما تتفق عليه بحسب حالها وزمانها، وكأن الشيخ يقول إن الإلزام وعدم الإلزام لا يحتاج إلى رأي فقهي من علماء الشريعة، ذلك أن الشورى لا تكون في الأمور الدينية، وإنما هي في الأمور الدنيوية، وذلك خاضع لما تتفق عليه الأمة في دستورها الذي تحدد فيه نظام الحكم الذي تدير به شؤونها، وأن هذا النظام هو الذي يحدد الصلاحيات للرئيس وغيره من الأمراء والوزراء، ويحدد متى تكون الشورى ملزمة له ومتى تكون معلمة فقط، وأنه في قضايا معينة تكون ملزمة كالقضايا المصيرية في حياة الأمة، وفي قضايا أخرى تكون فقط معلمة، وعليه فلا حاجة لهذا الخلاف، ويترك الأمر لما تتفق عليه الأمة من خلال أهل الحل والعقد فيها.

11- الأمانة والعدل في النظام الإسلامي من أعظم السنن الإلهية في نهضة الأمة، فالأمانة أساس بقاء الإنسان، تستقر بها الحكومات، وتمتد بها ظلال الأمن والطمأنينة، وأعظم الأمانة في الدولة أن يوسد الأمر إلى أهله، وإنما تنثور المفاصد إذا وسد الأمر إلى غير أهله. وأما العدل فهو مبدأ أساسي في حفظ الأمة وأكثر ما تحتاجه الأمة عند ذهاب الأمانة ووجود الخيانة.

12- من السنن الإلهية في الاقتصاد حفظ المال وتمميتها، فجاء التحذير من وضعه في يد السفهاء سواء كانوا حكاما أو محكومين لأن المال مال الأمة ولا تجوز إضاعته، وإن السعي في كسب المال من الدوافع للسعي في الأرض وإعمارها ومن أعظم أسباب العمران، وإن الإسلام ليس دين استرخاء وعود عن الكسب والعمل، واليد العليا خير من اليد السفلى.

13- تعد الزكاة من أهم السنن الاقتصادية التي تساهم في نهضة الأمة، وفيها الكثير من الفوائد النفسية والتربوية والاجتماعية التي تعود على المجتمع، فهي تطهر النفوس من رفس البخل والطمع والدناءة والجشع والأثرة والقسوة، وتسهم في نهضة الأمة وإصلاح شأنها وزوال بؤس الفقراء وتحقيق بعيش السعداء.

14- ومن أهم السنن في الإصلاح المالي تحريم الربا، إذ إن مفسدته من أكبر المفساد الأخلاقية والاجتماعية، وإن إباحتها جعلت الناس ماديين همهم جمع المال وتكثيره، وتسببت في حصر الثروة بيد قلة من الناس وجعلت الآخرين عالة عليهم، وهو مخرب البيوت، ومزيل الرحمة من القلوب، ومولد العداوة بين الأغنياء والفقراء.

15- تبين أن السنن الإلهية في تحقيق النصر، لا تقتصر على القوى المادية، بل تسبقها القوى المعنوية، ومن أهم هذه القوى الإرادة والعزيمة على الحرب وتحقيق النصر، ثم الصبر والثبات عند لقاء العدو، ثم طاعة القائد والتزام الأوامر، والترابط الوثيق بين الجيش والقيادة، ثم الحبطة والحذر، والعلم بحال العدو ومبلغ استعدادة وقوته.

16- كما أن صلاح العقيدة واستقامتها من سنن النهضة، فإن ضعف العقيدة وانحرافها من سنن السقوط، فعدم الإيمان بالله واليوم الآخر يجعل الإنسان ضعيفا خائفا مترددا، فمن سنن الله أن يقذف الرعب في قلوب المشركين فيسيروا على غير هدى فيقعوا في الذل والخذلان، وعدم الإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان شحيا على الدنيا، حريصا على الحياة، لا يبذل من أجل دينه وأمته نفسا ولا مالا.

17- ومن الانحراف العقائدي المؤدي للضعف والفسل، الخرافات واتخاذ الأولياء من دون الله، وما يجزه التصوف الشاذ من انحرافات عقائدية يتبعها سلوكيات شركية، وكل ذلك يجعل المسلمين يعتقدون بالضر والنفع والعز والذل والنصر والهزيمة من عند الذين اتخذوهم أولياء من دون الله، فينسبون الله تعالى ويتعلقون بمن سواه، فيرتكسون في ذل وضعف وهوان.

18- من سنن السقوط الاحتجاج بالقدر والاعتقاد بالجبر، وهذا الاعتقاد يجعل الإنسان متواكلا لا متوكلا على الله، ويجعله مستسلما للواقع منصرفا عن العمل والاجتهاد، تاركا للأخذ بالأسباب اعتقادا منه أنها لا تنفع مع قدر الله بشي، وكل ذلك مخالف لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر التي تدفع المسلم للكد والسعي متكلا على الله من غير خوف ولا وجل.

19- أثر فساد الأخلاق يظهر في الأمم عامة، ولا يمكن أن تقلت أمة فسدت اخلاقها من أن تجري عليها سنة الله تعالى في السقوط والانحطاط، وإن الغرب الذي انبهر به كثير من أبناء المسلمين، بفجوره وتهتكه وإطلاقه العنان لشهواته، لن ينجو من سنة الله في سقوط الأمم.

20- الظلم من أخطر سنن السقوط، فهو ذل للشعوب وفساد للعمران، الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتألف الخضوع، وتأنس بالمهانة والخنوع، بل إن هذه الشعوب المقهورة التي اعتادت الظلم إذا حاولت إخراجها من واقعها المهين، ورفع نير ما اعتادته من بيئتها الدنية عن رقبتها فإنها تأبى ذلك، وتتقلت منك إصرارا على البقاء فيما اعتادت عليه، وإن هذه السنة من سنن الله تعالى تجري على الأمم في كل زمان.

21- وجود الحاكم المستبد من أخطر سنن سقوط الأمم، فالحاكم عندما يتعامل على أنه الأمر الناهي، وأنه صاحب الرأي السديد الرشيد من غير أن يكثرث إلى رأي أهل الرأي، ولا يخضع لشورى أهل الحل والعقد، فذلك مؤذن بخراب الديار والعمران، ذلك أن وجود الحاكم المستبد ينتج عنه الفساد السياسي وسوء الإدارة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، ثم تقع الخيانة وتروج المحسوبية والشفاعات الباطلة، ويتسلل

المنافقون وبطانة السوء إلى سدة الحكم بتزلفهم للحاكم المستبد وتبريرهم أفعاله، وكل ذلك يسرّع في سقوط الأمة ووقوعها ألعوبة في يد أعدائها.

22- من السنن الإلهية في سقوط الأمم التزاوج الفاسد بين النخب الواعية المثقفة من العلماء والمفكرين وبين الحكام، فبدلاً من أن تكون سلطة العلماء مراقبة ومقومة لسلطة الحكام تكون مساندة لهم في ظلمهم واستبدادهم، فعلماء الدين يفتنون ويبررون، ورجال الفكر والصحافة يدافعون ويروجون، وبذلك تجد الحكام في غيهم وظلمهم يتمادون، وبذلك تعيش الأمة حالة من الفساد والانحطاط.

### ثانياً: التوصيات

بعد أن اطلعت على هذه السنن من خلال تفسير المنار وبعد أن اطلعت على مدى حاجة الأمة إلى فهمها وتدبرها، فإنني أوصي بالآتي:

1- المزيد من دراسة السنن الإلهية التي جاءت في القرآن الكريم، ودراستها بشكل خاص من خلال التفاسير المعاصرة وذلك بعد أن فتح تفسير المنار الباب لمن جاء بعده، ولا شك أن بعض المفسرين المعاصرين قد أضافوا إضافات قيمة وبينوا أموراً متعلقة بهذه السنن، لم يذكرها من قبلهم.

2- لا بد أن يوضع علم السنن الإلهية ضمن البرامج الدراسية للجامعات وخاصة كليات العلوم الإسلامية، وتعميم ذلك على الكليات الاجتماعية، لما في هذا العلم من فوائد عظيمة للباحثين في أسباب التقدم والعلو للأمم وأسباب التراجع والهبوط.

3- أوصي مراكز ومعاهد البحث العلمي بمزيد من الاهتمام في أبحاث السنن الإلهية وأن يشارك في ذلك المختصون بهذه الدراسات، ولا بد من وضع مقررات دراسية بنسق علمي منهجي يقوم على ترتيب وتفصيل السنن في الجوانب المختلفة للأمم، وعدم الاكتفاء بالعموميات كما فعل العديد من الذين بحثوا وتكلموا في هذا الموضوع.

4- دراسة السنن على أساس تكاملي، ولا بد من التوضيح أن التغيير يجب أن يكون شاملا وفق سنن الله تعالى، وعدم الاقتصار على جانب معين من السنن، فلا يمكن للأمة ان تحلق بجناح واحد، بينما تكون مكسورة الأجنحة الأخرى.

5- والتوصية الهامة التي راودتني خلال البحث والدراسة في السنن الإلهية وأهميتها، هي ضرورة جعل العمل بهذه السنن الإلهية من مقاصد الإسلام في حفظ الأمم وصيانتها، فإذا كان من مقاصد الشريعة حفظ الضرورات الخمس للإنسان وهي ضرورات لا يقوم الإنسان بدونها، فإني أدعو من خلال هذا البحث إلى حفظ الضرورات الخمس للأمة، وهي ضرورات جمعية لا تقوم الأمة ولا تنهض بدونها، وهي حفظ عقيدتها وأخلاقها ونظامها السياسي واقتصادها وقوتها العسكرية، وإلى تحريم المس بهذه الضرورات، وكل ما يؤدي إلى إضعافها وإفسادها، ويؤدي بالتالي إلى إضعاف الأمة وإهلاكها.

وعليه فإنني أدعو علماء المسلمين وفقهاءهم ومفكرهم والباحثين إلى مزيد من توسيع علم المقاصد، فلا يقتصر على مقاصد الشريعة الخاصة بالفرد في الدولة الإسلامية، ولكن لا بد أن يشمل ما هو متعلق بالجماعة، فإن مسؤولية المجتمع والأمة عن توفير الأمن والعيش الكريم واستعادة العزة والكرامة لا يقل أهمية عن مسؤولية الفرد، وإن تحقيق الشهود الحضاري الذي أراده الله تعالى حين قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: 78] لا يكون إلا بالأمة المستندة إلى ضروراتها الخمس والمحافظة عليها.

## قائمة المصادر والمراجع

إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري القيرواني (ت 453هـ) زهر الآداب وثمر الألباب

دار الجيل، بيروت

إبراهيم، حافظ، ديوان حافظ إبراهيم، ضبط وتصحيح وشرح وترتيب أحمد امين وآخرون، الهيئة المصرية

العامّة للكتاب، 1987م

الإبراهيمي، محمد البشير، آثار محمد البشير الإبراهيمي جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي،

دار الغرب الإسلامي، 1997م

الأبياري إبراهيم الموسوعة الشوقية، الأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقي، دار الكتاب العربي

بيروت، 1994م

ابن حنبل، أحمد (164-241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون

مؤسسة الرسالة، 2001 م

أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت 733هـ)،

نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423 هـ

أرسلان، شكيب، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما مطبعة بن زيدون دمشق 1937م

إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني أصلا، البغدادي مولدا ومسكنا [ت 1399هـ] هدية

العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة المعارف بإسطنبول، 1955م

الأفوه الأودي، صلاة بن عمرو بن مالك اليميني (ت 560 م) ديوان الأفوه الأودي، الدكتور محمد ألتونجي

دار صادر - بيروت، 1998م

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء مطبعة السعادة -

بجوار محافظة مصر 1974 م

الأطربالسيّ عبد الخالق أسد بن ثابت، الفقيه أبو محمد الدمشقي الحنفي (ت 564هـ) كتاب المعجم، نبيل

سعد الدين جزّار، دار البشائر الإسلامية، 2013 م

الألباني، محمد ناصر الدين [ت 1420هـ]، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة

المعارف للنشر والتوزيع، الرياض

الألباني محمد ناصر الدين (ت 1420 هـ)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة،

مكتبة المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، 1992م.

الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت 1270هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم

والسبع المثاني، علي عبد الباري

الأبباري أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار (ت 328هـ) شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات، عبد السلام

محمد هارون، دار المعارف

أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، الطبعة الرابعة

أوغلى أكمل الدين إحسان وآخرون، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة

الإسلامية إستانبول 1999م

الأيوبي، إلياس، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، كلمات للترجمة والنشر

البخاري محمد بن إسماعيل (194هـ-256هـ) الأدب المفرد، سمير بن أمين الزهيري مكتبة المعارف للنشر

والتوزيع، الرياض، 1998م.

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله (ت 256هـ)، التاريخ الكبير، دائرة المعارف  
العثمانية، حيدر آباد

ابن باديس، عبد الحميد محمد الصنهاجي (ت 1359هـ) تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام  
الحكيم الخبير)). المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين. الناشر: دار الكتب  
العلمية بيروت، 1995م

البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه الجعفي صحيح البخاري جماعة  
من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311هـ، بأمر السلطان  
عبد الحميد.

البرزنجي محمد بن طاهر، صحيح وضعيف تاريخ الطبري، إشراف ومراجعة: محمد صبحي حسن حلاق  
[ت 1438هـ]، دار ابن كثير، دمشق 2007م

الجزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العنكي المعروف (ت 292 هـ) مسند  
الجزار المنشور باسم البحر الزخار محفوظ بالرحمن زين الله وآخرون مكتبة العلوم والحكم - المدينة  
المنورة الأولى

البعوي أبو محمد الحسين بن مسعود (ت 510هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن، محمد عبد الله النمر  
وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 4، 1417هـ-1997م.

البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات  
والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

البيهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (384-458هـ) شعب الإيمان، عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة

الرشد للنشر والتوزيع بالرياض 2003 م

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ) السنن الكبرى، عبد الله بن عبد المحسن التركي،

مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية - القاهرة، 2011م.

البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُوْجِردِي الخراساني، (ت 458هـ) دلائل النبوة

ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، د. عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث

1988م.

البيومي، محمد رجب، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق والدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان، 1995م

تامر محمد متولي في كتاب منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، دار ماجد عسيري، 2004م

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (ت 279هـ) سنن الترمذي أحمد

محمد شاکر وآخرون شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر 1975 م

التفتازاني، مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني ت712هـ شرح المقاصد الدكتور عبد

الرحمن عميرة عالم الكتب بيروت، 1998م

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد

الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ) الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية دار الكتب

العلمية.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني (ت 728هـ) مجموع الفتاوى، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية 1995م

الثعالبي عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت 429 هـ)، يتيمة الدهر، د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، 1983 م

الثعالبي عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت 429هـ) التمثيل والمحاضرة، عبد الفتاح محمد الحلو، 1981 م

الثعلبي أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم (ت 427 هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أشرف على إخراجہ: د. صلاح باعثمان وآخرون، دار التفسير، جدة 2015 م

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية، تحت إشراف رئيسها الأستاذ عبد الحميد بن باديس. يرأس تحريرها: الأستاذان العقبي والزهري

الجندي أحمد أنور سيد أحمد (ت 1422 هـ) تاريخ الغزو الفكري والتعريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين 1920/1940 دار الاعتصام

جمال الدين الحسيني الأفغاني الشيخ محمد عبده، العروة الوثقى، إعداد وتقييم سيد هادي خسرو شاهي، مكتبة الشروق الدولية 2002م

ابن جبیر، محمد بن أحمد بن جبیر الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت 614هـ) رحلة ابن جبیر دار بیروت للطباعة والنشر

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (ت 327هـ)،  
تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة  
العربية السعودية، 1419هـ

ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت 354هـ)  
روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد محي الدين عبد الحميد دار الكتب العلمية - بيروت

أبو حمدان، سمير، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، الشركة العالمية للكتاب، 1992م  
أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت نحو 400هـ)، البصائر والذخائر، د/ وداد القاضي، دار  
صادر، بيروت، 1988م

ابن خلدون عبد الرحمن (732 - 808هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم  
من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، 1981 م

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت 213هـ) السيرة  
النبوية لابن هشام، مصطفى السقا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده  
بمصر، 1955 م

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «كاتب جلبي» (ت 1067 هـ)، سلم  
الوصول إلى طبقات الفحول، محمود عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة إرسيا، إستانبول. 2010 م

الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، مصطفى عبد القادر عطا،  
دار الكتب العلمية - بيروت، 1990م

حسين، الإمام محمد الخضر (ت 1377 هـ) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها  
وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، 2010 م

حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مطبعة المنار بمصر،

1341هـ

حلاق، حسان، تاريخ الشعوب الإسلامية الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، 2000م

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ) معجم الأدياء = إرشاد الأريب

إلى معرفة الأديب، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993 م

حوراني، ألبرت (ت 1413 هـ)، الفكر العربي في عصر النهضة، 1798 - 1939 م ترجمه إلى العربية:

كريم عزقول دار النهار للنشر بيروت، 1986م

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463 هـ) تاريخ بغداد وذيوله

مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية - بيروت، 1417هـ

الخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاعر الخرائطي السامري (ت 327هـ)، مساوي

الأخلاق ومذمومها، مصطفى بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، 1993م

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد، التميمي السمرقندي (ت

255 هـ) مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي) حسين سليم أسد الداراني [ت 1443 هـ] دار

المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 2000 م

دان بيرييه الذكاء والقيم المعنوية في الحرب، تعريب أكرم ديري المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية

للدراسات والنشر ط 2

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، أبو شجاع الهمذاني (ت 509هـ) الفردوس بمأثور

الخطاب، السعيد بن بليون زغلول دار الكتب العلمية - بيروت ط 1، 1406 هـ - 1986م

الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـ)، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ

أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت 275هـ) سنن

أبي داود محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، صيدا

ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي (ت 281هـ)

إصلاح المال، محمد عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت 1993م

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير

والأعلام، د بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 2003 م

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين

بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1985 م

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين خطيب الري

(ت 606هـ) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3، 1420هـ.

الراشد، محمد احمد، المنطلق، مؤسسة الرسالة بيروت، 1975م

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، صفوان عدنان

الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى

70-رضا أحمد، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة - بيروت

رضا، محمد رشيد الخلافة، الزهراء للاعلام العربي القاهرة

رضا، محمد رشيد، المنار والأزهر مطبعة المنار بمصر 1352 هـ

رضا، محمد رشيد، تاريخ الأستاذ الامام الطبعة الأولى في مطبعة المنار، 1931م

رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م

الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، 1986م

الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، 1983م

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، جماعة من المختصين، من إصدارات:

وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، أعوام

النشر: (1965 - 2001 م)

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت 1396 هـ) الأعلام دار العلم

للملايين 2002 م

الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد [ت 538 هـ]، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل

في وجوه التأويل، مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي - بيروت،

987م

أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي

الزيات، أحمد حسن باشا (ت 1388هـ) مجلة الرسالة الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع، ورقم الجزء هو

رقم العدد تاريخ النشر بالشاملة: 9 ربيع الأول 1432

زيدان عبد الكريم السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة 1993م

ابن سعد محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، الطبقات الكبرى، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب

العلمية - بيروت، 1990 م

سكر، عبد الوهاب من أعلام الإسلام نشر وتوزيع المكتبة العربية باب النصر

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت 911هـ)، الدر المنثور، دار الفكر - بيروت

شكيب أرسلان السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما مطبعة بن زيدون دمشق 1937م

شلبي، أحمد، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، 1986م

شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزؤغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» (581 - 654

هـ) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، محمد بركات وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2013 م

الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548هـ)، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي العبسي (ت 235هـ)، المصنف في الأحاديث والآثار،

كمال يوسف الحوت، دار التاج - لبنان، 1989 م

الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني (ت 211هـ)، الأمالي في آثار الصحابة،

مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن - القاهرة

الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام (126 - 211 هـ) المصنف، حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس

العلمي - الهند، توزيع المكتب الإسلامي - بيروت، ط 2، 1403 هـ - 1983م

ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف - مصر، 1995 م

أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، (ت 386 هـ)، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف

طريق المرید إلى مقام التوحيد، د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، 2005 م

طاشكُزُري زَادَة، أحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير، عصام الدين (ت 968 هـ) الشقائق النعمانية في

علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي - بيروت

الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد (260-360هـ) المعجم الأوسط أبو معاذ طارق بن عوض الله بن

محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني الناشر: دار الحرمين، 1995م

الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت 360هـ) المعجم الكبير حمدي

بن عبد المجيد السلفي مكتبة ابن تيمية - القاهرة الطبعة الثانية

الطبري أبو جعفر، محمد بن جرير (224 - 310 هـ) تاريخ الرسل والملوك، محمد أبو الفضل إبراهيم [ت

1980 م] دار المعارف بمصر، 1967م

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (224 - 310 هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، د عبد الله بن

عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، 1422 هـ - 2001 م

طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار المعارف سوسة تونس

طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر دار المعارف، الطبعة الثانية

الطهطاوي، رفاعة بك رافع، المرشد الأمين للبنات والبنين، مطبعة المداس الملكية، 1289هـ

عبّاس، فضل حسن، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، دار النفائس

للنشر والتوزيع، 2016 م

ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري القرطبي (ت 463هـ)، التمهيد لما

في الموطأ من المعاني والأسانيد، مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم

الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب

ابن عبد ربه، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي

(ت 328هـ) العقد الفريد دار الكتب العلمية بيروت، 1404 هـ

عبد النور، محمد، مقال بعنوان "مشكلة الأفكار" .. ماذا تعرف عن آخر إنتاجات مالك بن نبي؟ موقع الجزيرة نت.

أبو عبيد، القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت 224هـ)، الخطب والمواعظ، رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية،

أبو عبيد، القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت 224هـ)، غريب الحديث، محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، 1964 م

العدوي، إبراهيم أحمد، رشيد رضا الإمام المجاهد، المؤسسة المصرية العامة

عزام، عبد الوهاب، المثاني، مؤسسة هنداوي، 2013م

العزاوي قيس جواد، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، 2003م

العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت 852هـ)، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، 1326هـ

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت نحو 395هـ) جمهرة الأمثال دار الفكر - بيروت

عمارة، محمد، الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

العمري أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي، شهاب الدين (ت 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط 1، 1423 هـ

الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد الطوسي (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت

الغزالي محمد، حصاد الغرور دار الشروق، 1998م

الغزالي محمد، جرعات جديدة من الحق المر شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2005م

الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت 277 هـ) المعرفة والتاريخ، أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد  
- بغداد، 1974م

القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي (ت 544هـ) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ابن تاويت  
الطنجي وآخرون مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب الطبعة الأولى

القطان، مناع بن خليل (ت 1420هـ) مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2000م

قطب سيد، في ظلال القرآن دار الشروق، 2004م

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (691 - 751) الطرق الحكمية في السياسة  
الشرعية، نايف بن أحمد الحمد دار عطاءات العلم الرياض، 2019 م

كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية نقلها للعربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي دار العلم للملايين  
بيروت، 1968م

كافي الكفاة، صاحب، إسماعيل بن عباد (326 - 385 هـ)، المحيط في اللغة، محمد حسن آل ياسين،  
عالم الكتب، بيروت، 1994 م

كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت

كُرْد علي، محمد بن عبد الرزاق بن محمّد، (ت 1372هـ)، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، 1983 م

ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774هـ) البداية والنهاية، علي شيري  
دار إحياء التراث العربي 1988 م

لوثرروب ستودارد الأمريكي حاصر العالم الإسلامي نقله إلى العربية عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات  
وحواش مستفيضة عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث بقلم أمير البيان والمجاهد

الكبير الأمير شكيب أرسلان دار الفكر للطباعة والنشر ط 3

الماتريدي محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (ت 333هـ) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، د.

مجدي باسلوم دار الكتب العلمية - بيروت، 2005 م

مجلة المنار محمد رشيد بن علي رضا (ت 1354هـ) وغيره من كتاب المجلة، ومجموعة من المؤلفين،  
(كاملة 35 مجلدا) (رقم الجزء، هو رقم المجلد. ورقم الصفحة، هي الصفحة التي يبدأ عندها المقال

في المجلد المطبوع) تاريخ النشر بالشاملة: 8 ذو الحجة 1431

مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة،

موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net

المحلي جلال الدين محمد بن أحمد (ت 864هـ) والسيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت

911هـ) تفسير الجلالين دار الحديث - القاهرة الطبعة الأولى

محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، (ت 207هـ) الردة مع نبذة من فتوح

العراق وذكر المثني بن حارثة الشيباني، يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، 1990 م

محمد شاکر التاريخ الإسلامي العهد العثماني، المكتب الإسلامي، 2000م

محمد فريد (بك) ابن أحمد فريد (باشا)، المحامي (ت 1338هـ)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المحقق:

إحسان حقي دار النفائس، بيروت، 1401هـ

مورو، محمد، كفاح شعب مصر عصر محمد علي مكتبة ومطبعة الغد، 2007م

مسلم، أبو الحسين بن الحاج القشيري النيسابوري (206 - 261 هـ) صحيح مسلم، محمد فؤاد عبد الباقي،

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1955 م

المسيري عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تاريخ النشر بالشاملة: 8 ذو الحجة 1431 هـ

المطرفي، مشاري سعيد، آراء محمد رشيد رضا العقائدية في أشراط الساعة الكبرى وآثارها الفكرية، مكتبة

الإمام الذهبي للنشر والتوزيع، الكويت، 2014م

المقدم، محمد بن أحمد بن إسماعيل علو الهمة، دار القمة - دار الإيمان، مصر 2004 م

مقديش، محمود نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري، محمد محفوظ الناشر:

دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1988 م

ملال يونس السنن اللاهية في نهوض الحضارة ونكوصها في ضوء نصوص الكتاب وفقه التاريخ بحث مقدم

لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص أصول الدين السنة الدراسية: 2000-2001

جامعة الجزائر آلية أصول الدين

ابن منظور محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)،

لسان العرب، اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر - بيروت، 1414 هـ

موجز دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير/ إبراهيم زكي وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998م

بن نبي مالك بن الحاج عمر بن الخضر (ت 1393هـ) المسلم في عالم الاقتصاد (إشراف ندوة مالك بن

نبي) دار الفكر - دمشق، 2000م

بن نبي مالك بن الحاج عمر بن الخضر (ت 1393هـ) بين الرشاد والنتية (إشراف ندوة مالك بن نبي) دار

الفكر - دمشق، 1978م

بن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر (ت 1393هـ) شروط النهضة دار الفكر-دمشق عام النشر:

1986م

بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر دمشق، 1988م

بن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر (ت 1393هـ) شروط النهضة دار الفكر-دمشق 1986م

بن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر (ت 1393هـ) الظاهرة القرآنية دار الفكر - دمشق 2000م

نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي،

جرجي زيدان تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم مكتبة مدبولي 1999م

ابن نجيم زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف المصري (ت 970 هـ) البحر الرائق شرح كنز الدقائق

وفي آخره: "تكملة البحر الرائق" لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت بعد 1138

هـ) وبالhashية: "منحة الخالق" لابن عابدين، الطبعة الثانية

نيتشة فريدريك، شوهكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م

النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، الشافعي (ت 468هـ) أسباب نزول

القرآن.

عصام بن عبد المحسن الحميدان دار الإصلاح- الدمام، 1992م

النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (ت 850هـ)، غرائب القرآن ورجائب الفرقان،

الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميّه - بيروت، 1416 هـ

هيشور محمد سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط 1، 1996م

هيكل، أحمد عبد المقصود، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، 1994م

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله (ت 207هـ) المغازي،

مارسدن جونز، دار الأعلمي - بيروت 1989

ياغي، إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، ط 1، 1996م

موقع دار الفكر آفاق معرفة متجددة،

[https://web.archive.org/web/20100927110149/http://fikir.com/?Prog=arti](https://web.archive.org/web/20100927110149/http://fikir.com/?Prog=article&Page=details&linkid=978)

[cle&Page=details&linkid=978](https://web.archive.org/web/20100927110149/http://fikir.com/?Prog=article&Page=details&linkid=978)

## الملاحق

### ملحق (أ)

#### شهادة قبول نشر البحث المستل من الأطروحة

عنوان البحث: الجانب السياسي في السنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم: دراسة في تفسير المنار



جامعة فلسطين الأهلية  
Palestine Ahliya University

www.paluniv.edu.ps

مرجع: 1/1/ب.ع/ 2024

التاريخ: 12 تشرين الثاني 2024

#### شهادة قبول النشر

تشهد مجلة جامعة فلسطين الأهلية للبحوث والدراسات أن الدكتور عودة عبدالله والباحث محمد دهامشة، قد قدما بحثهما إلى المجلة بعنوان: "الجانب السياسي في السنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم: دراسة في تفسير المنار"، والذي تم تحكيمه تحكيمًا علميًا، وقد تم قبوله من المحكمين ومن مكتب التحرير بعد إجراء التعديلات اللازمة، وعليه سينشر في المجلد (4) العدد (1) في تاريخ 2025/04/01.

رئيس التحرير

أ.د. ناصر جرادات





**An- Najah National University**  
**Faculty of Graduate Studies**

**THE DEVINE LAWS IN THE RISE AND FALL OF NATIONS**  
**A STUDY IN THE INTERPRETATION OF AL-MANAR**

**By**

**Mohammed Yahya Dahamsha**

**Supervisor**

**Prof. Odeh Abdullah**

**This Disertation is submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of  
Ph.D of Fundamentals of Religion, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National  
University, Nablus, Palestine**

**2024**

**THE DEVINE LAWS IN THE RISE AND FALL OF NATIONS  
A STUDY IN THE INTERPRETATION OF AL-MANAR**

**By  
Mohammed Yahya Dahamsha  
Supervisor  
Prof. Odeh Abdullah**

**Abstract**

This paper studies the divine canons concerning the rise and fall of nations according to Al-Manar Tafsir. Being of a remarkable status in social reform, improvement, guidance, and leading towards the happiness of Dunya (this life) and A'khareh (afterlife), this paper follows its explanation.

The study starts with introducing Al-Manar tafsir and its author Mohammad Rasheed Rada and his connection to Imam Mohammad Abdu. Then, the study examines the concept of the divine canons, and the Ummah's state that led AL-Manar tafsir to consider and emphasize the importance of learning these canons.

Being the best tafsir explaining the divine canons in the societal and civilizational contexts, this paper takes it as a resource of highlighting these canons of nations rise and fall, pride and disgrace, prosperity and degradation.

Since the Ummah foundation depends on solid, indispensable pillars, the researcher identifies five of them: ideological, moral, political, economic, and military. He also explains the divine canons from these aspects, be correct or deviated; righteous or corrupt; and strong or weak, and the resulting impact on the Ummah rise and fall. This all will be shown through explaining and analyzing what the tafsir mentions about these aspects.

**Keyword:** Interpretation, Devine Laws, Interpretation of Al-Manar, Mohammad Rasheed Rada, Mohammad Abdu